GEBRUT : RAUL'S RING

جَبَرُوتٌ

خاتم راؤول

أحمد زكي





جبروت

خاتم راؤول

الكتاب: جبروت (خاتم راؤول)/ رواية

المؤلف: أحمد زكي

تصميم الغلاف: إسلام مجاهد

تدقيق لغوي: أحمد زكي

رقم الإيداع: 2018/23443

الترقيم الدولي: 978-977-778-135-0



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت: 338560372-02

info@noonpublishing.net



أحمد زكي

جبروت

خاتم راؤول

رواية





الإهداء

ربما كان من سوء الأدب أن أهدى إليه شيئا بعدما رحل، ولكنه فعلها فجأة وبقسوة بالغة تاركا إيانا نتخبط قليلا ونبكى كثيرا على رجل ندر الزمان أن يجود بمثله قط..

إلى أبى وأخى وصديقى..

قائدى ومعلمى وقدوتى..

أستاذى ورفيق عمرى منذ تعلمت أن أمسك ورقا وأقرأ..

لمن أبكانا فراقه بكاءا مرا..

العزيز الغالى على قلوبنا..

د .أحمد خالد توفيق.

رحمك الله وجعل مثواك الجنة وألحقنا بك على خير..



لا تنسوه من صلاتكم وصالح دعائكم وشيئا من الخير تهدونه إياه عسى الله أن يتقبل منا ومنكم.

شكر خاص

شيماء عصمت محمد ..

عواطف السيد..

محمد محمود زكى عبدالسلام..

جهاد محمود زكى عبدالسلام..

لا كلمات تصف فضلكم.. شكرا جزيلا.

* * *

سلمى ونور ومالك..

حسبى الله ونعم الوكيل فيكم !

* * *

أ./تامر عبد العظيم سالم..

شكرا لك.


* * *



المقدمة:

ربما كان من المفيد أن نخاف أحيانا، لكن كما تعلم فالخوف يختلف من شخص لآخر ومن وقت لآخر.. على سبيل المثال هناك أشخاص يرتجفون رعبا من قصص الأشباح على حين يرى غيرهم أن هذا الكلام مجرد هراء.. هناك من يخشى الظلام الدامس على حين أنى أعرف شخصا يخاف ضوء الشمس مثل مصاصى الدماء !

ربما كان لا منطق فى الموضوع !

أعرف فتاة تخشى الأوراق المنثنية، وأعرف شخصا يخاف من شكل ثمرة الطماطم الشقوقة بالسكين طوليا !

هكذا ترى أن مسببات الخوف تختلف من شخص لآخر دون شرط، ولربما كان لكل منهم أسبابه !



على كل حال فالخوف شعور إنسانى راق ورائع.. أن تشعر بتدفق الأدرينالين فى دمك.. أن تشعر بالأمان بعد خوف عات.. أنا أحسد الأطفال الذين يشاهدون افلام الرعب لأنهم يشعرون بخوف رهيب لا يبقى ولا يذر يلتهم كيانهم بالكامل حتى يكاد ألا يدع فى كيانهم ذرة تعقل واحدة.. هذا الشعور يندر أن تشعر به عندما تنضج للأسف !

على أن أشد مايثير خوف أى شخص هو المجهول ! ألا يفهم الإنسان ماهو مقبل عليه بالضبط.. ألا يستطيع إدراك مصدر الخطر والهجوم وبالتالى لا يعرف من أين ستأتيه الضربة الغادرة التى تنهى حياته !

على أى حال وحتى لا أطيل عليك؛ هذا الإصدار الخاص يتناول قصة خاتم (راؤول)، وهو أمر يتضح من الغلاف !

لو كنت تابعت الأحداث السابقة فسوف تفهم الكثير بعد هذه الرواية، ولو لم تتابعها فلا بأس لأن القصة هنا منفصلة عما سبقها..



السؤال هنا: هل هذه القصة مخيفة كالعادة ؟

الواقع أنى لست أدرى ياصديقى..

ربما تجدها مخيفة..

ربما تجدها مضحكة..

ربما تجدها مليئة بالمبالغات والمغالطات، لكنى أعدك بشىء من التسلية حتما لأنك دفعت مالا ومن حقك أن تتسلى قليلا على الأقل !

هل أنت مستعد لمعرفة مالم تكن تعرفه من قبل ؟

رائع.. انتبه معى إذن وأعرنى كامل انتباهك لأن القادم..

حسنا.. فلتحكم بنفسك !

بالمناسبة وقبل أن أنسى: فى نهاية الرواية فصل ملحق عن حياة محمد الفاتح يجب أن تقرأها.. لك

الحرية فى الاطلاع عليها الآن أو بعدما تنتهى لكنها هامة للغاية، وسوف تفهم بعد قليل مدى أهميتها.

على الأرض تناثرت بضع وسائد قديمة متهالكة جلسنا عليها داخل منزله الكئيب حول منضدة صغيرة للغاية لا تكاد تتسع لشىء ! بينما الضوء الخافت يغمر المكان بضوء شاحب كئيب كأن الجو يعبق بالأتربة.. وفى منتصف المنضدة يقبع ذلك الخاتم يتوهج بضوء شديد الخفوت..

قطع الصمت السائد صوته الهامس الصدىء قائلا :

- ستنتهى حياتى خلال وقت قصير.. أنا أعلم ذلك يقينا وسأخبركم السبب، ولكن.. ربما كان من حقكم أن تفهموا كل شىء.. لم يعد لدى شىء لأخسره على أى حال..

ساد صمت خفيف وسط سعال أو كحة من أحدنا وكل منا يحاول أن يرد عليه بشىء، لكنه أنهى إحراجنا وهو يمد يده نحو الخاتم بهدوء ويقول:



- فليمد كل واحد منكم إصبعاواحدا فحسب ويمس به هذا الخاتم ولا يسحب يده إطلاق إلا عندما أسحب أنا الخاتم.. سترون كل شىء وستسمعون كل شىء.. أعلم أنكم تثقون فى لذلك لن أطلب منكم إلا طلبا واحدا فحسب..

ابتلع ريقه ثم همس بصوت مخيف:

- لا تخافوا !

صفوا عقولكم وشاهدوا معى ما سيحدث فقط !

تنهدت فى عمق وأنا أفرك وجهى بكفى قبل أن أمد إصبعى للخاتم.. أنا لا أريد أن أعرف شيئا فى الواقع ولكنه الإحراج كما تعلم.. أن يقولوا عليك أنك جبان أو يرمقونك بنظرة مستحقرة.. بسبب مثل هذه الأفعال السخيفة هلك الكثير من الناس وأرجو ألا أكون منهم فى هذه الليلة السوداء !

ولهذا السبب الأحمق مددت إصبعى وانتظرت حتى يبدأ العرض الكئيب !





الفصل الأول

(لَتُفْتَحُنَّ اَلْقُسْطَنْطِيْنِيَّةُ.. فَلَنِعْمَ اَلْأَمِيْرُ أَمِيْرُهَا، وَلَنِعْمَ اَلْجَيْشُ ذَلِكَ اَلْجَيْشُ)..

حديث شريف.

«وكم من مآسٍ ومجازر تحدث فى الحروب بقصد أو بدون قصد.. ويبقى جرح القلب الدامى مؤلما يذكرنا بمن نحبهم..

لا بأس أن نحارب وننتصر، لكن ما أقسى الحياة حين نحارب ويموت أحبابنا دون حتى أن نفهم السبب !

أو نفهم السبب لكن.. وما شأننا نحن بهذا كله !»

عام 1453 ميلادية/ أوروبا/ القسطنطينية:

قصف المدافع الجبارة يدوى كالرعد، بينما ترتج المدينة ارتجاجا تحت وطأة القصف المدفعى الثقيل



الذى يشنه (السلطان محمد) العثمانى على مدينة القسطنطينية..

ترى الناس يتدافعون فى ذعر يحتمون بالأماكن التى تبدو قوية أو بالكنائس المتناثرة هناك، بينما يكثف جنود المدينة دفاعهم وحمايتهم للأسوار.. وفى منزل صغير قديم يشبه الوكر تحت مستوى الأرض كان الكاهن (راؤول) يحتمى مع أسرته مرتجفين وهم يكادون يفقدون سمعهم من فرط الانفجارات العظيمة المتتالية..

كانت زوجته تحتضن طفلتيه وعيناها تنطقان بالفزع بينما كان هو يحاول أن يعد لهم فى عصبية شيئا من الطعام.. كان يتمنى الخروج بأسرته من هذا الجحيم الذى لا ناقة فيه له ولا جمل لكن كل المدينة مغلقة ولا يمكنه حتى الاستسلام؛ فقد سمع أن (السلطان محمد) عرض على قائد المدينة (جستنيان) أن يترك كل من فى المدينة سالمين وأقسم ألا يمسهم بسوء إطلاقا مقابل إعلان التسليم فحسب، لكن (جستنيان) رفض في غطرسة متناهية !



كان (جستنيان) يعلم أن مدينته حصينة للغاية.. بل ربما هى أقوى مدينة على وجه الأرض آنذاك؛ إذ أنها يحيط بها البحر من ثلاث جهات، وتحت المياه من ناحية القرن الذهبى توجد سلسلة أسطورية عملاقة تتحكم فى دخول السفن وخروجها من المدينة ولا يمكن تجاوزها بأى شكل من الأشكال.. والجهة الرابعة من المدينة يحميها سور عال قوى ذو أبراج مدججة بالسلاح والعتاد ولا يمكن اختراقه هو الآخر، وبالفعل تصدت المدينة لإحدى عشرة محاولة اختراق من قبل على مدار التاريخ وكلها فشلت فشلا مزريا؛ لذلك كان (جستنيان) على ثقة من أن (السلطان محمد) سيخسر حربه لا محالة !

كان الشماس (راؤول) شاردا فى ذلك، لكنه لا يدرى مالذى يحدث.. المدينة ترتج والقصف يدوى بصورة فائقة العنف.. إنه لم يسمع مثل هذه الانفجارات قط حتى مع أشد العواصف الرعدية قوة؛ لذلك بعث خادمه الصغير (بيتر) ليتقصى الأمور ويفهم ما الذى يدور فى الخارج بالضبط لأن الوضع غير مطمئن على

الإطلاق.. يعرف أن هناك مناوشات بين الجيشين منذ عدة أيام لكن اليوم مختلف..

اليوم مخيف مقبض ومؤلم.. رائحة الموت تنتشر فى الهواء تزكم الأنوف مع البارود والغبار !

وضع الطعام فى ثلاثة أطباق معدنية قدمها لزوجته وطفلتيه فى شرود ثم انضم إليهم بطبقه وقلبه يصلى أن ينتهى اليوم على خير..

مضى الوقت بطيئا والظلام يزحف على المدينة رويدا رويدا و(بيتر) لم يعد.. أتراه أصيب بمكروه ؟

لم يكن بإمكانه شىء إلا الصلاة أن يعيده الرب سالما.. كان (بيتر) خادما مطيعا ويحبه الأب (راؤول) كما لو كان ابنا له..

مر الوقت بطيئا كئيبا إلى أن سمعوا طرقات خافتة على الباب.. نهض (راؤول) بقلب واجف يفتحه ليدلف (بيتر) إلى الوكر وهو يرتعد من فرط الاهوال التى رآها وسمع عنها بالخارج !



تعجب الكاهن من حالته الرثة لأنه كان غلاما قوى الشكيمة إلى أبعد حد ولا شىء يمكن أن يثير خوفه إلى هذه الدرجة على الإطلاق!

جلس الغلام وناوله (راؤول) طبقه الذى لم يمس منه شيئا، فتناوله شاكرا ومد شفتيه يشرب مما فيه ثم وضعه جواره بحرص ريثما يستطيع النهوض، ثم بدأ يقص عليهم ما رآه وسمعه وضربات قلوبهم تزداد عنفا مع كلماته، خاصة قلب الشماس (راؤول) لأنه لأول مرة فى حياته يشعر بالخوف الشنيع وهو يتأمل وجوه أسرته الممتقعة ويتخيل ما الذى يمكن أن يحدث لهم..

أخبرهم الفتى أن (السلطان محمد) أحضر معه مدافعا عملاقة للغاية.. مدافع أسطورية لم يشهد العالم مثلها قط، إذ أن المدفع الواحد يصل وزنه لمئات الأطنان ويمكن رؤيته من عدة كيلومترات ! وقد مهد له السلطان طرقا خاصة كى يجرجروه عبر البلاد وحتى يصل لأسوار القسطنطينية؛ لأنه لا يمكن رفعه من الأرض بأى شكل ولا مركب على وجه الارض يمكنها حمله !



وأخبره أن الجيش القادم بصحبته يتجاوز المائتين وخمسين ألفا من المقاتلين ! ربع مليون رجل مدججين بالسلاح والعتاد والأسهم المشتعلة ! ويصاحبهم جيوش من العلماء الدينين مهمتهم فقط أن يبثوا فيهم الحماسة طوال الوقت !

وأخبره عن المجانيق المعدنية الهائلة التى تطل من خلف الأسوار كأعناق التنانين تلقى عليهم الصخور الضخمة وكرات النيران المشتعلة.. مجانيق مخيفة هائلة لا يمكن تخيل حجمها إلا عندما تراها، حتى أن أهل المدينة قالوا أن (محمدا) هذا بإمكانه هدم جبل بهذه المجانيق وحدها لو أراد !

وأخبره عن ما يقرب من أربعمائة سفينة حربية ضخمة أحاطت المدينة من جهاتها البحرية الثلاث وملأت مياهها تماما حتى لا يمكنك أن ترى إلا أعلام العثمانيين وهى ترفرف فوق صوارى سفنهم فحسب.. هذه السفن لم تتجاوز السلسلة الأسطورية عند القرن الذهبى لأن السلسلة تدمر أى سفينة تجروء على



الاقتراب تدميرا، لكنهم لا يعرفون ما الذى فى جعبة (السلطان محمد) إلى الآن!

أخبرهم أيضا أن المدافع الجبارة تقصف الأسوار قصفا متواصلا، و(جستنيان) ورجاله يستميتون فى إصلاح الأسوار وإعادة ترميمها حتى لا تكون هناك أى ثغرات، ولولا أن هذه الأسوار سميكة للغاية لكانت انهدمت مع أول هجمة ! ومما يذكر من أخبار جيدة أن أوروبا كلها تقريبا أرسلت مساعدات لمآزرة جيش (جستنيان)..

أنهى (بيتر) نقل ماعرفه بينما قلب الكاهن (راؤول) يشعر بنغزة قاتلة كأنما غرس فيه خنجر طويلا لتوه.. لا يمكن أبدا أن يمر هذا الموقف بسلام، كان يسمع رجال الدين يطوفون بالخارج ويدعون الناس للتجمع والصلاة فى الكنائس القريبة ويبشرونهم بقرب النصر ودحر المعتدين، لكنه لا يجروء على ترك أسرته هنا وحدهم، أو الخروج بهم فى ظل الفوضى السائدة بالخارج على الرغم من أنه هو نفسه رجل دين والمفترض أن يشارك من بالخارج ما يفعلونه .



وكان الإمبراطور (قسطنطين) بنفسه شبه مقيم فى كنيسة (آيا صوفيا) يصلى ولا يكاد يخرج منها اليوم، تاركا أمر الحرب لقائده المحنك (جستنيان) مؤقتا ريثما ينهى صلاته الطويلة هذه..

كان القصف مستمرا بشكل مخيف هذه الليلة.. نظر تجاه زوجته الجميلة (ماريا) وهى تنظر لفتاتيه تحاول أن تلهو معهما لتنسيهما ما يدور.. شعرها الذهبى الرائع ينساب على جانبى وجهها بينما تلقى خلف ظهرها ضفيرة طويلة تنتهى بشريطة وردية تزيدها روعة وجمالا على جمالها.. لم يكن يحبها ويعشقها لأنها جميلة فحسب، وإنما لأنها أحبته ووثقت فيه وارتاحت له منذ صغرهما.. كان رفاقهما وأهلها يقولون أنها أشبه بأميرات القصور، وكان هو وسيما أيضا لكنه لم يتخيل أن تحبه كل هذا الحب.. يذكر مرات ومرات يتقابلان عند أطراف الغابة وتحضر لها فطائرها التى لم تحسن صنعها على الإطلاق، لكن فى فمه كانت أجمل شىء يذوقه، ثم تغنى له بصوت لم يسمع أرق ولا أعذب منه.. أغنية أثيرة إلى قلبه:



عندما أراك.. نحلق فى السماء..

هل أنت ملاك ؟ مخلوق من ضياء ؟

مكتوب فى النجوم.. برعاية السماء..

أنى أحبك..

مكتوب فى النجوم.. أنى أحبك..

ثم يجلسان بالساعات يتحدثان فحسب ..

إلى أن تزوجا وأنجبا هاتين الدميتين رائعتى الجمال كأمهما.. كان يحبها ويحب طفلتيه بطريقة جنونية.. يحب حتى ما تلمسه هى بقدميها، وكم ذاب من نظرة تلقيها إليه كسهم مسموم يخترق قلبه بلا هوادة، لذلك كان قلب (راؤول) يرتجف خوفا من أى أذى قد يصيبهم..

الانفجارات تتعالى والهرج يتزايد بالخارج، يبدو أن الليلة ستشهد شيئا بالغ السوء.. تساءل بينه وبين

نفسه لماذا لم يقدم الامبراطور أى شيء للتنازل ! لماذا لا يحافظ على أرواح شعبه !

وكأنما سمعه الغلام فاستطرد بعد صمته أن الامبراطور استمات فى الدفاع عن المدينة دفاعا بطوليا، بل وقدم عروضا ل(السلطان محمد) كى ينسحب مقابل كل ما يشاء من المال والطاعة، لكن (محمد) أصر على تسليم المدينة وفتحها تحقيقا لنبوءة رسوله ورغبة فى بشرى قديمة عمرها ألف عام مقابل ترك المدينة سالمة كما هى دون أذى لأهلها أو كنائسها، وفى المقابل لا يريد مالا أو غيره.. فقط الاستسلام والسماح لهم بدخول المدينة !

فجأة قطع كلامهما صراخ وصياح وهرج شديد بالخارج والناس تعدو فى ذعر رهيب، وسمعوا الخبر المفجع..

لقد نجح جيش (السلطان محمد) فى فتح ثغرة عند وادى ليكوس!

***



كانت ليلة طويلة مخيفة اشتدت فيها الحرب كأقوى مايكون.. الصراخ يعم المدينة، بينما أصوات القتال الدائر من بعيد تصم آذان الجميع مزينة بصرخات من يلاقون حتفهم الآن.. والقلوب بالرعب تنتفض والأمل يبدو أنه رحل عن المدينة للأبد !

واستمر القتال..

لكن مع انبلاج الصبح هدأت الأمور تدريجيا حتى ساد الصمت المؤلم بعد ضجة عنيفة ! حتى صوت المدافع اختفى ولا صوت إلا صوت الرياح المحملة برائحة الدماء.. لقد أصدر (السلطان محمد) أوامره بالانسحاب؛ لأن الثغرة ضيقة والجيوش تتكالب عليها من الجانبين ولا فائدة حقيقية منها..

ترقرقت عينا الكاهن (راؤول).. على الرغم من كل شىء فيبدو أن لديهم يوما آخرا كى يعيشوه معا !

مد يديه للجميع وأخذ يصلى ويصلى كى يخلصه الله من هذا البلاء مع أسرته، أو أن يقوم معه بمعجزة



تحميه وتحمى من معه.. لطالما سمع عن معجزات القديسين وظهور العذراء فى المواقف الحالكة.. الآن وقت مناسب للغاية لمعجزة يتحاكى عنها الناس لاحقا ! صلاة عميقة طويلة نبعت من قلبه انتهت عندما هدأت الأوضاع تماما، ثم انخرط الجميع فى نوم عميق هادىء، وفى تلك الليلة رآه لأول مرة..

***

كان يغط فى النوم حقا حين راوده ذلك الحلم..

كابوس..

ربما رؤية ؟!

على كل حال هو غير واثق من كونه حلم أصلا لأن التفاصيل كانت واضحة بشكل غير مألوف فيما يراه النائمون !

كان ممددا فى مكانه حين فتح عينيه ليجد أمامه شخصا وسيما للغاية يرتدى ملابسا سوداء نظيفة لا



يمكنك أن تعرف ماهى بالضبط.. مجرد ملابس فضفاضة سوداء تحيط بجسد رشيق.. كان جالسا أمامهم بهدوء على المقعد الخشبى ينظر لهم بعينين ملأهما الشر والتحدى والاستمتاع معا ! نظرة قط يستعد لانقضاض على طائر صغير..

انتفض (راؤول) من رقدته وحدق فيه بخوف.. صوت تنفسه الثقيل مع الهواء المحمل بالبارود والأتربة والدخان من أثر معركة الأمس خاصة مع صغر حجم وكره هذا جعله يشعر بالاختناق، وبصوت جاف سأله (راؤول) مضطربا :

- من.. من أنت وكيف.. ماذا تريد ؟

ابتسم الجالس بثقة ومد يده إليه دون كلمة وهو ينهض.. ورغما عنه مد هو الآخر يده ونهض من رقدته.. كان ملمس يده عجيبا، على الرغم من أنها تبدو ناعمة إلا أن ملمسها كان مقززا كأنما يمسك بيد ثعبان لو كان شىء كهذا ممكنا !



سار معه مرغما بضع خطوات إلى المرآة الصغيرة على الحائط.. أشار له الرجل الغامض وهو يرفع حاجب التحدى والاستهزاء أن ينظر فيها..

فنظر..

تموجت المرآة ليرى أسوارا منهدمة يعبر خلالها الجنود العثمانيون بأعداد مهولة !

رآهم يقتحمون المنازل منزلا تلو الآخر ويجرجرون النساء من شعورهن ويذبحون الرجال والأطفال فى الشوارع، ثم رآهم يقتحمون وكره الحقير.. ينتزعونه من بين أحضان زوجته وبنتيه، بينما يغمد أحد الجنود سيفه فى قلب (بيتر) بلا اهتمام حقيقى وكأنما يغمد سكينا فى قالب زبد.. انتفض (بيتر) من ألم الموت القادم وسقط جسده على الأرض يتلوى وينازع ويشهق من أجل حياته التى تتسرب من قلب صدره ويديه، ثم يسمع أحد الجنود يقول بصوت لزج غليظ كريه :

- اقتلوا المرأة واقتلوا زوجها أيضا وهاتوا هاتين البنتين الجميلتين كى نستمتع بهما قليلا !

كان (راؤول) يحدق ذاهلا فى المرآة ولا يدرى كيف يتحمل مشاهدة وسماع ما يحدث.. قلبه يدق بقوة غير طبيعية، وعيناه تذرفان الدمع بغزارة ومع ذلك لا يستطيع التكلم.. جسده كله متيبس متجمد لا يستطيع حراكا ولا حتى أن يصرف عينيه عن المرآة !

تذوب المشاهد على المرآة ويجذبه الغريب نحوه فيلتفت إليه بسلاسة وكأنما فقد السيطرة على جسده للأبد.. التمعت عيناه فى ظلام الحجرة بينما ساد صمت مخيف، ثم وضع يده على رأسه لتصل إليه الرسالة كاملة بلا صوت :

« هذا ما سيحدث لك ولأسرتك، وفى يدى وحدى نجاتكم ! »

ثم يفتح فمه رغما عنه ويمد أصابعه البيضاء بشىء ما يضعه داخل فم (راؤول).. حلوى !



كانت مرة للغاية لكنها.. جذابة !

حاول (راؤول) ألا يمضغ أو يفتح فمه ويبصقها لكنها تذوب داخل حلقه وتنتشر فى جوفه تاركة مرارة تغزو روحه وعقله معا !

يتشنج (راؤول)..

يحاول الحركة بأى شكل لكن..

الوضع تجمد تماما..

يتشنج أكثر..

يحاول الكلام..

الصراخ..

ثم..

يفتح عينيه فجأة ليجد ابنته الكبرى تربت عليه بلمسات حانية.. لقد كان ينتفض أثناء نومه ويئن..



قالوا له أنه كان مفتوح العينين وكان لونهما أبيضا تماما ! كل من حوله يرمقونه فى دهشة وخوف، وانتبه إلى زوجته وهى تناوله بعض الماء وتوشم الصليب عليه فى الهواء..

كابوس ؟

ربما..

***

مكتوب فى النجوم..

أنى أحبك..

***

انقضى اليوم وقد عادت المناوشات نوعا بين الفريقين.. ليست بنفس القوة ولكنها موجودة، على حين كان قلب (راؤول) يسبح فى بحر من الشك والألم غير المحتملين خاصة كلما نظر لأحد أفراد أسرته ويتذكر الحلم البشع.. فكر أن يحاول الخروج



والهرب بأسرته من أى مخرج ممكن وبأى وسيلة، لكنه كان يخشى الخروج من الوكر أصلا ! يخشى أن تصيبه قذيفة طائشة أو سهم مشتعل أو حتى ينقض عليه أحد قطاع الطرق، فالتوحش صار سمة تستتر بالكاد فى المدينة من بعد تيقن الجميع بالهلاك المؤكد، والموت صار ضيفا استطاب المكوث هنا !

لكن سمع الناس فى الخارج يتحدثون بفرح ! هناك من يضحك وهناك من يتحدث بحماس ! لا بد أن هناك شىء جيد حدث ؛ فبعث (بيتر) الذى سرعان ما عاد بأنباء مطمئنة إلى حد ما..

على مدار اليوم حاولت السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبى وتحطيم السلسلة لكن القوات الأوروبية المشتركة تصدت لهم بحزم وعنف مما أدى لتدمير جزء لا بأس به من الأسطول العثمانى.. ثم حدث أن وقعت معركة بحرية أخرى عندما جاءت مجموعة سفن أوروبية تحاول المرور لأخوانهم فى القسطنطينية ونجحوا فى ذلك.. تعاظمت قوى الجيش بقيادة (جستنيان) وتضاءلت قوة المهاجمين !



خسارة تلو خسارة للجيش العثمانى فى يوم واحد، وفرحة تلو فرحة لأهل القسطنطينية..

بل خرج الإمبراطور بنفسه فى شرفة من شرفات كنيسة (آيا صوفيا) يبشر الجميع بقرب النصر المؤكد وسحق الجيوش العثمانية !

أصاب قلب (راؤول) شىء من الأمل والاطمئنان مع الأخبار المفرحة.. لو استقر الوضع على ذلك فسيبحث غدا عن مخرج مهما كلفه من مال.. أخذ نفسا عميقا ثم قرر الخروج من الوكر قليلا قبل أن تغيب الشمس .

بالفعل خرج من منزله لأول مرة منذ عدة أيام مع أسرته الصغيرة.. كانوا بحاجة لشراء طعام وماء، وربما الصلاة فى الكنيسة أيضا..

فعلوا ما أرادوا وكانت الفرحة بعيون الفتاتين برؤية الشمس البرتقالية الغاربة لا توصف حتى أنهما أخذتا تدوران حول بعضيهما ترقصان أثناء السير وأمام عينى (راؤول) و(ماريا) الفرحتين.. حتى الجو رائع



وصافٍ للغاية بلا أثر للغبار والبارود وكأن السماء تشاركهم الفرحة بما حدث..

بل تنامى لعلمهم أيضا أن الأسطول البحرى صار قويا بما يكفى لصد أى عمليات بحرية يقوم بها (السلطان محمد)، كما قطعوا عليه طريق الإمدادات، وسيقومون بالإجهاز على أسطوله كاملا فى القريب العاجل !

ومع آخر شعاع من الشمس عاد (راؤول) إلى منزلهم ووقفت زوجته تعد لهم حلوى بمناسبة اقتراب الفرج.. كانت تغنى بصوتها العذب بينما يجلس (بيتر) جانبا مبتسما والفتاتان تلهوان بدميتين صنعتهما لهما (ماريا) قديما.. اقترب منها (راؤول) وقبلها فى جانب عنقها وهمس :

- أتحبيننى ؟

ضحكت (ماريا) بصوت عذب والتفتت تحوط عنقه فى دلال وهى تقول :



- طبعا لا.. ألم تنظر لنفسك فى المرآة قريبا ؟ كما يبدو أن أنفك لم يعد يعمل وبحاجة للطبيب لأن رائحتك بشعة.. كيف يمكن أن أحب غولا مثلك ؟

قرنت كلامها بقبلة ساخنة صفر لها (بيتر) بينما أدارت الفتاتان وجهيهما للناحية الأخرى وهما تخرجان لسانيهما فى اشمئزاز.. نزعت (ماريا) يديها من حول عنقه بينما عاد هو ليجرى وراء الفتاتين وينبح ويزمجر وسط الصرخات المرحة..

وفى المساء بعد انتهاء الحلوى آووا إلى النوم مبتسمين وكلهم أمل فى الله بعد صلاة عميقة من الشكر والرجاء بقرب انتهاء البلاء..

ولكن..

مرة أخرى يفتح عينيه فى قلب الظلام ليجد الغريب جالسا أمامه يبتسم فى استهزاء.. تسارعت أنفاس (راؤول) وهو يحدق فيه وينظر حوله.. أطفاله نائمون وزوجته مبتسمة والتفاصيل واضحة تماما.. ليس هذا



حلما بكل تأكيد ! وكالمرة السابقة أخذه من يده وأوقفه أمام المرآة القريبة وأشار لها بحركة أنيقة لتتموج ويشاهد فيها (راؤول) مشهدا عجيبا..

رأى الجنود العثمانيين يعملون ليلا فى سرعة وصمت.. كانوا يسوون الأرض ويمهدونها ويضعون عليها أخشابا مدهونة بالزيت والشحم، ثم يدفعون فوقها سفنا كثيرة صغيرة الحجم وخفيفة الوزن مدججة بالسلاح عبر مساحة شاسعة من الأرض إلى أن تم إنزالها فى نقطة آمنة فى..

قلب القرن الذهبى !

وكل ذلك تم بسرعة وفى ليلة واحدة !

العجيب أن (راؤول) شاهد كل ذلك بالتفصيل وكأنه فى بث مباشر حديث مختصر.. ثم ذاب المشهد تدريجيا لينقل مشهدا قريبا لوجه الزوجة مذبوحة تنازع خروج الروح وهى تتغرغر بدمائها وعيناها تشخصان للأعلى..



تذوب المشاهد على المرآة ويلتفت (راؤول) للشيطان الواقف ينظر له بعينين لامعتين والرسالة تتكرر داخل عقله..

أنا أريدك..

لو أردت نجاة أسرتك فاستسلم لى..

استسلم..

استسلم..

نهض صارخا من نومه هذه المرة وهو يلهث فى عنف، ثم التفت ليحتضن زوجته بقوة والدموع تتفجر من عينيه.. فتحت عينيها لتنظر له فى عجب وعيناها ممتلئتان نوما.. ربتت عليه فى حنو وسألته:

- كابوس ؟

أومأ برأسه وهو يحاول الابتسام، فابتسمت كالسكارى هى الأخرى وأزاحته لتتقلب على الناحية الأخرى بلا



اهتمام حقيقى.. نهض لينظر نحو النافذة القريبة ليرى الفجر موشكا على القدوم كما يتضح من السماء الأرجوانية..

ما معنى ما رآه ؟

هل يسير مسرعا لينذر القادة !

ولكنه مجرد حلم !

بل قد يكون كابوسا فحسب أو.. هو بالفعل كابوس .

كابوس ؟

لكنه يسمع صوت تكبيرات بعيدة !

نهض مذعورا ليتفقد الأمر وخرج للشارع مع من خرجوا ليفهم ما يحدث، وسرعان ما فهم من جاره المذعور..

لقد نقل العثمانيون السفن على البر وأنزلوها فى القرن الذهبى، وبذلك سيطروا على مخرج المدينة البحرى !



***

حالته النفسية الآن فى أسفل نقطة لها.. زوجته تبكى و(بيتر) يخدمهم بإخلاص والفتاتان تلهوان فى اكتئاب، بينما ترتفع أصوات الانفجارات التى تدك أسوار المدينة من بعيد..

ماذا يفعل ؟ !

الوضع لا يبشر بأى خير.. حتى جنود القسطنطينية الذين كانوا متمركزين عند الأسوار فحسب اضطروا للانتشار فى أرجاء المدينة، وتواصل عملهم ليل نهار من أجل ترميم الأسوار والدفاع عن المدينة..

زوجة (راؤول) مكفهرة الوجه حزينة تسيل دموعها رغما عنها على وجنتيها فى صمت مما يمزق قلبه تمزيقا..

عقله لا ينفك يتساءل :



- من الذى يأتى له فى نومه ولماذا ينقل له الأحداث ؟ والأهم من ذلك: ماذا يريد منه بالضبط ؟ وكيف يمكنه إنقاذ أسرته وما ثمن ذلك وكيف يفعلها ؟

هو يريده أن يستسلم !

حسنا سيستسلم مؤقتا لتخرج أسرته سالمة ثم يفهم لاحقا.. لنخرج من هذا الجحيم أولا ليكن مايكون بعدها ! وليس أمام (راؤول) منهك القوى من فرط التفكير والنوم المضطرب سوى انتظار النوم فحسب حتى يفهم ما الذى يجب عليه أن يفعله وكيف يعلن استسلامه !

انتظر النوم.. لكن النوم جافاه !

النوم لا يمكن الإمساك به قط حين تريده ! ظل ممددا مكانه مفتوح العينين يتقلب على كل جانب ممكن ويتخذ كل أوضاع النوم الممكنة إلى الصباح، وعلى الرغم من ذلك فلم يذق حتى غفوة بسيطة !



مع شروق الشمس كانت أعصابه ملتهبة للغاية وعيناه حمراوين تماما والصداع يحكم قبضته على رأسه..

كان الآن أقرب للجنون الذى يداعب عقله منذ فترة قريبة !

نهض من مكانه وخرج يجلس أمام المنزل وأخذ يصب لعناته على كل شىء..

على (السلطان محمد) و(قسطنطين) والجيوش والحرب.. بل صب لعناته أيضا على.. حسنا.. أنا لا أستطيع أن أقول لكن الكفر فى هذه الظروف نتيجة جانبية للجنون المؤقت !

بالفعل كان على شفا الجنون المطلق..

الضغط العصبى عليه كان رهيبا هو الذى لم يعتد إلا سماع الترانيم الهادئة وأجراس الكنيسة فحسب !

دلف لمنزله تتابعه نظرات أسرته الخائفة.. بعث (بيتر) ليأتيه بالأخبار كالعادة، وياليته لم يفعل؛ فقد انهارت



أعصابه أكثر عندما تنامى لعلمه بواسطة (بيتر) أن (السلطان محمد) جاء بالمزيد من المدافع خصيصا ليدك بها السفن القسطنطينية ومن يحالفها، وأن قواتهم البحرية التى باهى بها الامبراطور شعبه منذ يومين أصابها الشلل تماما وصارت بلا فائدة تذكر لأنها لا يمكنها عبور السلسلة الأسطورية بدورها !

بالفعل غرقت بعض السفن التابعة للقسطنطينية وهربت السفن الباقية من الموت المحقق القادم من فوهات مدافع ثقيلة لا تعرف الرحمة..

مدافع (السلطان محمد) .

تعلو صوت الانفجارات الجبارة بكثافة غير معهودة وبطريقة متواصلة لأن القذائف العثمانية تتوالى فى البر والبحر طوال الوقت بلا توقف طوال النهار ولايبدو أنها ستتوقف ليلا !

المدينة تنهار..



علم ذلك قبل أن يستسلم عقله ويفقد وعيه ويغط فى نوم قلق نتيجة الإرهاق وسهر ليلتين متتاليتين..

وللمرة الثالثة يأتيه الوسيم الغريب ويأخذ بيده للمرآة..

يقف أمامها يرى نفسه يفعل أشنع مالا يمكن تخيله على الإطلاق..

يمزق كتابه المقدس ويلقيه أرضا ويبول عليه ضاحكا ! وما أن ينتهى حتى يخرج من المنزل بقيادة الغريب الذى يقوده بسرعة وخلفه أسرته يتبعونه فى طرق غير واضحة لمنطقة الأمان بعيدا عن المدينة.. يسيرون بسرعة كأنهم يطيرون إلى أن يصلوا لمكان جميل يتركهم فيه وسط ضحكات زوجته وبناته وابتسامات (بيتر) الممتنة..

انتهى المشهد وذاب على المرآة والتفت الغريب له ليضع فى فمه حلواه المرة، الحلوى التى يقبلها (راؤول) طواعية هذه المرة..



ثم ..

يفتح عينيه ببطء.. يستيقظ بلا صراخ هذه المرة وهو يلوك الحلوى التى تذوب بسرعة فى فمه !

خطر له أن يمد يده ويستخرج قطعة رآها تذوب على إصبعه وتنساب على الأرض وسط نظراته المذهولة..

هذا ليس حلما إذن !

جسده كله يؤلمه بقوة ولكن..

وضع رأسه بين كفيه وأجهش فى بكاء عميق..

هو..

رجل الدين..

الشيطان يريد أن ينقذه مقابل..

كفره !

تدنيسه لأقدس مقدساته !



كيف يمكنه أن يفعل ذلك !

هذا شيء مستحيل !

وعقله يهمس له:

- لماذا مستحيل ؟ ألم تصلى للرب أياما وأياما ؟ هل استجاب لك ؟ ألم تخدمه بإخلاص سنينا طويلة ؟ وها هو يتركك لتموت بلا اهتمام.. استمع لكلام الشيطان واتبعه حتى تخرج من هذا الجحيم ثم عد لإلهك مرة أخرى.. هو طيب غفور سيقبلك حتما وسيتفهم أنك تنقذ أسرتك فحسب..

نفض من رأسه تلك الأفكار الشيطانية.. لا أحد يذنب بكامل إرادته ثم يطلب الغفران بهذه البساطة !

الاختيار صعب..

هل يضحى بنفسه من أجل أسرته ؟



لو فعل ذلك فالجحيم مصيره بلا شك ولكن ستكون أسرته فى أمان..

الاختيار صعب..

***

الرعب يعم أرجاء المدينة اليوم إثر حيلة جديدة من حيل (السلطان محمد)؛ إذ أن العثمانيين قرروا حفر أنفاق للوصول للمدينة من الأسفل، فكان أهل المدينة يسمعون صوت الدقات تأتيهم من أسفل منهم !

وقتها أمر الامبراطور بحفر أنفاق فى مواجهتهم حتى إذا ما وصل العثمانيون إليها صبوا فى هذه الأنفاق القطران والنار وأحرقوا كل من فى الأنفاق !

وهذا ما حدث..

فشلت هذه الحيلة العثمانية لكن الرعب لم يفارق أهل المدينة حتى أنهم صاروا يظنون وقع نعالهم على الأرض إنما هو العثمانيون قادمون من الأسفل !



وفى نفس الوقت أطل العثمانيون على أهل المدينة من خلف الأسوار بقلعة خشبية عملاقة، كانت مكسوة بالجلد الذى يصبون الماء عليه باستمرار حتى لا تحترق من أسهم جنود القسطنطينية المشتعلة ..

كانت كابوسا حقيقيا لأن الجنود العثمانيون ظلوا يصطادون أهل المدينة بالأسهم طوال الوقت ولم يستطع الجنود المدافعون الاقتراب من القلعة.. لكن لا مفر من هجوم كاسح قوى يدمر هذه القلعة لأن فيها هلاك يطل برأسه فى شهوة الموت !

هكذا قام المدافعون عن المدينة بتكثيف هجماتهم على القلعة العجيبة حتى أمسكت فيها النيران واحترقت ومات كل من فيها من المقاتلين..

ومع ذلك ظل شبح الهزيمة يظلل سماء المدينة مبتسما فى لزوجة..

(راؤول) صار مجنونا تقريبا..

لا يأكل ولا يشرب وعيناه زائغتان طوال الوقت..



يجلس جوار أسرته يحتضنهم حتى لا يكاد أحدهم يتحرك..

تارة يبكى وتارة يشرد..

ينهض ليصلى فيجد فى نفسه نفورا، ثم يثور ويوجه لومه لله تعالى..

لماذا تركتنى هنا ؟

لماذا تقتلنا ؟

أليس لنا الحق فى الحياة ؟

لماذا لا تحرق هؤلاء الأوغاد أو تمحيهم ببساطة ؟

تارة يصرخ ويهذى تلك الليلة وتارة يندس وسط أسرته المذعورة فاقدة الحول والقوة حتى صار منهكا تماما، ثم وضع رأسه على حجر امرأته ونام..

هذه المرة لم يأته الغريب، بل رأى رسالة مكتوبة من (السلطان محمد) يطلب فيها الاستسلام من

الامبراطور !

ورأى رد الامبراطور الذى قال فيه أنه إما أن يحفظ عرشه وإما أن يدفن تحت أسوارها..

يدفن تحت أسوارها..

تحت الأسوار..

وعادت مشاهد اقتحام الجنود للمدينة..

قتل (بيتر) وزوجته..

البنتان.. هذه المرة رآهما تحت الجنود الغلاظ يهتكون عرضيهما بعنف وقسوة وعيناهما مملوءتان ألما وفزعا..

وكالعادة.. جزء ممارآه كان صحيحا..

استيقظ مفزوعا على صوت المدافع تدك الأسوار بقوة رهيبة، وسمع الانفجارات تدوى وسط المدينة هذه المرة !



بعد فترة من القصف المستمر رأوا انفجارا ضخما كبيرا من بعيد، إذ أن المدفع السلطانى الكبير انفجر من فرط استخدامه !

لكن العثمانيون لم يتوقفوا على الرغم من مقتل من حول المدفع واستمر الدك..

المبانى تنهار فى المدينة والقتلى يتزايدون..

الرعب يجتاح القلوب والكل يصلى من أجل أن يلين الامبراطور ويستسلم، بينما أوقد العثمانيون نارا هائلة حول المدينة وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير وكأنهم يحتفلون بالنصر مقدما، حين نهض (راؤول) والجنون يلتمع فى عينيه..

أخذ يصرخ بكلمات غير مفهومة، ثم أحضر كتابه المقدس وأمام أعين من بالوكر مزقه..

دهسه..

بال عليه..

بصق عليه..

رفع عينيه للسقف وصرخ :

- انقذنى.. انقذنيييييييييييي !

ثم وقف لاهثا فى انتظار أى شىء، حين تناهى لسمعه ضحكات خافتة..

فقط !

لم يحدث شىء آخر !

اللعنة..

اللعنة اللعنة اللعنة..

لقد خدعه.. سخر منه وخدعه.. ماكان له أن يسير على خطى الشيطان ..

يجب أن يتوب بسرعة ..

يجب أن يعترف !



انهار (راؤول) باكيا يلطم وجهه.. كان يهذى بكلمات لم يتبينها، ثم رقد على الأرض غائبا عن الوعى..

عندما تحسسته امرأته وجدته محموما، وكان هذا تفسيرا جيدا لكل هذا الجنون الذى مر به.. المرض..

***

ارتفعت حرارته لدرجة كبيرة ولم يكن لدى زوجته شيئا تفعله سوى أن تصب على جسده الماء القليل الذى يملكونه، ومع ذلك كانت حالته تسوء شيئا فشيئا.. كانت تضع الماء عليه وتتركه يسيل لينزل منه دافئا أقرب للسخونة..

كان زوجها يموت..

بنظرات قلقة وقلب ملتاع أمرت (بيتر) الصغير أن يبحث عن أى طبيب متاح.. هى تعلم أن لا طبيب قريب وأن كل من يتعامل بالطب الآن فى ميادين القتال يداوى الجنود الجرحى، ومع ذلك فقد خرج (بيتر) يبحث عن مبتغاه.. الوقت يمر مع دوى المدافع



والهرج والمرج المنتشر فى المدينة إثر الانهيار الوشيك..

(راؤول) يهذى بالكلام..

يقول أنه فعل ما يجب عليه..

يخبر شخصا ما أنه حقير مخادع وسينتقم منه..

يخبره أنه سيقتله ويعود به للجحيم..

وعندما عاد (بيتر) ليلا خالى الوفاض كانت زوجة (راؤول) منهارة وهى تنظر لزوجها الذى بات من الواضح أنه يحتضر!

أما المدينة فقد كانت تشهد لحظاتها الأخيرة بالفعل.. الاستعداد قائم لصد الضربة العثمانية القادمة ..

كان (السلطان محمد) على مشارف المدينة يلقى خطبة عظيمة عن شرف فتح القسطنطينية كما وعد الرسول، بيما كان الامبراطور (قسطنطين) يصلى فى



حجرته أمام صورة السيد المسيح، ثم نهض يتابع التجهيزات النهائية بقلق..

وفجأة صدحت أصوات العثمانيين بالتكبير وهم يشنون هجمة هى الأقوى والأعنف على الإطلاق..

هجوم برى وبحرى كاسح.. فى المدينة اشتد الهرج واللغط بينما علت أجراس الكنائس كأقوى ما يكون.. وابل من القذائف انهال على الأسوار مع وابل من الأسهم تساقط على المدافعين بكثافة غير مسبوقة.. آلاف القتلى يتساقطون من الجانبين، وبعد برهة سحب (السلطان محمد) هؤلاء المهاجمين ليبدلهم بمهاجمين جدد بكامل طاقتهم ليبدأوا هجوما أشد ضراوة وتتصاعد حدة القتال أكثر فأكثر..

التجأ معظم الناس فى المدينة للكنائس يلوذون بها، فالكل يعلم أن (السلطان محمد) لن يدخل كنيسة أو يمس أهلها بسوء.. وكان على زوجة (راؤول) التحرك مع زوجها وبنتيها و(بيتر)..



مع دوى الحرب والنيران المشتعلة فى كل مكان تعاونت مع (بيتر) فى إسناد زوجها الذى كان فاقدا للوعى تقريبا..

خطوة وراء خطوة..

يسيرون الهوينى وسط تدافع العامة بينما الفتاتان تلتصقان بأمهما وترفعان نظريهما برعب للسماء الحمراء خشية سقوط قذيفة عليهم..

على السور البعيد استطاعت (ماريا) أن ترى مجموعة من الجنود العثمانيين قاموا باعتلاء السور ورفع العلم العثمانى عليه، مما دفع بالحماسة إلى عروق المهاجمين وتزايدت وطأة القصف المدفعى حين صرخت الفتاتان وهما تشيران للسماء بذعر و..

ارتفعت عيون الجميع ليروا كرة نارية عملاقة تهوى عليهم من السماء وهى تزأر و..

دوى الانفجار يهز المنطقة هزا..



المبانى المحيطة تشققت جدرانها وتهدمت فوق رءوس الموجودين، وعلى الأرض ..

بين النار والأشلاء ..

لمحت زوجة (راؤول) بنتيها وقد ..

لقيتا حتفهما على الفور !

تمزق قلبها أطلقت آهة ممتزجة بالدماء تنصب من حلقها للأرض لتمتزج بدماء الفتاتين..

وكان هناك رجل يرتدى ملابسا سوداء يقف جوار (راؤول) وكأنما يحمله بقوة ويستدير به بعيدا..

حاولت أن تتكلم لتخرج الدماء غزيرة من فمها.. لكن جسدها المتحطم أعلن تخليه عن الحياة هو الآخر لتلحق ببنتيها وربما (بيتر).. وآخر مشهد ودعت به حياتها تلاشى هذا الغريب حاملا زوجها قبل أن تفقد عيناها بريق الحياة للأبد !

***



أفاق (راؤول) فى كهف ما على مشارف الغابة وهو يشعر بتحسن طفيف فى حالة جسده العامة، والأجواء حوله هادئة تماما على غير العادة منذ فترة..

اعتدل فى رقدته بصعوبة يتأمل ما حوله والتعجب يغزو روحه.. أين هو ؟

لا يذكر سوى أنه كان فاقدا وعيه فى المنزل فحسب، ترى هل نقلته زوجته بشكل ما لهذا المكان ؟

أو الأفضل، هل وفى ذلك الغريب بوعده له وأنقذه بأسرته ؟

لم يكن فى حال تسمح له بالنهوض، فعاد يستلقى على ظهره ويتنفس بعمق.. كان ذلك حين شعر بمن يمد يده إليه بشىء من خلفه.. التفت بصعوبة ليرى رجلا قزما يناوله ثمرة ما ويبتسم مشجعا ثم يقول:

- تناول هذه يا سيدى، ستساعدك على التعافى !



لم يمد (راؤول) يده وإنما سأله بصوت مشروخ عما حدث..

تنهد ذلك القزم وهو يمد يده بالثمرة ويضعها داخل فم (راؤول) عنوة وهو يقول :

- حسنا.. لقد بذل الامبراطور أقصى ما فى وسعه لكنه انهار حين رأى أعلام العثمانيين مرفرفة على السور، فخلع ملابسه كى لا يعرفه أحد ونزل لميدان القتال وقاتل حتى مات.. وعرفه المقاتلون العثمانيون فأشاعوا خبر مقتله، مما أضعف عزيمة مقاتلى القسطنطينية كثيرا، وتوالى قصف الأسوار من عدة جهات حتى انهار الدفاع و..

أخذ نفسا عميقا قبل أن يستطرد :

- ودخل العثمانيون المدينة ! صحيح أن بعض المدافعين ظلوا يقاتلون داخل المدينة من باب اليأس، لكن فى منتصف النهار كان الوضع مستقرا.. سيطر (السلطان محمد) وجيشه تماما على المدينة، والعجيبة



أنه أمّن الناس على كل شىء.. أصدر أوامرا صارمة تنهى جنوده عن المزيد من القتل وتوجه لأكبر كنيسة تحوى أكبر تجمع للناس فى المدينة وهناك قام بتهدئة الناس وأنه لن يمس منهم أحدا على الإطلاق، لكنه أمر بتحويل الكنيسة لمسجد لاحقا.. أما الأعجب يا سيدى أنه أمر بإحضار جثمان الامبراطور (قسطنطين) ودفنه بما يليق مع مكانته !

ساد الصمت للحظات قبل أن يسأله (راؤول) فى حذر وقد عادت إليه بعض قوته :

- وأسرتى ؟

لم يجبه ذلك القزم وإنما نظر للأرض فى أسى.. اتسعت عينا (راؤول) وهو يصرخ :

- أسرتى.. أسرتى أين هى.. أين زوجتى ؟

انفجر الجواب فى رأسه مباشرة :



- قتلوا.. قتلهم (السلطان محمد) وجنوده ! لقد تأخرت كثيرا فى إعلان ولاءك لى، ومع ذلك فقد أتممت وعدى لك وأنقذتك..

سيطر عليه الذهول للحظات ثم رفع عقيرته بالصياح والصراخ ونهض من مكانه وانطلق يعدو صارخا فى الغابة القريبة وقد سيطر الجنون على رأسه تماما هذه المرة..

***

يسير ويبكى..

الغابة شاسعة مخيفة ووجوه أسرته من حوله لا تفارق مخيتله ..

مرت ليلتان.. والآن لم يكن يدرى أين هو فى الغابة..

لقد أمضى ليلتين وهذه الثالثة فى نحيب وبكاء وصراخ فى الغابة يتردد صداه بلا مجيب، لم يأكل شيئا تقريبا وإنما شرب عدة قطرات فحسب من الماء،



حتى أغمى عليه مرة أخرى ! كان مدركا أنه يفقد وعيه مع وهنه الشديد الذى ألمَّ به وتمنى ألا يستيقظ من إغماءته هذه المرة قط..

ومرة أخرى تعود له الأحلام الواقعية؛ إذ أنه رأى الغريب المتشح بالسواد يتقدم منه مرة أخرى وهو غاضب وعيناه تتقدان نارا.. ورغم أنه يتمنى الموت إلا أن جسده كله ارتجف.. ماذا يريد منه هذا الشيطان ؟

ودون أن يفتح الغريب فمه كالمعتاد وصلته الرسالة :

- ماتت زوجتك، وماتت بنتاك، ومات (بيتر).. قتلهم (السلطان محمد) وجنوده.. إن أردت أن تنتقم لهم ساعدتك.. وإن أردت أن تموت ككلب بلا قيمة فى الغابة تركتك هنا..

الاختيار مرة واحدة هنا.. والآن !

***



الفصل الثانى

وهل تظن أنك تعرف أى شىء ؟ هل تعتقد أنك تفهم كيف تدار الأمور من حولك؟ أو أن ما يصلك من أخبار ومعلومات هى أخبار ومعلومات حقيقية ؟

أنت ساذج.. التاريخ يكتبه المنتصرون ، ومن يكتب التاريخ كاذب لأنه يروى ما يريده أن يحدث..

دعنا من هذا الهراء ولنرى ماذا سيحدث ل(سعيد) بعدما ترك الريس (متولى) الذى يتعامل مع (شوكت) و(محمود) أبو (هناء).. بل وهناك (شاكوش) أيضا يهدد (عبدالمحسن) على الرغم من وجهه الطفولى !

مصر – سبعينيات القرن الماضى:

ركب (سعيد) تاكسيا لمنزله فى شبرا بعدما أنهى عمله الليلة فى الجيزة.. الفرح والاغتباط يغزوان قلبه بعنف.. منذ فترة طويلة لم يشعر بمثل هذه السعادة القوية والراحة المطلقة؛ حتى أنه – وعلى غير عادته



– اشترى كما كبيرا من المشويات والتهمها كلها داخل المطعم دون خبز أو حتى سلطة إلا القليل ليشعر بجودة الطعم فحسب ويتلذذ به على لسانه !

كان يكافىء نفسه على تعبه وذكائه.. وعلى غنيمته الثمينة التى ربما تكون أغلى غنيمة حصل عليها فى حياته على الإطلاق.. ورغما عنه أخذت أحداث اليوم الرائع تتكرر فى عقله :

(سعيد) حفار.. من الحفارين المشهود لهم بالأمانة والقوة والسرعة خلال العالم شبه الخفى لأساطين التنقيب عن الآثار ، وكل حينٍ يستدعونه مع زملاء مثله لحفر مكان جديد بعيدا عن أعين الشرطة والوشاة الحقراء؛ ليستخرجوا كنوز الفراعنة ويحصل على مبلغ كريم للغاية فى مقابل ذلك.. عادة لا يستغرق العمل أكثر من أسبوع وفى كل الحالات يخرج فائزا من هذه العملية؛ إذ أن ما يجدونه دائما له قيمة ويشتريه الخواجات بانبهار ويدفعون مقابله الكثير جدا من الأموال وهو مالم يفهمه قط !



يبدأ التنقيب عندما يأذن الكبار بإعادة البحث والتنقيب.. عادة ما ينقبون عن شىء من الآثار حتى يستخرجونه ثم ينالون بضعة أيام من الراحة قبل أن يستأنفوا التنقيب.. وهم لا يخيبون أبدا فى مسعاهم ولذلك سر.. إن الريس (متولى) يستعين بامرأة غامضة لا أحد يعرف عنها أى شىء.. كانت دوما ترتدى ملابسا سوداءا فضفاضة ورائحتها مزيج من الحلبة والروث والتوابل والعطور الزيتية الخانقة ! تملك عينين ثاقبتين حولهما إطار كثيف من الكحل وكلامها قليل للغاية.. ربما لم يرها (سعيد) تتحدث من قبل قط ! وكل ما يعرفه عنها اسمها الغريب..

(المسعودة) !

وربما عاد ذلك الاسم العجيب إلى كون هذه المرأة دائما ماتجد المقابر بنجاح تام وبلا أدنى نسبة خطأ كل مرة ! بل والأعجب والأدهى أن المقابر التى تجدها دائما تحوى شيئا من الذهب.. بقية المنقبين يجدون تماثيلا أو غيرها ، لكنها دائما وبلا أى شك تجد الذهب



فى المقابر ! ولهذه سعره الخرافى كما تعلم ، وحتى قبل أن يبدأوا التنقيب..

ما يحدث هو أن الريس (متولى) يستدعيها لتتفقد الأمر فى مكان ما ، فتسير الهوينى فى المكان هنا وهناك ببطء.. ربما استغرقت ساعات أو أيام ، ثم تنحنى لتلمس الأرض فى مكان ما وتنهض.. هنا يعطيها الريس (متولى) مالها وترحل ! هذا كل شىء !

ربما لمست جدار منزل قديم أو خرابة مهجورة أو حتى قطعة أرض فضاء ، وعلى الفور يشترى الريس (متولى) المكان بأى مبلغ مهما كان ، ويبدأ الحفر !

لم تخب هذه ال(مسعودة) قط ! كل مرة تجد كنوزا فى المكان الذى أشارت إليه.. وبعيدا عن الذهب الفرعونى القديم ، فكل شىء له علاقة بالفراعنة يدر أموالا بطريقة هيستيرية.. (سعيد) لم يفهم قط سبب دفع المبالغ الغير معقولة فى طبق مكسور أو تمثال قبيح ، لكنه يحصل على مال وفير وكفى.. السيناريو متكرر محفوظ عدا هذه المرة !



منذ ثلاث ليال جاءت تلك المرأة وتركوها تبحث فى هدوء حتى أشارت على بقعة بعينها.. لكن ملامحها تغيرت والذعر استولى على وجهها.. أخذت شفتها السفلى ترتجف ارتجافا ملحوظا وهى تهز رأسها نفيا.. كانت عيناها متسعتان خائفتان شاردتان فى شىء ما ، ثم – ربما لأول مرة - تكلمت.. على غير المتوقع كان صوتها جميلا رقيقا خافتا وهى تأخذ نفسا عميقا وتقول :

- ريس (متولى).. انس أمر هذه المقبرة.. انس أمر هذه المقبرة تماما ولاتنقب هنا.. هنا يوجد..

قاطعها فى غلظة :

- ذهب.. يوجد ذهب.. أعرف أنه يوجد ذهب هنا.. شكرا لك ومالك محفوظ ستجدينه فى حقيبة داخل سيارتك كالمعتاد.. نورتينا !

رمقته بنظرة مندهشة غاضبة ، ثم أومأت برأسها فى حركة توحى ب(هذا شأنكم) ، ثم توجهت لسيارتها



البعيدة فى صمت..

الريس (متولى) لم يكترث كثيرا لرد فعلها العجيب.. ستقول أن هنا شر أو لعنة أو أى شىء ، لكنه لم يصدق ابدا فى هذا الكلام.. لقد فتح مقابر عمال وكهنة وسحرة وأبناء ملوك على مدار حياته وفى كل مكان ممكن فلم يحدث شىء على الإطلاق على الرغم من كل اللعنات والتحذيرات على الأبواب !

أصلا ماذا يمكن أن يحدث على كل حال ؟ هو رجل لا يترك فرضا ولا تستطيع الشياطين الاقتراب منه !

نقدها مالها وتركها تذهب ثم بدأ العمال الحفر مباشرة؛ إذ أن الأرض هنا صحراوية تقريبا مع أنها قريبة من منطقة الأهرامات ويمكن للكل مشاهدتهم من بعيد ، ولكن من يجروء على التدخل ؟

وفى نفس اليوم وصلوا للباب القريب !

كان هذا أمرا عجيبا للغاية ، إذ أن المقابر عادة تكون أسفل الأرض وتحت أعماق كبيرة !



ثم حدث الشىء الأسوأ فى كل مرة والذى يهرب منه (سعيد) ولا يشاهده مهما حدث.. هذه المقابر يعتقد المصريون أن عليها حراسا من الجن – وهو الشىء الوحيد الذى يصدقه الريس (متولى) - ولكى يستطيعوا الولوج للمقبرة يجب عليهم التضحية..

يبدأون بكلب.. وإن استعصى عليهم الدخول يذبحون طفلا مخطوفا !

أمام الباب يُرقدون الطفل ويذبحونه لكى يروى بدمائه الأرض وينفتح الباب.. وذات مرة لم يستطيعوا الدخول فأخبرهم من يقوم بمثل هذه الأفعال القذرة أنهم بحاجة لثلاثة أطفال دفعة واحدة !

لم يصدق (سعيد) أبدا أن المقابر بحاجة لدم الأطفال كى تنفتح كان يقول لنفسه أن إصبع ديناميت كافٍ جدا لفتح المقبرة وقتل حارسه من الجن إن وجد ، وكان يعتقد بينه وبين نفسه أنها مجرد تجارة متبادلة.. فقد كثر البحث عن الآثار ومعها كثر خطف

الأطفال.. هكذا يبيعون الأطفال لمن يجدون المقابر الفرعونية بمبالغ خيالية ويصير الكل أغنياءا !

أما هذه المرة فقد جاء اللعين وأخذ يفعل حركاته العجيبة ويدمدم.. فجأة وقف على أطراف أصابعه كمن يرقصون الباليه ورفع عينين بيضاوين تماما للسماء وأخذ يقرقر كما القطط وثبت على هذا الوضع المستحيل !

أصاب الذعر الموجودين ، لكنه سرعان ما تهالك على الأرض لاهثا غارقا فى العرق ، ثم أشار للريس (متولى) بيده أن يأتى ! همس فى أذنه بشىء ما جعل الريس (متولى) ينتفض وتتسع عيناه للحظة ، ثم لملم أطراف عباءته وهو يصيح :

- (عبدالغفار).. أخبر (فتحى) أن يأتى لنا بسبعة أطفال هذه المرة لا يتجاوز أحدهم أعوامه الثلاثة.. أكد عليه هذه النقطة يا (عبده) جيدا لأنه نصاب.. هيا أسرع !

ارتجف (سعيد) وهو يدرك أن اللعين أشار عليهم بوجوب ذبح سبعة أطفال دفعة واحدة هذه المرة ! سرت همهمة الاعتراض بين العمال القليلين لكن الريس (متولى) أخرسهم بإشارة إصبعه.. لقد أرسل فى إحضار الأطفال وكأنما يشترى سبع دجاجات !

وعلى باب المقبرة تمت التضحية وتناثرت الدماء على الباب وارتوت الأرض تحت بدم الرضع ! كانت أحشاء سعيد تتقلص ألما قبل أن يلقوا الجثث بعيدا بلا مبالاة.. والعجيب أن الباب انفتح بعدها فورا ومن تلقاء نفسه وكأنما يرحب بدخولهم كأنما ارتوى !

أحضروا أجهزة شفط الهواء البدائية لإخراج الهواء الفاسد ثم قال الريس (متولى) وهو يدخل :

- بسم الله.. الله أكبر ماشاء الله.. (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله).. ادخلوا بأقدامكم اليمنى يارجال وسموا الله !



دلف الموجودون للمقبرة وهو يرددون مثله.. كان يعتقد أنه مادام لم يقتل بيده فلا إثم عليه !

المهم ، أنه دلفوا للمقبرة وبالداخل كان الإبهار سيد الموقف بلا منازع..

مقبرة ذهبية !

مقبرة صغيرة للغاية ولكنها مملوءة ذهبا بشكل لم يره أحد منهم من قبل قط..

فى المنتصف تابوت صغير عليه قناع أحد الآلهة المصرية القديمة ، وحوله مئات التماثيل الصغيرة لنفس الإله ! هو لا يعرفه تحديدا لكنه سمعهم يقولون (أنوبيس) !

تفقدوا المقبرة بعناية بالغة ، ولاحظ سعيد أن كل من حوله يدسون قطعة خفية بين ملابسهم.. هم دائما يفعلون ذلك رغم ثقة الريس (متولى) فيهم لكن يفوز كل منهم غالبا بقطعة يبيعها بثمن معقول فيما بعد..
رأى يد (عبد المحسن) ترتجف وهو يمسك بتمثال

صغير ويتأمله بضع ثوان ، ثم وضعه فى مكانه وتشاغل بشىء آخر.. هل تركه لينتقى واحدا أكبر أم أنه خاف مما يمكن أن يحدث ؟ لا يدرى.. فقط انتقى سعيد تمثالا صغيرا ودسه خفية فى ملابسه هو الآخر قبل أن يحاولوا جميعا زحزحة غطاء التابوت ليروا ما تحته..

التابوت كان صغيرا وكأنما هو لطفل ، والغطاء كان ثقيلا لدرجة لم يتخيلها أحدهم إلى أن اكتشف الريس (متولى) وجود قفلين على جانبى التابوت يمنعان زحزحة الغطاء !

قفلان من الذهب.. عبارة عن كتلة ذهبية ذائبة تربط الغطاء بجسم التابوت بلا مفتاح.. أى أن من فعلوا ذلك صهروا القفل الذهبى ليظل التابوت مغلقا للأبد !

أصدر الريس (متولى) أوامره ليضعوا فى القفلين الأزميل باحترافية ويدقوا عليه إلى أن انكسر فيهما أضعف نقطة ، ثم تمكن العمال من زحزحة الغطاء



قليلا ليلقوانظرة داخله وترتفع حواجبهم فى دهشة بالغة..

كان يرقد داخله مومياء صغيرة للغاية.. ربما لطفل رضيع فحسب ، وبحجم أصغر بكثير من حجم التابوت الصغير أصلا !

على كل لم يستغرق اندهاشهم هذا سوى بضع لحظات فحسب ، ثم أكملوا جرد المقبرة مع بعض النهب الضرورى..

الآن الخطوة الأهم.. الريس (متولى) أرسل رجاله يتصلون بممولى البحث كى يأتيا ويريا كل شىء على الطبيعة.. لو لم يشاهدا المقبرة وقت فتحها فلهم سبل عقاب خرافية رآها عدة مرات من قبل.. عموما لا يجب أن تعبث مع رجال خطرين من رجال الدولة فهم لا يمزحون فى مثل هذه الأمور..

بعد نصف ساعة فحسب توقفت السيارة الفارهة أمام المقبرة ونزل منها ثلاثة رجال.. رجل وسيم رياضى



فى الخمسينات من عمره ، ورجل بدين كالبقرة.. فى الواقع هو يشبه البقرة فى كل شىء بالفعل بداية من بطنه المترهل ولغده المهتز ونظرته الخاوية الميتة وحتى لون بشرته الفاتح.. وشاب فى أواخر العشرينات يبدو عليه الحماس والخوف معا.. دلف ثلاثتهم للمقبرة وتفقدوها بينما أحصى الشاب بسرعة كل شىء موجود.. كانت مهمة سهلة لأن المقبرة لم تكن تحوى غير مائة وخمس وأربعين تمثالا بالإضافة للتابوت فقط – هو لا يعرف أن هناك خمسة تماثيل مسروقة - ، وسرعان ماعاد ليقف مع الرجلين الكبيرين وهو يلهث انبهارا..

أخبر الوسيم الريس (متولى) أنه سينقل كل شىء غدا بعد المغرب وسيعطيه نسبته وعليها (حلاوة) سخية.. وأن المستشار (شوكت) بيه سيضع حراسة مؤقتة من رجاله إلى الغد ، ومالبثوا أن رحلوا تاركين المقبرة وكل شىء للغد.. الثقة موجودة بنسبة ضئيلة فى عالم اللصوص أيضا على ما يبدو !

وسرعان ما رحل العمال وانتظر الريس (متولى) قليلا ليتأكد من التأمين المناسب وعاد هو الآخر لمنزله..

من الليالى الرائعة عندما تكون فى مجموعة عمل وتنفذون شيئا مهما ثم يعود الجميع لمنازلهم تسيطر عليهم مشاعر الفرح بغنائمهم والأموال التى حصلوا عليها.. ياليتك تجرب هذا الشعور أو ياليتك تعيد تجربته لو كنت ذقته من قبل !

ومما يذكر أنهم كانوا خمسة حفارين التقط كل منهم تمثالا ، وهناك من التقط تمثالين بينما خاف (عبدالمحسن) وترك التمثال خشية أن يفتشوه !

أحمق ! التماثيل صغيرة للغاية ولكنها قيمة جدا.. هناك تماثيل صغيرة لدرجة أنها يمكن وضعها فى الجورب !

لكن..

على الرغم من سعادته لا يشعر (سعيد) بالارتياح حتى بعدما أنهى وجبته الدسمة !

يشعر كأنما هناك من يسير خلفه بهدوء..

ذلك الشعور أن هناك من يحدق فى ظهرك مباشرة ..

القشعريرة الغامضة التى تجتاحك منذرة بوجود شىء سىء !

أخذ يسرق بضع نظرات خفية للطريق من ورائه..

لا شىء ولا أحد والطريق خال كعقل النساء إلا ..

ظل بعيد يقف فى قلب الظلام !

ظل لا يمكن تحديد ما إذا كان موجودا أم هى مجرد تهيؤات فحسب !

استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وعاد يكمل سيره وقد تغيرت نفسيته شيئا ما.. ضرب التوتر رمحا فى قلبه فصار التنفس عسيرا..

صار تنفسه ثقيلا ، وصارت الحصيات تحت حذائه تصدر صوتا مزعجا فى ذلك الطريق الترابى الصامت..



بين الحين والآخر يلتفت بكامل جسده ليرى ذلك الظل واقفا وعلى نفس المسافة !

غرس الذعر رمحا هو الآخر جوار رمح التوتر وتصاعدت الشكوك داخله.. الاحتمالات كثيرة !

هل هو مخبر ؟

هل هو شيطان ؟

هل هو لص ؟

فى الأحوال العادية هو لا يخشى أحدهم ، بل ربما توقف وانتظره أو اتجه إليه فى حسم ليتعامل معه فى خشونة.. إنه قوى الجسد ويقاتل فى المشاجرات كما البلطجية وقبضته ترسل من تصيبه إلى طبق الأرز مع الملائكة بطعم الدماء على الفور.. لكن والتمثال معه الآن لا يريد المخاطرة.. ولو أن صاحب الظل – الغير مؤكد الوجود – يتبع الشرطة بشكل ما فسيسهل القبض عليه ، لذلك قرر أن يجرى بأقصى سرعته مبتعدا عن هنا.. هكذا سار بضع خطوات بتأنٍ إلى أن



انحرف يسارا وفجأة انطلق يعدو متخذا مسارا متعرجا بين الشوارع والحارات.. كان منزله قريبا على كل حال ، فوقف على بداية شارعه الغارق فى الصمت والظلام إلا من أزيز ضوء عامود إنارة قريب.. مسح المنطقة بعينيه ثم تنهد فى راحة ؛ فلم يكن هناك ظل أخيرا..

لم ينتظر حتى يعود إليه المتتبع، إنما أسرع ودلف للعمارة شبه المتهدمة ومنها لشقته الصغيرة الحقيرة فى الطابق الثانى.. والطوابق هنا على النظام القديم شديد الارتفاع.. دلف للشقة لاهثا يزفر بحرارة كى يتخلص من التوتر وهو يعد نفسه بكوب شاى مغلى بالنعناع وسيجارة (ملغمة) كمفكافأة أخيرة قبل النوم..

هو يعيش وحده منذ فترة طويلة ولا يرغب فى الزواج أو تكوين أسرة فى الوقت الحالى وربما للأبد.. كانت لديه زوجة من قبل لا تفعل شيئا سوى التهام النقود من خلال طلبات لا حصر لها.. ربما كانت طلباتها طبيعية لكنه يتعب بهذه النقود ولا يريد إنفاقها سريعا



لأن لديه أحلام يتمنى تحقيقها.. حتى سجائره الملغمة يحصل عليها مجانا من الريس (متولى)!

كان يحلم بمنزل كبير فى قريته وأرض يزرعها وحياة ريفية مستقرة لذلك طلقها وعاد يكتنز المال ، وعندما يحصل على البيت والأرض وقتها فقط ربما فكر فى الزواج مرة أخرى !

بالفعل صنع كوب الشاى ووضع السيجارة الملفوفة بين شفتيه الجافتين ثم دلف للشرفة كى يستمتع بالهواء البارد ويعد نفسه بدقائق ممتعة تسبق النوم حين لمحه مرة أخرى !

ظل أسود طويل يقف فى مكان مظلم تحت شرفة المنزل المقابل له مباشرة ويحدق فيه.. كيف عرف أنه يحدق فيه ؟ ربما من زاوية رأسه الثابتة لأعلى ؟

ارتجف سعيد.. من داخله ثقة عمياء أن ما يحدث ليس طبيعيا على الإطلاق ولكنه لا يدرى ماذا يفعل !



استمر يحدق فى الظل والظل ثابت دون أى حركة.. الواقع أنه كان متجانسا مع الظلام المحيط حتى أنه تساءل بعد قليل ما إذا كان هذا مجرد سراب فحسب ؟ نظر للسيجارة فى شك وأطفأها بإصبعين مجردين.. وضع الكوب على سور الشرفة ثم دلف للصالة حيث يقبع ذلك المذياع الضخم وفتحه ثم عبث بالمؤشر قليلا إلى أن وصل لإذاعة القرآن الكريم يلتمس منها طمأنينة نفسية ، حين ارتجف الضوء الكهربائى فجأة محدثا إزيزا سخيفا من الصباح المتدلى من منتصف السقف ، وشوشرة إستاتيكية مزعجة من المذياع !

تجمد فى مكانه وبدا أن كل شىء تجمد حتى أن أنفاسه توقفت حين اهتزت الكهرباء مرة ثانية..

وثالثة..

ورابعة..

ومن الحائط أمامه برز ظل غير واضح المعالم لكنه ليس ظلا بشريا على الإطلاق..



خرج من الحائط فى نعومة ليواجه سعيد غير المستوعب لهذا الحجم الهائل.. رأسه تلامس السقف العالى و..

تجمد الموقف للحظات قبل أن تدوى صرخات سعيد المذعورة فى الحى تنبىء عن ألم رهيب يسبق الموت !

***

فى اليوم التالى كان الريس (متولى) يضرب كفا على كف وهو يردد : (لاحول ولا قوة إلا اللّٰه) ، وعيناه تشيان بحيرة وقلق وخوف وذعر معا !

ليلة أمس مات رجاله أغلبهم.. أربعة حفارين من أقوى حفارى مصر لقوا حتفهم ، والأربعة بنفس الطريقة.. يختلى أحدهم بنفسه فى حجرة نومه أو فى الحمام أو فى شقته الخالية ، ثم تتذبذب أضواء المكان ويسمع من حوله صراخا عنيفا لا مثيل له.. وما يلبثون أن يجدوه جثة هامدة ممزقة أو معصورة وربما فقدت شيئا من أعضائها أيضا.. عينا أو لسانا أو ذراعا أو شيئا



من أعضائه الحيوية ! على الفور يتذكر نصيحة ال(مسعودة) وعلى الفور أيضا يستنكرها ! هذا ليس معقولا أبدا ومن المؤكد أنه فعل بشرى ، ولكن لماذا ؟ ومن الذى فعل ذلك؟

كان فريقه يتكون من خمس رجال.. أربعة لقوا حتفهم والوحيد الذى عاش هو (عبدالمحسن) ، وهو جالس أمامه الآن يرتجف فرقا وذعرا من فرط القسوة التى أحضروه بها للريس (متولى) أمام زوجته وأبنائه.. كان الريس متولى يثق به ولكن ليس لديه إلا هو ليسأله.. على قدر ما كانت الحيرة تتلذذ بالتهام قلبيهما معا إلا أن.. حسنا.. لنكن واقعيين.. إنه الناجى الوحيد وليس أمام الريس (متولى) إلا أن يسأله بلهجة مخيفة :

- كيف مات زملاؤك يا (عبد المحسن) ؟

اتسعت عينا الرجل ، فهو – حتى هذه اللحظة – لا يعرف أن هناك من مات.. لذلك صرخ بصوت مذهول :



- من مات ياريس ؟ أنا لا أعرف شيئا عن أحد.. الله أعلم يا ريس (متولى) لكنى لا أعرف شيئا والله العظيم..

طبعا لم ترض هذه الإجابة الريس (متولى) على الرغم من أنه يبدو صادقا.. تلاحق أنفاسه وجحوظ عينيه يشيان بصدقه ، وعلى الرغم من ذلك صاح فى وجه (عبدالمحسن) بانفعال واللعاب يتناثر من بين شدقيه قائلا :

- اسمعنى يا ابن الكلاب أنت.. أنت الوحيد على قيد الحياة أمامى الآن من الرجال كلهم ، وهذا معناه أن لك يدا أو أنك تعرف شيئا أو أن لك صلة بالموضوع بأى طريقة.. أخبرنى أى شىء يدلنى وسأجعلك تذهب وإلا فأقسم بالله العظيم أن استدعِ لك (شاكوش) الآن وأرحل..

ارتجف (عبدالمحسن) فى ذعر وتدفقت دموعه من عينيه خوفا.. كان يعرف (شاكوش) جيدا ، فقد أجبرهم الريس (متولى) على رؤية ما يفعله بالوشاة



عندما وشى أحد العمال بهم للشرطة.. المسكين لم يكن يعرف أن الريس (متولى) له علاقات قوية بالشرطة وأنهم يأكلون مما يأكل ويشربون مما يشرب ! بئر استخراج الآثار يسقى الكثيرين ويكمم أفواها لم يكن لها أن تكمم !

هكذا ترى الواشى مقيدا على الأرض وجواره يقف (شاكوش) يحمل مطرقته العزيزة التى اكتسب منها اسمه وفى يده الأخرى عدة مسامير طويلة فضية اللون تلمع بشكل مخيف لأنهم يدركون بالتقريب نوع استخدامها القادم ! العجيب أن (شاكوش) هذا له وجه طفولى مريح خاصة مع انحسار الشعر الخفيف على شكل مثلث أعلى جبهته.. نحن معتادون على الأشرار وهم يشبهون كفار قريش فى السينما العربية ، وللحق.. هذا الوجه الطفولى مخيف أكثر.. مقبض أكثر.. مؤلم للنفس أكثر !

وبدأ (شاكوش) عمله..

فى منتصف ساعد الراقد على الأرض يصرخ ويتلوى ويستغيث يثبت مسمارا فى اللحم ثم يدقه بهدوء وترو إلى أن يصطدم المسمار الطويل بالأرض بلا اهتمام حقيقى للألم الشنيع الذى يسببه لضحيته.. - يقولون أنه يصنع هذه المسامير خصيصا لأنهم لم يروا هذا الطول من قبل - ينتقل إلى الساعد الآخر بهدوء وابتسامة لطيفة ليكرر الدق فى منتصف الساعد..

ثم منتصف كل ساق مخترقا عظامها..

وفى منتصف كلا الفخذين..

فى ركبتيه..

فى كتفيه..

فى كفيه المفتوحين..

وفى قدميه !



بدا أن لا مكان يثير الألم دون القتل إلا وفيه مسمار مغروس ، كما أن المسامير انتهت.. طبعا يزين المشهد موسيقى قوامها صرخات المسكين وبكائه وتوسلاته المتواصلة وعروقه النافرة.. كان يتلوى على الأرض أثناء الدقات المتواصلة من فرط الألم ، فيضع (شاكوش) حذاءه الغليظ فوق بطنه كى يستطيع التركيز وإكمال عمله ! لكن عندما انتهت المسامير بدا على وجهه الضيق.. هكذا لحظات المتعة تمر سريعا !

لكن هناك المزيد من المرح ..

أخرج (شاكوش) من حقيبة قريبة شعلة لحام متصلة بأنبوب صغير معلق بها وأخذ يسخن رأس كل مسمار مغروس حتى الاحمرار..

هل تتخيل الألم ؟

هل تتخيل وجهه ورقبته المتلوثين بقيئه ولعابه..

عيناه الزائغتان من الألم العنيف الذى لايريد أن يمر..



الوقت الذى يمر عليه وهو يشعر بلهيب المسامير فى قلب لحمه وعظمه..

ألم الكسر وألم الاحتراق يفقدانه وعيه فيصبون عليه الماء صبا ويفركون وجهه بالبصل حتى يئن مستفيقا ويكمل الوغد عمله !

هناك من فقد وعيه من العمال وهو يشاهد فحسب ، وهناك من أفرغ ما فى بطنه ، والكل مجبرون على الانتظار وإكمال المراسم إلى لحظة النهاية.. الألم يقبض قلوب الموجودين ويظهر على وجوههم بينما كانت ملامح (شاكوش) تنم عن استمتاع مطلق ،

حتى صارحتميا أن ينهى حياة الضحية قبل أن يموت من تلقاء نفسه بصدمة عصبية؛ لذلك -وبهدوء- وضع شعلة اللحام فى إحدى عينيه وأمسك رأسه التى تنتفض من الألم الشنيع.. ترتجف رأسه كأنما موصل بالكهرباء بينما تخترق الشعلة العين وتصل للمخ وتذيبه.. لحظات وهمد جسده تماما.. ربما كان فيه شىء من بقايا الروح لأن جسده ظل يتشنج بين



الحين والآخر لكنه دفنوه فى حفرة قريبة على كل حال وانتهى ألمه للأبد !

هنا يمكنك أن ترى انتفاضة (عبدالمحسن) وصراخه المستميت قائلا:

- والله العظيم أنا لا أعرف أى شىء يا ريس (متولى) غير.. غير أنى رأيت أحدهم يدس تمثالا فى ملابسه وهو.. ربما كان يسرقه ياريس (متولى).. أنا لا أعرف أى شىء صدقنى والله العظيم لا أعرف لا أعرف..

وانهار بعدها فى البكاء والتشنج المذعور وسالت عيناه وأنفه بغزارة.. كان الريس (متولى) يعلم أنه صادق ، وللحق كان يعلم أنهم يسرقون منه قطعا أحيانا وهو يتركهم يفعلون ذلك.. فمهما كان ما يأخذه هؤلاء فهو مجرد فتات ويضمن بها ولاءهم خفية.. إذن ما يقوله (عبدالمحسن) خطير..

معنى هذا الكلام أن هذه المقبرة ملعونة !



ربما كانت تلك الحمقاء على حق رغم كل شىء وهذا معناه خسارة فادحة ، فماذا سوف يفعل ؟

***

لم يكن أمامه فعل شىء إلا تحذير البشوات أصحاب العملية.. فى المساء كان الاثنان موجودين.. بالمناسبة الرياضى اسمه (محمود) بيه وشبيه البقرة اسمه (شوكت) بيه.. أحضر الأول معه زوج ابنته بينما أحضر الثانى ابنه.. تابع الجميع نقل الآثار بهدوء وسرية بينما اختلى الريس (متولى) ب(محمود) بيه وحكى له ما حدث..

كان (محمود) متفتحا متفهما على الرغم من كونه لص مقابر قديم وطالما بحث عنها بنفسه بمعاونة ال(مسعودة) ، وكان يثق ب(متولى) نتيجة تعاون طويل بينهما وهو يعلم ذلك ، بينما كان (شوكت) يملك طباع الخنازير وصوتها؛ لذلك فضل الريس (متولى) أن يحكى ل(محمود) بيه وليتصرف كما يشاء.. فى الواقع لم يكن هناك شىء معين يمكن فعله غير أن تم نقل



الآثار إلى المخزن الملحق بفيلا (شوكت) بيه تمهيدا لتهريبها خارج مصر ، ولكن (محمود) كان قد اتخذ قراره بعدم مس هذه الآثار مطلقا.. إما أن تباع وإما أن تظل فى المخزن فحسب !

تم النقل بهدوء ، ولكن..

فى تلك الليلة مات ابن (شوكت) وحيدا فى حجرته !

فى الثالثة فجرا وجدوا ابن (شوكت) ميتا فى حجرته بعدما سمعوا صراخه الشنيع.. عندما دخلوا عليه وجدوا ظهره ممزقا بعناية كأنما انتزع عضلات ظهره القوية جراح ماهر !

وأصيب (شوكت) بالجنون..

ظل يصرخ ويصيح ويتوعد ويهدد ويبكى ، ثم أغرق نفسه فى شرب الخمر حتى فقد وعيه..

تم دفن الابن ، وتردد (محمود) فى إخبار (شوكت) بما حصل عليه من معلومات من (متولى) عن تلك اللعنة



المصاحبة.. سيحمله (شوكت) وقتها نتيجة لم تكن فى الحسبان ويحمله إثم وفاة ابنه وهو رجل خطير ذو نفوذ ، لذلك فضل الصمت وهو يدرك أن هذه الآثار ملعونة..

هذا الذهب ملعون !

ولكنه لاحظ أن من يموتون هم من استفردوا بشىء من الذهب.. طالما الذهب كله فى مكان واحد فلاشىء يحدث ! كما أنهم أحصوا مائة وخمسين قطعة بزيادة خمس قطع عن الامس ، مما يعنى أن القطع الباقية عادت من تلقاء نفسها ؟

هل يخبر (شوكت) ؟

ثم قرر أن يصمت فى هذه النقطة أيضا.. (شوكت) قذر وربما أخذ الذهب كله لنفسه أو تمادى ليقتل ابنته الوحيدة (هناء) وأولادها فى حركة هوجائية مجنونة ؛ لذلك لابد أن تكون خطواته محسوبة بدقة !



كان يفكر فى ذلك حينما صعد لحجرته واستلقى على فراشه جوار زوجته الباسلة التى تزوجها منذ عدة أعوام حين خطر له خاطر مهم :

لماذا لا يسافر مع زوجته خارج مصر - تحت ستار رحلة سياحية مثلا لأنه ليس له أعمال فى الخارج - وهناك يتفق على بيع الشحنة كاملة ؟ إنه يعرف المشترى الأساسى فى إيطاليا ويعرف كيف يتصل به.. المشكلة أنه يجب أن يتفق معه وجها لوجه وهذا سبب السفر..

على كل حال هو ليس لديه فى مصر أعمال سوى محله الضخم لبيع السيارات ، وزوج ابنته يديره كخير ما يكون وهو يثق فيه كنفسه.. سيسافر وينهى هذه المسألة وبعد ذلك ينتهى تماما من هذه العمليات للأبد.. هو أصلا لديه مال يكفيه ويكفى أولاده وأحفاده إلى أن يموتوا ، فلينتهى كل هذا وليعيشوا بعدها حياتهم كما ينبغى أن تعاش الحياة..

حسنا.. سيفعل ذلك !





الفصل الثالث

الألم وسيلة دفاعية ضد الفناء، وكلما تزايد شعور الجسد بالخطر كلما تصاعد مقدار الألم وحدته.. لكن لا محالة من وصول الألم لمستويات بالغة القوة يعجز الجسد عن التعامل معها والتى – غالبا – يعقبها فقدان الوعى أو انتهاء حياته !

هذا كلام حقيقى، وإلا بم تفسر كل هذه الهلوسة ؟

جلست (هناء) تتابع أحداث المسلسل فى شرود..

هناك شىء ما خطأ ويجب أن تفهم..

منذ فترة قريبة وأحوال زوجها (وليد) متغيرة وهو ما لم تعتد عليه خلال سنين طويلة من الزواج..

القصة المعتادة من الإرهاق والسهر والعمل المستمر وربما المبيت خارج المنزل هذه الأيام، لكن لماذا يبدو خائفا مذعورا أكثر من اللازم، خاصة بعد سفر والديها



؟ ربما هو خائف لأنه يتحمل مسئولية المحل وحده كاملا ؟

لكن.. الهالات السود تحت عينيه ازدادت كثافة بشكل لايصدق، وصار ينتفض أثناء نومه إن نام ! وأحيانا يغمغم أثناء نومه بتوسلات وآهات لا تفهم منها شيئا..

حاولت استجوابه عدة مرات لكنه يتهرب..

ثارت عليه واتهمته بالنكد المستمر..

استعطفته أن يُفهمها مايدور..

هددته بتركه وحده والذهاب عند أهلها ؛ لكنه لم يتحدث وهذا ما أثار جنونها أكثر ! ما الموضوع الهام جدا الذى لا يمكن أن يبوح لها به ؟

أفاقت من شرودها على كوب شوكولاتة دافىء قدمه لها ابنها الأكبر (محمود) والذى سمته على اسم والدها العزيز..



لقد سافر والدها منذ فترة قريبة لعقد صفقة سيارات ضخمة - كما يقول – مع رحلة سياحية سريعة بصحبة زوجته ولم يعد إلى الآن.. كانت (هناء) تحبها وتضعها فى مقام والدتها الراحلة.. ليست فى نفس الدرجة بالطبع لكنها جيدة بما يكفى لتكون أما بديلة وهى تبادلها حبا بحب ! كان والدها يتصل بها يوميا ولكنه انقطع منذ ثلاث ليال.. القلق ينهشها عليه هو الآخر لكنها لا تملك شيئا.. فى ذلك الوقت لم يكن هناك وسائل اتصال غير الهاتف والبرقية أو الرسائل كما تعلم، لذلك صبت جام غضبها ومشاعرها السلبية على ذلك الأحمق الذى اتخذ جانبا هو الآخر وتركها وحيدة تنهشها الأفكار السوداء بكل شكل ممكن !

ابتسمت وهى ترمق ابنها يجلس جوارها ويحتضنها فى حنان.. إنه فى الصف السادس الابتدائى لكنه يعاملها بحنان غير طبيعى.. قبلت رأسه والتفتت لتجد أنه قد وضع مشروبا مماثلا لأخيه الصغير الذى لم يكمل أعوامه الثلاثة بعد فى كوبه الخاص أيضا.. كان الجو العام للحجرة مريحا خاصة مع الإضاءة الهادئة



لكن التوتر المنبعث من (هناء) لوث هواء الحجرة بآلام نفسية غير مفهومة..

عادت لشرودها مرة أخرى وهى تنظر للتلفاز..

الليلة عيد ميلاد زوجها، وهما معتادان دوما على قضاء سهرة سعيدة فى مثل هذه الليالى.. أربع مرات فى السنة - فى كل عيد ميلاد لفرد من افراد الأسرة - يكون السرور والفرح هما المسيطران على الشقة الفاخرة.. منذ زواجهما وهو لم يفوت واحدا قط، لكنه تأخر جدا الليلة ولم يتصل حتى !

هى اتصلت به عدة مرات على هاتف مكتبه ولكنه لا يجيب على الهاتف.. ولا أحد فى مكتب البيع يعرف أين هو من الأساس ! كيف يترك تجارة والدها التى ائتمنه عليها هكذا ويرحل ؟

تنهدت فى ضيق شديد والتوتر يعصف بها والقلق ينهش قلبها نهشا.. ترى ماذا حل به ؟

لم يكن زوجها مجرد زوج عادى.. إن لهما قصة حب عجيبة وقديمة لا يكاد يصدقها أحد ! هو كان أكبر منها بعام واحد وعلى الرغم من ذلك فقد كانا معا فى نفس الفصل ونفس المرحلة التعليمية منذ دخولهما المدرسة.. وفى عامهما الثالث الابتدائى تعاهدا على الزواج ! (أقسم بالله أن هذا حدث حقيقة) !

كانا مثار سخرية المعلمين لأنهما - بحكم الطفولة - لم يخبئا ما يشعران به، ولكن مع توالى السنين واستمرار القصة حدثت مشاكل كثيرة.. الأسرتان شددتا عليهما وعنفوهما وصارا يلاقيان العنت والتعب من أجل لقاء واحد كل فترة طويلة، ومن نافلة القول أن الفتاة تم نقلها لمدرسة أخرى بعيدة عن الشبهات والقيل والقال..

وفى الإعدادية لاحظت الأم بطن ابنتها فى وجل.. بطنها تنتفخ رويدا رويدا ! ربما هو القولون ؟ لكن الأمر يستفحل خاصة مع انقطاع الدروة الشهرية الوليدة اصلا ! لابد من فحوصات، خاصة وأن الفتاة المذعورة لا تفهم شيئا هى الأخرى..

والفحوصات أثبتت أنها..

حامل !

حامل ؟

حامل ؟ ! ؟ ! ؟ !

خطأ بسيط !

كان فوران الشباب يعصف بهما ذات مرة عندما التقيا فى بيت الفتى وأهله ساهرين خارجا.. هى ألغت حصة درس وذهبت إليه، والحق أن براءة الطفولة كانت تسيطر على رأسيهما وإنما..

حسنا.. الشهوة الغريزية الوليدة انفجرت دون تحكم أو سيطرة، فكانت ليلة متفجرة بالحماس لكن دون التمادى للنهاية ! ربما كان الموضوع فى النهاية بضع قبلات وأحضان فحسب !

وأعجبهما الأمر..



الخوف ينسحب رويدا أمام فوران المتعة الفائق مرة بعد مرة.. هكذا يتأجج اللقاء ذاته بينهما ثم حدث مالم يكن فى الحسبان..

هنا..

الذعر والألم عندما رأت قطرات دماء الشرف تنساب منها، لكنها استكانت فى حضنه يطمئنها.. طفل يطمئن طفلة !

وكانت هذه الليلة نهاية المقابلات الجسدية، ولكن سرعان ما بدأت أعراض الحمل فى الظهور !

المشكلة أنها مازالت فى الخامسة عشر من العمر.. كيف سيواجهان المجتمع ؟ كيف حتى يمكن إجهاض ما فى بطنها دون مساءلة ناهيك عن الخطورة على صحتها ؟

أسرة الفتاة المتمثلة فى (محمود) وزوجته أصابها الجنون.. الكثير من الصخب والصياح والضرب والتهديدات والمشاجرات استقبلتها أسرة الفتى فى



صمت مشوب بالخزى على الرغم من أنهم كانوا بإمكانهم الرد ردودا قاسية.. ربما ردوا مرة أو اثنين لكنهم كانوا يراعون مشاعر أهل الفتاة بقوة ويعلمون أنهم فى مصيبة فحاولوا امتصاص الغضب قدر المستطاع..

وبعد تخبط، وفى شهرها السادس اتفقت الأسرتان على مضض وكراهية أن يتم زواج الطفلين بعد إتمام الفتاة للثامنة عشر !

اتفاق عجيب لا يتوافق قط مع القيم المصرية ولكنه حدث..

ثم حان موعد ولادة الطفل..

ولادة مأساوية فى المنزل، جو كئيب ملىء بالدموع والمخاط والتحسر والحزن، ثم طفل جميل رمقوه بكراهية مشوبة بالشفقة عليه وعلى الطفلة النفساء !

وبالطبع تم إخفاء الطفل عن العيون، وانقطعت الفتاة عن المدرسة بدعوى أنها مصابة بمرض يمنعها من



الخروج نهائيا وانقلبت دراستها إلى فئة (المنازل) !

وبمرور الوقت قرر والد الفتاة ضم الفتى إليه واحتضانه بشىء من الحنان والقسوة معا.. ربما كان قرارا حكيما لأنه مازال بإمكانه تشكيل شخصية الفتى ليكون أهلا للاعتماد عليه لاحقا.. وهذا ماحدث !

بالفعل مبادرة عجيبة هى الأخرى لا تكون من أب مصرى على الإطلاق، لكنه كان يشترى مصلحة ابنته ؛ إذ أنه صاحب معرض سيارات مشهور إلى جانب بضعة أشياء أخرى ربما لاحظتها لو كنت ذكيا.. أى أنه ثرى للغاية، ولم تكن هناك مشكلة فى شراء شقة فاخرة وتجهيزها أفضل تجهيز ممكن، ثم قام بإعداد عرس هائل بعد إتمامها الثامنة عشر مباشرة وانتقلت إلى بيتها الجديد مع ابنها ذى السنوات الثلاث وزوجها !

ودارت عجلة الحياة ورزقها الله بطفل جميل آخر بعد ذلك، وكان التقارب بينها وبين ابنها الأكبر كبيرا ؛ إذ أن الفارق بينهما لا يتعدى الستة عشر عاما !



الحق يقال أن زوجها كان يعشقها عشقا.. كل يوم يمر تزداد هى جمالا فى عينيه وهو يزداد وسامة فى عينيها.. بالفعل استغنى كلاهما بصاحبه عن الدنيا بما فيها ومن فيها..

طوال اثنتا عشرة سنة لم يتشاجرا قط مشاجرة جدية.. أسرة صغيرة جميلة لا تكاد تصدق أن فيها أب وأم وطفلان ؛ إذ أنهم لحداثة سنهم يبدون كأخوة فحسب.. الأب والأم لم يتجاوزا الثامنة والعشرين أصلا !

وها قد تقدم زوجها فى فنون التعامل مع الزبائن والدعاية والإعلان حتى ضاعف بمهارته تجارة حميه وأثار إعجابه ونال ثقته.. وطبعا لم يكن قد أكمل دراسته بعد الثانوية واكتفى بالعمل المربح..

الحياة بدت رائعة مذهلة.. كان يعود ليحكى لها كل شىء فى عمله ولم يخبىء عنها شيئا قط، فما الذى جد ؟

لماذا تغير الآن وصار يخبىء عنها أشياءا ويكتم أسرارا ويختلى بنفسه صامتا بالأيام ؟

قطع تفكيرها صوت تكة الباب تنفتح وقدم زوجها تدلف للمكان، وما لبث أن ظهر أمامها مبتلا بالعرق وعيناه زائغتان.. دلف لمنزله بالحذاء رغم أنه لم يفعلها من قبل قط ! وبصوت شاحب همس :

- أحضرى الأطفال وهيا بنا الآن.. لا وقت !

ارتفع حاجباها فى دهشة ولم تتحرك من مكانها قيد أنملة.. أهذا مزاح سخيف أم ماذا دهاه ؟

أردف بصوت كالبكاء :

- من فضلك أسرعى.. أنا أقف على قدمى بالكاد..

هنا لم تستطع الاحتمال أكثر، نهضت من مكانها فى عصبية وصاحت :



- إلى أين نذهب بالضبط ؟ هل أصبت بالجنون أم ماذا ؟ أنا لست فى حمل جنونك ومغامراتك الحمقاء.. إذا أردت أن تنزل وحدك فانزل أنا لن أتحرك من المنزل أنا أو أطفالى أبدا.. ولن أتحدث معك مرة أخرى حتى تخبرنى بما يحدث بالضبط !

اتسعت عيناه فى توتر واضح ناظرا للطفلين الجالسين فى صمت بانتظار النتيجة النهائية لهذا الحوار وهمس برجاء :

- من فضلك اخفضى صوتك.. أقسم لك أننا سنموت هذه الليلة لو لم تنزلى معى الآن.. ثقى فى.. انهضى وهاتى الأولاد وهيا..

كان العناد يقتلها ولكن لهجته أثارت قلقها بالفعل.. لم تره بمثل هذه الحالة من قبل، وسرعان ما كانوا جميعا فى السيارة ينهبون الطريق نحو وجهة مجهولة !

ما أن انطلق حتى صاحت فى غضب :



- ألا تنوى أن تخبرنى بم يحدث بالضبط ؟ أليس من حقى أن أفهم مم نهرب وإلى أين نذهب ؟ لقد خرجنا بملابس البيت يا(وليد) ودون حتى أن نجمع مالنا أو شيئا من ذهبى ! هل تتعاطى المخدرات أم أنك اصبت بالجنون أم ماذا ! أجبنى.. أجبنى أيها الوغد.

لكنه لم يكن فى حال تسمح له أن يتحدث.. وجهه أبيض تماما كأنما دهن وجهه باللبن، والعرق ينبت غزيرا على جبهته على الرغم من برودة الجو النسبية.. يضع عينيه فى الطريق أمامه بتركيز يبدو فى مراحله الأخيرة قبل فقدان الوعى.. ووسط ذلك كان يسحق دواسة البنزين بأقصى قوته تحت قدمه، وهمس أنهم حقنوه بالمخدر كى ينطق.. حقنوه أياما واستدرجوه لمستنقع الخيانة لكنه لم يخضه قط.. لم يخن أباها قط ولن يفعلها !

اتسعت عيناها من فرط الدهشة والخوف.. الأمر يبدو عجيبا وتصاعدت داخلها عدة مشاعر امتزجت لتصنع مزيجا مقيتا من السخط والألم والخوف.. تكاد تشتعل من اضطرام نار قلبها لكنها – وعكس طبيعة النساء –



التزمت الصمت حتى تفهم أكثر.. من الواضح أن المصيبة هذه المرة غير قابلة للمناقشة الآن وربما بعض التعقل يفيد حتى مرور هذه الأزمة وتفهم منه كل شىء وبالتفصيل!

تراجعت فى مقعدها هنيهة ترقب الطريق المتسارع، ثم انحنت للخلف نحو طفليها تحكم إغلاق أحزمة مقاعد السيارة عليهما بينما كان هو يقود السيارة بعينين زائغتين وهو يرتجف بشدة.. وجهه يشحب أكثر والعرق يسيل منه أغزر لكنه لم يخفف سرعته، ومع أنها كانت تخشى أن تكلمه فى هذه الحالة إلا أنها لم تستطع صبرا وقالت :

- هلا خففت السرعة قليلا على الأقل أو أبدلت معى الأماكن ؟ أنت تبدو فى حال غير طبيعية.. لا نريد أن نهرب من الأعداء الغامضين هؤلاء لتقتلنا أنت !

لكنه لم يرد.. ربما لم يكن منتبها لها من الأساس، فهو مازال مستمرا فى سرعته الكبيرة وسط ظلام الليل والطريق الخالى حين سمعوا صوت زئير محركات



تقترب.. زئير سيارتين تقتربان منهما وكأنهما فهدان ينقضان على غزال صغير شارد ! نظرت للخلف.. سيارتان (جيب) عملاقتان تقتربان بشكل مخيف وإضاءتهما العالية تغشى عينيها.. وزوجها يضغط على دواسة الوقود بأقصى ما يستطيع إلا أن المسافة بينهما أخذت تقل رويدا رويدا حتى صارتا على جانبى سيارته !

أحاطتا به من اليمين واليسار ثم اقتربتا من سيارته ليضغطاه بينهما باحتراف يبدو أنهم قاموا به مرارا وتكرار من قبل.. خفف سرعته يحاول الهرب ولكنه وجد ثالثة تضيق الخناق عليه من الخلف!

الأطفال يصرخون فى الخلف بينما انعقد حاجباه فى تصميم وهو يحاول الإفلات وهى منهارة تصرخ وتصرخ حتى تكاد أحبالها الصوتية تتمزق وسط انهيار الطفلين، والسيارتان الأخريان باحترافية بالغة ضغطا السيارة الصغيرة أكثر حتى لا تهرب، حين سمعت الاسرة المنكوبة صوت تحطم زجاج تناثرت شظاياه على المقعد الخلفى، فصرخت أكثر وهى تحاول



الوصول لابنيها، أعقبه سقوط شىء ما داخل السيارة مطلقا أبخرة كثيفة..

أخذت تسعل وتسعل وهى تشعر بالاختناق، بينما تهاوى زوجها جوارها على عجلة القيادة فاقدا وعيه على الفور.. حاولت أن تصرخ مرة أخرى أو تمد يديها نحو طفليها لكن يداها خذلتاها وسرعان مالحقت به فى غيبوبته وهى لا تدرى أتستيقظ مرة أخرى أم لا..

***

أصوات تدوى من بعيد لا تميزها وكأنما تسمع تحت الماء لغطا.. تمد يدها لتمسك زوجها الذى يغرق من فوق السحابة لكنه يذوب.. أبوها يقفز خلفه بينما تقدم لها أمها كعكة مليئة بالدود ! تسمع صراخا متألما وترى الكعكة تفتح فما صارخا والدود يتناثر ليأكل أمها وتسقط هى الأخرى من السحابة، لكنها جالسة على مقعد خشبى ! وهناك صراخ ما.. تحاول أن تحرك يديها فلا تستطيع.. تحاول أكثر ثم ..

تفتح عينين أحرقهما غاز القنبلة التى ألقوها عليهم لتجد نفسها وسط كابوس شنيع !

بداية سمعت صوت بكاء طفليها العنيف.. هناك شىء ما يحدث لا تدرى ماهو لكنه سىء للغاية.. فتحت عينيها لثوان لم تشر شيئا واضحا، فأغمضت عينيها لثوان ثم فتحتهما ببطء وجسدها يعلن ألمه من تقييده على مقعد خشبى.. يداها وقدماها مثبتتان للغاية بحبل إلى قوائم الكرسى، ومثلها زوجها وطفلاها.. يجلسون جميعا فى دائرة يعلوهم مصباح مضىء، وهناك رجل ضئيل الجسد فى المنتصف يحمل وجها طفوليا نوعا وتلوح عليه مظاهر القوة.. ومن خارج الدائرة تأتيها أصوات مختلطة تنبىء بوجود أشخاص آخرين.. ثوان ثم ينهال الواقف بضربة هائلة على وجه زوجها فتصرخ..

انتبه إليها الضئيل وأفسح مجالا ببطء لترى وجه زوجها وصرخت مرة أخرى من فرط لوعتها..



عين مفقوءة وأنف مكسورة وشفة متهدلة وأسنان محطمة ! لكنه مازال يتوسل بكلمات لا تكاد تكون مفهومة.. يرجوهم أن يبعدوا أطفاله وزوجته ويفعلوا به مايشاءون لكن ..

ترد عليه ضحكة ساخرة عابثة تشبه الخوار ..

يرد عليه صوت قبيح كأنما هو خنزير مصاب باللحمية أن يخبرهم فقط بمكان الشحنة أو مكان (محمود) وسيتركونه يذهب هو وأسرته.. زوجها يخور من فرط ألمه ويقسم أنه لا يدرى..

الضئيل يخرج من دائرة الضوء ويعود حاملا خطافا صغيرا ويتجه نحو أحد الطفلين.. الصوت الخنزيرى من الخارج يخبره أنه لابد أنه قد سمع عن (شاكوش) ويعرف ماهو قادر على فعله بأطفاله، فيعوى الزوج ألما متوسلا بينما تنتفض الزوجة وتصرخ وتصرخ لتكتشف الآن فقط أن فمها مكمم وصرخاتها ضعيفة مكتومة.. ترى (شاكوش) هذا يتجه لطفلها الأكبر



ويربت على شعره جاذبا إياه ببطء ناظرا لعينه و.. بحركة خاطفة يغرس الخطاف فى فخذه !

ينتفض الزوجان من انشقاق قلبيهما على ابنهما بينما يرفع الصغير رأسه عاليا ويصرخ متألما باكيا، بينما الصغير الآخر يرتجف ويرتجف ويرتجف.. بدا أنه على شفا نوبة عصبية حادة..

صوت الخنزير من خارج دائرة الضوء يقول :

- انته من هذا الألم ولا تكن عنيدا.. انقذ أسرتك وأخبرنا فقط أين الشحنة أو (محمود) واخرج من هنا على قدميك مع زوجتك وطفليك.. لا داعى أن يموت أحدكم من أجل (محمود) ..

لم يجبه الزوج.. فقط كان يعوى من الألم وعيناه معلقتان بابنه، فينتزع (شاكوش) الخطاف بحركة سريعة ويغرسها فى فخذه الآخر ليمتلىء المكان بصراخ الابن وأنينه مختلطا بهمهمة الأم الملتاعة وصراخ الصغير..



- أين هو ؟

يهمهم الزوج ويقسم أنه لا يعرف.. يسود الصمت بضع لحظات ثم يدلف للدائرة شخص ضخم الجثة للغاية ذو بطن مترهلة ونظرة عين ميتة.. شخص يشبه البقرة وله طباع الخنازير..

(شوكت) بيه..

ومن خلفه يجلس الريس (متولى) ساندا رأسه على كفه ومدليا يده الأخرى بسيجارة.. يبدو عليه الانهيار هو الآخر !

ينظر (شوكت) لزوجها نظرة لا معنى لها ثم يرفع يده بسيجار ضخم ليأخذ منه نفسا كثيفا وينفثه فى وجه زوجه ثم يبتسم..

يسود الصمت بضع لحظات قبل أن يوجه نظره لزوجته ويفكر قليلا قبل أن ينطق بهدوء :

- قيدوها على الأرض !



ومن الظلام انبعث ثلاثة رجال يحلون وثاق مقعدها وسط تململها وهمهماتها المتوسلة، ثم يمسكون بها بعنف قبل أن يقيدوها على الأرض إلى حلقات تبدو أنها معدة خصيصا لهذا الغرض، بحيث تكون كل أطرافها بعيدة عن جسدها كالنجمة.. ما أن انتهوا حتى قال البدين لزوجها وهو يخور:

- صدقنى أنا لا أحب ذلك ولا أريده.. ورحمة ابنى الذى مات بسببكم أنا لا أريد ذلك لكن.. أنت تزيد الامور صعوبة يافتى.. مجرد مكان أو معلومة لا تريد النطق بها وأنا متأكد أنك تعرفها.. ربما لا تتذكرها فقط لكن.. ربما ببعض الضغط تتذكر ؟

كان يتحدث وهو يفك حزام بنطلونه ويخلعه ليبدو من تحته كرشه العملاق، ورجاله يمزقون ثيابها على الأرض بمقص أو بخنجر صغير حسب ما يحمله كل منهم ليتركوها كما خلقها الله، ثم ينحنى (شوكت) نحو الزوجة ويركع على ركبتيه ويقول أن الوقت حان لبعض المتعة بينما يتذكر هو ما يريد منه أن يتذكره،



ويأمر رجاله بلصق جفنى عينه السليمة كى تظل مفتوحة وتوجيه نظره له !

اقترب من وجه الزوجة وهو يسحقها تحت رائحته الخانقة ثم يقتحم جسدها بقذارته ويبدأ فى التحرك أماما وخلفا رغم بكاء الطفلين وصراخ الزوج المبحوح وتوسلاتها المستميتة وخواره ال.. لا وصف يصف خواره فى تلك اللحظات.. كلمة (قذر) أنظف وأطهر منه كثيرا !

تحرك رأسها يمينا ويسارا بعنفٍ باكٍ، ترفض..

تقاوم..

تتألم..

تبكى..

تنهار..

نفسُها يضيق وعرقه القذر ينهال عليها..



تشهق من أجل نفس.. تتلمس نسمة هواء من تحت كتلة الدهون التى تجثم عليها..

ويتحرك..

الألم يتزايد داخلها ودون إرادة تنقلب أمعاؤها لتفرغ ما بها فى وجهه، لكنه لم يتوقف ! فقط سبّها وتحامل على يد ليرفع نفسه بعض الشىء وصفعها مرتين بالأخرى وسط سبابه ثم أكمل تحركاته اللاهثة..

لحظات قاسية مؤلمة أكثر من كل الضرب والإهانة السابقة قبل أن يعتدل الضخم جالسا على فخذيها العاريين يعب الهواء فى جشع..

وهى منهارة لا تكاد تصدق أن ما يحدث يحدث بالفعل.. لماذا لا ينتهى هذا الكابوس السخيف ؟

بعينيه الميتتين الشبيهتين بعينى خنزير نافق نظر للزوج وابتسم ثم سأله :

- ألم تتذكر بعد ؟



لكن الزوج يبدو أنه فقد عقله.. فلنضع فى الحسبان أنه عاش عيشة مترفة ثم تعرض فجأة لتعذيب رهيب وشاهد طفليه يقاسيان عذابا مخيفا والآن.. زوجته تم سحقها اغتصابا تحت وطأة هذا الرخو.. كان ينظر نحو زوجته متسع العينين ويعوى وينقل نظره بينها وبين طفليه وشدقيه يقطران باللعاب.. يهز البدين رأسه فيهتز لغده، يمد يده ويمسك السيجار المشتعل من يد أحد زبانيته ويتنحى جانبا ليتربع عاريا على الأرض ويأخذ منه نفسا عميقا يبثه باتجاه وجه (وليد)، ثم – دون لحظة تردد – أدخل السيجار المشتعل من طرفه الملتهب داخل الزوجة مصدرا صوت التقاء النار بالسوائل اللزجة داخلها !

عوت الزوجة من فرط الألم الشنيع كعواء ذئب يحترق، وجسدها يتشنج لأعلى كمرضى الصرع.. نظر البدين للزوج لكن لم يحدث له أى تغيير.. مازال يعوى هو الآخر بصوت متصل ولعابه يقطر على الأرض !

سحب سيجاره الفخم الملوث ببقايا إفرازاته من داخلها وتأمله للحظات ثم مط شفتيه فى حنق وهمس



لهم بصوت لم يكد يسمعه أحد :

- يبدو حقا أنه لا يعرف شيئا..

إذن..

اقتلوهم !

صرخت الزوجة فى رعب مابعده رعب.. صرخة عالية عالية.. تقول أشياء كثيرة وتتوسل وتنهار لكن.. من الخلفية المظلمة ارتفع صوت منشار كهربى منذرا بموت قريب !

صوت صراخ الريس (متولى) يخبره ألا يفعل لكن يقطعها (شوكت) بصرخة هادرة أن يخرس !

تتوسل (هناء)..

تصرخ..

صرخات الأطفال تتعالى مع انكتام صوت المنشار نوعا نتيجة اقتحامه جسدا ما قبل أن تصمت صرخة

أصغرهم ورأسه تتدحرج على الأرض قريبا من (هناء)، ولحسن حظها تفقد الوعى الآن قبل أن ترى الرأسين الباقيين يتدحرجان ناحيتها وسط نافورتى الدماء المنبثقتين من الجسدين !

***

يا اللّه.. ربما لو تعاملوا مع بضع حيوانات عجماء لمسّ قلبَهم شىءٌ من الرحمة.. ألا يشعر هؤلاء بالألم ؟

أليسوا بشرا ؟!

***

تفتح (هناء) عينيها بالكاد فى الظلام عفن الرائحة..

الألم يغزو قلبها وبطنها..

العطش يحرق جوفها..

الألم العاتى يخترق صدرها..

هل ماتت ؟



أو الأفضل : هل كل ماسبق كان كابوسا وحسب ؟

تنظر حولها لكنها لا ترى شيئا.. الظلام يعلن سطوته بقسوة.. الصمت الفائق يشاركه السيطرة على المكان بينما لا رائحة إلا رائحة دماء مختلط بالتراب !

هل كان كابوسا ؟ هل هى فى كابوس الآن ؟

ترجو من الله أن يكون كابوسا فحسب.. حتى وهى تعلم يقينا أن الواقع المؤلم يفرض وجوده بقوة عليها.. القسوة نفسها تنحت فى خجل أمام ماحدث..

لكن أين هى ؟

تحاول الحركة والنهوض من على الرمال الناعمة التى ترقد عليها لتصرخ من الألم مكان الحرق الداخلى وآلام جسدها العارى.. أما لهذا العذاب من نهاية ؟

وقفت بالكاد وهى تحد نظرها لتشعر بخيوط عنكبوت على رأسها يسبق ارتطامها بجزء من السقف القريب

فتتأوه.. لكنها حقيقة لا تهتم جدا.. تحاول السير لتكتشف المكان أو تبحث عن شىء من الضوء..

مخرج..

لكنها تعثرت فى شىء لين..

جسد..

عندما سقطت فوق الجسد تحسسته بلهفة.. إنها تعرف هذه الملابس..

ملابس ابنها الأكبر !

لم تتمالك نفسها وعوت فى ألم وهى تهزه..

تتحسسه وتهزه وتصرخ أن ينهض ويجيبها..

أصابعها تتحسسه وتجذبه لينهض لتفاجأ أن لا رأس هنا !

عنق مبتور .



تركته رغما عنها و تراجعت هلعة مذعورة مرتجفة القلب ..

تصرخ.. تصرخ تصرخ ..

وانزوت فى الركن الذى وصلت إليه باكية وجسدها ينتفض..

الويل لها عندما ترى المشهد كاملا ..

ولويل لقلبها عندما يشعر بحجم الخسارة كاملا !

لم يدرك عقلها بعد أن عائلتها لم تعد موجودة..

لم تدرك أن زوجها وطفليها صاروا جثثا بلا رءوس ..

ولم تدرك أنهم دفنوها معهم كلذة ماسوشية أخيرة فى قبر من القبور التى يدفنون فيها جثث الأطفال الناتجة عن فتح المقابر ..

دفنوها حية !



***

مع مرور الوقت وإدراكها الكامل لما حدث ضربت عقلها نوبة ذعر عاتية.. التصقت فى جدار قريب وأخذت تصرخ وتصرخ بصوت مبحوح..

أخذت تضرب رأسها فى الحائط بلا وعى حتى أدمته بجروح وخدوش قبيحة..

بضع مرات مرتجفة كانت تزحف وتتحسس كل جثة ربما وجدت أحدهم حيا، ثم تعود مذعورة لترفع يديها الملوثتين بدماء جافة وتضرب وجهها بالتراب..

ثم تفقد الوعى..

تفيق على شعور نيران الظمأ تحرق حلقها..

الصداع ينهال بمطارقه على رأسها، بينما الظلام يغرق كل شىء..

جسدها بارد مثلج ومع ذلك غارق فى البلل لا تدرى أهو عرقها أم دماؤها أم أنها فقدت السيطرة على



مثانتها..

ترتجف..

تحاول التحديق فى الظلام..

يخيل إليها أنها تسمع صوت طفلها الصغير يضحك..

تراه يعتدل فى قلب الظلام يبحث عن رأسه المقطوع وعندما يجده يرفعه لرأسه، لكنه ليس رأسه..

يضعه مكانه بحرص ويعاود البحث عن رأسه !

تهز رأسها فى عنف طاردة كل الهلاوس وتشهق طالبة للهواء لكن الهواء بارد جاف عفن الرائحة فى حجرة مكتومة..

قبر مكتوم !

ترقد على جانبها فى وضع الجنين..

هى مازالت عارية لكنها لا تهتم..



تدعو الله فقط أن تموت الآن..

ربما فقدت الوعى من جديد لكنها لا تدرى إلا أنها تعود لتستيقظ لتجد نفسها فى القبر وكل جسدها يصرخ احتجاجا من الظمأ.. لماذا لا تموت وينتهى الأمر ؟

تفكر أن تقتل نفسها لكن.. كيف ؟

الظلام يؤلم عينيها لكن..

زوجها يعتدل فى رقدته ! طفلاها يعتدلان أيضا وكل من ثلاثتهم يضع رأسه المبتورة على عنقه وينظرون لها نظرة ثابتة مخيفة..

يهمسون..

رؤوسهم ترتجف..

شفاههم تدمدم بشىء لا تدرى كنهه.. ربما لأن حبالهم الصوتية تأثرت بسبب الذبح ؟



تشعر بالخوف يمزق روحها مع أنها لاتدرك سبب خوفها.. لو كانت عائلتها تريد قتلها فليقتلوها وينتهى الأمر؛ هى تريد الموت أصلا.. لو كانوا شياطينا فلينتهوا منها سريعا.. لو كانوا أى شىء فعليهم أن يخلصوها مما هى فيه.. كل الخيارات رائعة الآن !

لكنهم ثابتين لا يتحركون ؛ فقط يدمدمون ورءوسهم تهتز.. ومن جوارها شعرت بشىء يتحرك ويحرك معه الهواء.. نظرت لتجد شخصا جديدا عليها واقفا فى القبر !

من هو ؟

ومن أين دخل ؟

وكيف تراه أصلا فى قلب الظلام ؟

هى لا تعلم ولا تهتم.. رفعت نظرها إليه بوجل تنتظر، لكنه مد يده إليها و.. من بين أصابعه انساب خيط رفيع من الماء انصب فى حلقها مباشرة..



صرخت فى ألم ونشوة عندما استيقظت داخلها الحياة مرة أخرى..

الماء لامس قروح فمها وشفتيها فآلمها بشدة لكنها شربت.. بضع لحظات ثم توقف الماء !

همست تطالب بالمزيد لكن الواقف لم يستجب.. أشار لزوجها وبصوت عجيب يجمع بين الهدوء والقوة والنعومة :

- لماذا قتلوك ؟

مرت لحظة صمت ثم ارتفع صوت زوجها المميز مختلطا بغرغرة الموت :

- كان يريد إيذاء حماى.. يريد سرقته فقتلنى..

اغتصب زوجتى..

ذبح ابنى الاثنين..

ودفن زوجتى حية !

ارتفع بكاء الطفلين مرة أخرى مصحوبا بتوسلاتهما بينما انهمرت دموع (هناء) مرة أخرى..

لقد أصيبت بالجنون حتما ! هذه المسرحية المخيفة لا تحدث ولا يمكن أن تحدث ! تتمنى فقط أن تكون هذه المرحلة الأخيرة قبل الموت لينتهى كل هذا.. ومن أعمق أعماقها ارتفعت صرخة ترجمتها همسة متألمة تقول :

- ارحمنى يارب..

ساد الصمت فجأة بعد كلماتها.. ثم جاء الصوت قاسيا :

- لو أراد أن يرحمك لرحمك.. لو أراد نجاتك لفعل.. لو يحبك لكان تركهم يقتلونك بدلا من هذا العذاب.. ألا ترين ماذا فعلوا بك ؟

ألا ترغبين فى الانتقام ؟



قالها وارتفع صراخ الزوج والابنين يصمون أذنيها.. ثم يتوسلون أن تنتقم لهم..

أن يناموا مرتاحين بدلا من هذا العذاب..

إنها أملهم الأخير ولابد أن تنتقم..

أمل خير ؟ بعدما ماتوا ؟

وسط بكائهم يأتيها الصوت الواثق يسألها.. ألا تريد أخذ ثأرها ؟

ألا تريد الانتقام من الخنزير الذى اغتصبها وغرس سيجاره فى رحمها ؟

ألا تريد أن تراه يتألم ؟

ألا تريد أن تراه يتضرع ويتوسل لها ؟

ألا تريد أن..

تعيش ؟

تعيش ؟

لا !

هى زاهدة فى الحياة تماما لكنها بالفعل تتمنى أن ترى هذا الوغد يتألم.. يتوسل من أجل حياته.. لا تدرى كيف لكنها..

اعتدلت وهمست أن ..

- نعم !

ما أن غادرت الحروف حلقها حتى أغرق الصمت المكان وتجمد كل شىء..

لا صراخ..

لا توسلات..

لا شىء إلا الصمت !

أخذت تحدق فى الظلام وتدقق لكنها كأنما تحدق فى قطعة قطيفة سوداء بلا معالم ! لا تسمع سوى صوت تنفسها الثقيل.. لا تشم سوى الدماء !

تهمس متساءلة عما يدور.. أين من كان يتحدث ! وتضرب عقلها فكرة عنيفة أنها بالفعل قد جنت ولا شىء يحدث من كل هذا.. إنها عبرت حاجز الجنون بالفعل وتنتظر موتها بصبر نافد !

لكن.. ماتزال تشعر بطعم قطرات الماء على شفتيها، أم تراه خيالا هو الآخر ؟

قطرات المياه تلك بعثت فى نفسها بعض القوة، فنهضت تزحف.. هى لاتدرى منذ متى هى هنا لكنها لابد أنها قضت يوما كاملا بين الألم والجنون.. موضع حرقها الداخلى يؤلمها بجنون، وضلوعها تصرخ وخدوش جسدها الملتهبة تحرق كل ماتلمسه، ومع ذلك زحفت تبحث عن مخرج ! هل بعث ذلك القادم شيئا من الأمل فيها ؟



أخذت تتحسس الجدار وتسير معه متجاهلة الحصى والأشياء المدببة التى تسير عليها.. ربما هى عظام أناس دفنوا هنا من قبل !

تتحسس وتسير إلى أن ارتطمت أصابع قدميها ببروز فى الأرض !

تجاهلت الألم وتحسست هذا البروز..

سلم !

درجات حجرية تؤدى للأعلى !

ببطء أخذت تتسلق وتتسلق إلى أن ارتطم رأسها بالسقف ولما تنته السلالم بعد !

مدت يدها تتحسس لتجد حجرا ضخما ثقيلا يغلق المكان فوقها بإحكام.. تحسست الحائط والجدار ودفعت كل شىء بأقصى قوة لكن لم يتحرك شىء.. لم يحدث شىء !



صرخت ببقايا صوت مبحوح وبيأس تهاوت مكانها لتجلس..

لا مفر..

سأموت هنا !

***

- أمى ..

أنا خائف ..

***

كانت تجلس فى حجرة المعيشة تلاعب طفلها الصغير وتتابع التلفاز حين قدم لها طفلها الأكبر المشروب الدافىء.. كانت شاردة تفكر ؛ مالذى يحدث ؟

هل كان كل هذا كابوسا فحسب ؟

نظرت لطفلها شاكرة حين انفتح باب الشقة ليدلف زوجها..



لكنه لم يكن زوجها..

كان شخصا طويلا وسيما يرتدى ملابسا مبهمة سوداء.. الغريب أنها لا تعرف ماذا يرتدى لكنها تدرك بإحساس عام فقط أنه يرتدى ملابسا سوداء.. كيف دخل إلى الشقة اصلا ؟

بهدوء دخل وجلس جوارها بينما لم يعطه الطفلان أى اهتمام وكأنما يعرفانه منذ أمد بعيد ومن الطبيعى أن يدخل للمكان ويجلس أينما شاء !

مد يده بحلوى سوداء لهما فتقبلاها من يده بضحك طفولى ووضعاها فى فمهما فى مرح ثم جلسا يكملان ماكان يفعلانه.. نظر لها بعينين جميلتين ساحرتين وبصوت عميق تكلم..

حسنا، هو لم يتكلم إنما وصلها صوته العميق داخل عقلها مباشرة :

- هذه حياتك التى سلبوها منك هكذا :



وأشار بيده ليسقط رأس طفلها الصغير.. اتسعت عيناها فى رعب رهيب وألم لكنها لم تتحرك.. قوى هائلة تقيدها فاكتفت بالأنين بينما انسابت الدموع على وجنتيها أنهارا.. ويكمل هو :

- وهكذا..

فتنفجر الدماء من عنق ابنها الآخر عندما تنفصل رأسه عنه ويتهاوى جسده جوار رأسه المتدحرجة فتتلوى الأم من المنظر وتئن فى قلة حيلة..

ويكمل :

- وهكذا..

فترى زوجها فجأة جوارها مشوه الوجه والمنشار يسير داخل عنقه ينحره نحرا والدماء تتناثر لتغرق المكان حولها !

- ألا ترغبين فى الانتقام ؟



ينطقها وترى نفسها بالكاد تحت الفيل القذر.. ترى شعرها من تحت كتفه المكتنز وقدميها المفتوحتين أسفله وهو يتحرك جيئة وذهابا ويخور.. وفجأة تشعر بنار السيجار تحرق جوفها مرة أخرى !

أعماق روحها تصرخ أن نعم، لكن الصرخة لم تتجاوز شفتيها قط.. بينما تغير المشهد من حولها ليسود ظلام القبر من جديد وهى عارية على السلم وجوارها ذلك الرجل يمد إليها يده بشىء أسود ثم يضعه فى فمها مباشرة.. كانت أشبه ماتكون بالحلوى لكنها مرة المذاق بشكل غير معقول.. ومع ذلك جذابة تريد منها المزيد !

ابتسم وهى تلوكها، ثم سحب يدها ووضع فى إحدى أصابعها شيئا معدنيا.. خاتم ؟

ثم أشار للأعلى فانتبهت أن هناك تيار هواء بارد من الأعلى، والقبر مفتوح ! نظرت له ولكنه ليس هنا.. لقد اختفى !



نهضت من مكانها بصعوبة وتسلقت السلالم إلى أن وصلت لباب المقبرة.. تشممت الهواء فسعلت بعنف وارتمت على باب المقبرة عارية ونظرت للسماء..

السماء كما خلقها الله، ولم تكن تتخيل أن تراها مرة أخرى !

نظرت لأصابعها فلم تجد شيئا !

وبكل مايعتمل فى صدرها من آلام صرخت صرخة عالية مبحوحة طويلة ثم انفجرت فى البكاء مرة أخيرة وهى تنقلب على ظهرها وتسحب ساقيها من فتحة القبر..

مرت عليها بضع لحظات سكون وهى ترجو ألا يكون هذا من هلاوسها الأخيرة.. قلبها لا يتحمل المزيد من الألم واليأس والإحباط، لكن يبدو أن كل شىء حقيقى هذه المرة..

نهضت بحذر مسترشدة بضوء القمر مبتعدة بخطى مرتجفة كطفل يتعلم السير.. وقفت بضع لحظات



ناظرة نحو القبر لكن.. القبر مغلق كما هو وكأنما لم يمس قط ! من أين خرجت إذن ؟!

لا مجال للدهشة.. حتى وآلام حرقها الداخلى تتلاشى ببطء لم تكن مندهشة !

لن تتساءل كيف خرجت.. لن تتساءل عن كيفية اختفاء الألم ..

ستعود لمنزلها أولا ثم ليكن مايكون بعد ذلك..

من أين لها بتلك القوة النفسية والتماسك ؟

لا تعرف..

ولا تهتم .

***



الفصل الرابع

تمد يديها الرقيقتين إليه فيمسك أصابعها الشبيهة بأصابع طفل وينحنى ليقبلها، ثم يجذبها ببطء ليرقصا معا على أنغام لا يسمعها غيرهما.. ينظر لعينيها فيذوب.. يمس شفتيها بشفتيه فى قبلة رقيقة تبثها حبا لا تستطيع الكلمات إيصاله ..

تبتسم له فيضحك الكون.. يصير كل شىء جميلا.. يخترق عطرها أنفه ويملأ قلبه بالفرح.. يجذبها إليه أكثر ليحتضنها أكثر وأكثر حتى ترتقع قدماها عن الأرض ويدور بها برفق.. تمس أرنبة أنفها أرنبة أنفه وتضحك ..

لحظة.. عمن أتحدث ؟

أتحدث عنهما بالطبع، لكن لاتهتم ياصديقى.. لاتهتم.. دعنا نتابع بقية الأحداث!

1454



أوروبا.. مكان ما !

مر عام منذ سقوط القسطنطينية وتغيرت حياة (راؤول) تغييرا خياليا.. وللأسف قد يكون الخيال رهيبا مخيفا ! هو نفسه لم يكن يتخيل أن يحدث ماقد حدث ولا حتى فى أسوأ كوابيسه ولا فى أسوأ قصص الأجداد..

ماحدث معه لم يسمع عنه من قبل قط ولا يعتقد أن أحدا سيحدث له مثل ذلك على الإطلاق.. كان يفكر فى ذلك كله وهو يتأمل خاتمه فى شرود وخياله يسرح بعيدا..

منذ أن وافق على طلب الشيطان الذى جاءه..

كان فى ذلك الوقت على مشارف الجنون لولا بقية بائدة من التشبث بأمل ضئيل يشفى غليل قلبه..

خلال ذلك العام لم يمر يوم لم يبك فيه على زوجته وبنتيه و(بيتر) الحبيب، وبروح الانتقام الأسود كان يتحرك ويؤدى ما يجب عليه.. طبعا من نافلة القول



أنه لم يعرف مَن القزم ولا لماذا أنقذه أو لماذا حكى له ما حكاه.. على كل حال هو لن يخرج عن تجسد من تجسدات الشيطان أو أحد معاونيه، وهو ليس مهما على كل حال !

عندما وافق (راؤول) على الانتقام أرشده الشيطان لكهف قريب فى منتصف تلة مرتفعة تطل على (مدينة قروية) صغيرة ويقبع فى قلب الغابة نفسها.. وهناك تعيش به عجوز تنبىء ملامحها عن جمال ساحر سرقه الزمن وأبدلها تغضنا فى الجلد وسقوطا فى الأسنان، ومع ذلك ظلت عيناها عينى شابة تشع مكرا ودهاءا..

وأمره أن يتعلم منها.. طبعا كانت ساحرة تتعبد للشيطان ومن خدامه المخلصين !

تردد فى الموافقة قليلا.. مازال قلبه يرتجف من القدير.. مازال هناك بصيص إيمان يخبره أن – ربما - لم يفت الوقت بعد، وبشكل ما أدرك الواقف مايعتمل فى نفسه فجاءته المعلومة تعتصر عقله اعتصارا.. لقد



باع له روحه من قبل وأنه هالك لا محالة فى الدنيا وما بعدها، فليهلك مستريح القلب إذن..

الأمر لا يخلو من منطق كما ترى، وهكذا حسم أمره وعاش معها وتعلم..

تعلم أن يسجد للشيطان وأعوان الشيطان وأن يقدم لهم القرابين من الحيوانات.. حيوانات صغيرة وحيوانات كبيرة فى سيل دماء ينهمر بلا توقف، وفى مقابل ذلك تعلمه العجوز الشمطاء فنون السحر الأسود الغامض..

كانت أيضا تأتيه أحيانا وتغير شكلها لتصير أكثر شبابا وحيوية ونضرة وتمارس معه الرذيلة بشتى الطرق.. القذارة عنوان لما يفعلانه، خاصة عندما يتكلل المنزل برائحة البخور المصنوع من مخلفاتهما وقذاراتهما.. هى كانت تأمل فى حياة أبدية وهو كان يأمل فى انتقام مروع يتحدث عنه كل حى !

***



- أمازلت تحبنى ؟

همست له بها متدللة وهى تمد قدميها الورديتين على العشب الأخضر الزاهى والجو مشرق رائع كأنما انعكس من روحهما على العالم.. وفى عبث رفعت قدميها ودفعت بهما فى صدره، فأمسك إحدى قدميها وقبل باطنها مدغدغا إياها، فحاولت أن تسحبها لكنه أمسكها بقوة وظل يدغدغها.. كانت تضحك والكون يشرق لهما أكثر.. ترك قدمها واقترب من أذنها وهو يهمس :

- لا طبعا..

رفعت حاجبيها دهشة لكنه أكمل :

- أكثر من أحبك.. أكثر من أى كلمة قيلت من قبل أو سوف تقال.. أحبك أكثر من نفسى ..

جذبت قدميها فى مرح وهى تعتدل مقتربة منه ليدير عطرها رأسه وتقول :

- أكثر من أمك وأبيك ؟

بلا تردد همس :

- نعم !

- أكثر من ابنتيك ؟

تردد قليلا وهو يتأمل ملامحها الرقيقة.. البنتان ستتزوجان يوما وترحلان ولن يبقى سواهما معا، لذا حسم قراره وهمس :

- نعم ! أحبك أكثر منهما.. أحبك ..

كانت تبتعد عنه وهو متجمد لا يستطيع حراكا.. حاول الانتفاض.. الكلام.. الجو يزداد قتامة وسوادا بينما تتناهى لأذنيه من بعيد أصوات لا يفهمهما.. شعر بحيرة من التحول العجيب الذى يحدث حوله، ليفتح عينيه فى الظلام ويجد زوجته الراحلة جالسة جواره تنظر له فى شهوة !

انحنت لتطبع قبلة على فمه ثم نهضت لتصل إلى قدميه تدلكهما ثم تسير بيديها على ساقيه..

تدلك ركبتيه..

فخذيه..

وبصوت الساحرة الشمطاء قالت :

- هل أعجبك هكذا ؟

فى الواقع، وفى اللحظات الأولى من هذا التجسد العجيب كان مذهولا لايدرى أيشعر بالفرح ويلتقطها فى حضنه، أم يشعر بالذعر لأن الموتى لا يعودون للحياة مهما كان السحر قويا !

لحظات وفطن للأمر عندما سمع صوتها.. كانت العجوز الحقيرة متشكلة فى صورة زوجته كى تسترضيه !

الحمقاء ضغطت على الوتر الوحيد الذى لم يكن ينبغى لها أن تمسه مهما كانت الظروف ومهما كانت الإغراءات.. الحقيقة أنها كانت تميل له.. تحب قوته وفتوته وطاعته العمياء.. تحب صمته وشروده وحديثه – إن تحدث – عن زوجته وبنتيه وربما



الخادم بيتر.. كانت تشعر بالعجب من أنه لم يتحدث عن خدمته أو أيام كهنوته قط وتساءلت عن كنه هذا الحب.. وقطعا مع قلب كقلبها امتلأت غيرة وحسدا لها، ففكرت أنها ربما لو ظهرت له بصورة زوجته وأعطته شيئا من الحب لنسيها قليلا وانتبه إلى وجود البديل.. كادت أن تجرب معه وصفات الحب السحرية من قبل لكن دائما ما كان يظهر السيد وينهرها عن ذلك ؛ لذلك ..

تشكلت فى صورة الزوجة التى أخذتها من حلمه مباشرة ولا تسألنى كيف لأنها ساحرة والمفترض أن تستطيع القيام بهذه الأشياء!

ورد فعل (راؤول) ؟

كانت غضبته مروعة !

نهض من رقدته صارخا وانقض عليها بشىء ثقيل لم يدر حتى ماهو بينما حاولت هى أن تهرب من أمامه فى ذعر لكنه لم يدع لها الفرصة.. انقض عليها يضربها



ويضربها بقوة وعنف صارخا فى جنون.. تعثرت الشمطاء على الأرض قريبة من القدر وأدوات تحضير القرابين، وفى غمرة الجنون التقط كل ما يمكن التقاطه و..

حسنا..

دقيقة فقط وكان واقفا يلهث أمام رأسها المحطم وجسدها المغروس فيه عدة سكاكين وعصى خشبية !

الجنون ينحسر عن عينيه ودقات قلبه تدوى بلا انتظام وبلا هدف عندما أدرك المصيبة.. عندما رأى العجوز الشمطاء تنتفض على الأرض بدلا من صورة زوجته الحسناء !

تهالك على الأرض يرتجف واضعا يده الملوثة بالدماء على رأسه عندما وجد الغريب ذى الملابس السوداء واقفا أمامه وعيناه تنطقان بالشر والغضب وهو يتأمل الجثة التى ما زالت تنتفض تنز الدم.. شكله مخيف خاصة مع هالة النيران الهادئة التى تحوطه.. كان



غاضبا بحق لكنه يعلم أن الحمقاء السبب.. هو يراقبهما طوال الوقت، ولكنها الوحيدة التى تملك العلم المناسب لهذا الاحمق ..

أما (راؤول) فلم يكن خائفا وإنما كان داخله غضب عارم مالبث أن تحول لذعر.. هل هذه النهاية ولن يتم انتقامه ؟

هل انتقض العهد أو أثار غضب هذا الرجل الأسود أو.. هل هناك شىء سىء قادم ؟

طبعا ..

أشار له الشيطان ولها بمعنى أن يقيم معها الرذيلة ودوى الأمر كمطرقة فى عقله فى نفس اللحظة !

اتسعت عينا (راؤول) فى ارتياع.. هذا لا يمكن أبدا ! هذه جثة محطمة الرأس.. أعضاؤها ماتت وشكلها فى غاية القبح ! كيف له أن يفعلها ؟ هذا ضرب من أعمق ضروب الجنون..

ومع أنها كانت أفكار فحسب لم تنطق بها شفتيه إلا أن الرد انفجر فى عقله قاسيا ثقيلا عنيفا :

- لقد ارتكبت جرما رهيبا.. هذه المرأة كانت من المقربين الأوفياء ولا مثيل لها.. الغضب عليه شديد، لذلك إن لم يفعل المطلوب فلا يلومن إلا نفسه !

تردد (راؤول) فى الطاعة وهو يتأمل المكان الكئيب من حوله فى جزع.. هل يمكن أن.. هل يمكن ذلك ؟

ليصدمه الرد مرة أخرى أن :

- ليس أمامك خيار !

و.. فعلها !

باشمئزاز حقيقى فعلها دون حتى أن ينزع الأدوات التى قتلتها حتى أنه أفرغ ما فى بطنه عليها وهو يمارس ما يمارسه، لكنه فعلها تحت سمع وأنظار الغريب الواقف.. وبمجرد انتهائه لاهثا زحف على ركبتيه مبتعدا عنها يرتجف..

هذا جحيم كابوسى..

لكن الرحمة غير واردة فى عالم الشياطين لذلك جاء الأمر الأقسى..

أن يأكلها !

لم يبد أى رد فعل.. لم يكن هناك رد فعل معين يمكن أن يقوم به، لكنه وصل لمرحلة نفسية يمكنها القيام بأى شىء..

لكنه لن يأكلها مباشرة كما تتخيل وإنما هناك طقوس لذلك !

تقدم الشيطان الوسيم منه وجلس أمامه فى الهواء وأخذ يعلمه أشياءا ويلقنه كلمات اهتزت لها جوانب الكهف.. كلمات قديمة ملعونة لا يعرفها إلا قليل ..

كلمات تشرح له كيف يعرف ما كانت تعرفه المقتولة.. سيعرف أسرارها ويتعلم علمها..



عندما يأكل يديها يكتسب مهارتها فى صنع الوصفات ..

وعندما يلتهم لسانها يمكنه قول كل ما كانت تقوله ..

وعندما يمتص عقلها يتعلم علمها..

عيناها تعطيانه رؤى لكل ما رأته..

قلبها يهبه شجاعتها وجرأتها ومخاوفها وأحزانها ومشاعرها ..

عندما يأكل قدميها يعرف الطريق للأماكن السرية التى لا يعرفها غيرها..

فقط عليه أن يأكلها !

رفع عينيه للشيطان ليجد النيران تستعر حرفيا فى عينيه ووجهه الوسيم المخيف ! لا بد أن يعرف ماتعرفه العجوز المقتولة ولا وسيلة لذلك الآن إلا هذه الوسيلة فحسب !

هذا ما صنعته يداك فاقبل..

ببطء نهض (راؤول) من مكانه واقترب من الجثة ثم انتزع السكين الصغيرمن ظهرها.. مازالت بطنه تتقلص من تأثير الاستفراغ الذى قام به منذ قليل، لكنه جذب ذراعها وببطء انتزع قطعة لحم صغيرة بالسكين.. تأملها للحظات، ثم – بيد مرتجفة – ألقاها فى فمه ولاكها للحظات وهو يردد ما حفظه، حين اندفعت لذاكرته أشياء كثيرة..

رجال كثيرون يمارسون الرذيلة مع هذه الشمطاء !

أطفال رضع هلكوا تحت نصل سكينتها تقربا للشيطان !

التقط أنفاسه بصعوبة ومد السكين ليقتطع إصبعا من اصابعها ويبدأ فى انتزاع اللحم منه بأسنانه حين تدفقت طرقا سحرية رهيبة لفعل كل شىء تقريب إلى عقله.. كل الوصفات السحرية التى قامت بها الشمطاء فى حياتها تتدفق لعقله رويدا رويدا مع كل قطعة لحم..



ومع كل قطعة لحم بدأ يتحمس للمزيد ..

انحسر الاشمئزاز مفسحا المجال لفضوله وظمأه للعلوم السوداء!

***

فى خلال ثلاثة أيام كان قد انتهى من أغلبية الجثة وعرف.. تعلم!

تسربت إليه سنين طويلة قضتها الساحرة فى التعبد للشيطان وتعلم السحر، ولفت نظره شىء.. هناك طريقة معينة تتيح له الانتقال لعالم الشيطان والتعامل مع الشياطين كأنه واحد منهم.. فكما يمكن للشيطان التجسد فى عالم البشر، تتيح هذه الطريقة للبشر التجسد فى عالم الشيطان !

أبهرته هذه الطريقة.. تلاحقت أنفاسه وهو يتخيل نفسه.. شيطانا!

قوة جبارة يستطيع بها فعل ما يشاء وقتما شاء..



هذه هى..

كل شىء يرغب فيه هنا.. الحياة الطويلة والقوة المطلقة، بالإضافة للولوج لعالم لم يدخله بشر من قبل إلا قليلا !

الشمطاء كان عمرها يربو على الخمسمائة عام ! لم تجروء قط على تجربة هذه الطريقة مع أنها إحدى العارفين بها ممن لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد الواحدة..

عامة لم يكن يهتم بالحياة للأبد وإنما كان كل همه الانتقام.. لم يعد لديه هدف إلا الدم.. لم يعد هناك رغبات سوى القضاء على (محمد الفاتح) بيديه !

يعرف (راؤول) أنه استحوذ على الرضا الكامل من السادة والدليل عدم ظهور الشيطان ذى السواد لاحقا على الإطلاق.. مادام بعيدا فهو راض، وفى المقابل انتظم (راؤول) فى تقديم قرابينه وتعبداته للشيطان



فى الأوقات التى يحبها، وباقى وقته فى البحث لتنفيذ ما يرغب فى تنفيذه..

أن يكون شيطانا !

كانت الطريقة صعبة شبه مستحيلة ؛ إذ أن أول خطوة بسيطة هى قطع عضوه الذكرى بالسكين (سكين خاص يستخدمه من يتعاملون مع الشياطين.. قيل اسمه ثيلما أو فُوتْشِيُو أو بَاكْ أو سِيِلْمَة وفى كل الأحوال هو سكين قذر مغطى بالقاذورات والنجاسات وعلى مقبضه محفور تعبدات للشيطان وأسماء المعظمين من الشياطين)، وقتل خمسة رضع، ثم استخراج عين سليمة من نفسه بالسكين، والتبرز على كل ذلك مخلوطا بالرموز المقدسة وإشعال النار فيهم، فى الفترة التى تسبق غروب الشمس مباشرة !

وفى إناء صغير مجهز يوضع حديد مختلط ببعض العناص الأخرى ويتركهم لينصهروا تحت وطأة النيران، ويشكل الحديد المنصهر هذا على شكل خاتم كيفما اتفق..



وبعدها..

إما ان يقرر الشيطان الأكبر استحقاقه للهبة ويمس الخاتم واهبا إياه القدرة أو..

أو يضيع كل شىء هباءا !

الحق يقال أن الفكرة سيطرت على نفسه سيطرة فائقة.. هذا حل رائع لكل ما يتمنى فعله فى الحياة قبل أن يموت !

لم يكن يصدق نفسه حين هبط لقرية قريبة ليلا ليختطف الأطفال من ذويهم، وكان الشيطان يساعده.. يقف على قمة منزل ويشير إليه بمعنى أن هنا يوجد رضيع !

ببطء وحذر يدلف (راؤول) للمنزل المظلم.. يبحث بعينين حساستين للضوء لا يدرى كيف إلى أن يجد ما يبغى.. و برفق كأنما فى قلبه شىء من الرحمة يلتقط غنيمته ثم يرحل محاذرا أن يصدر الصغير أى صوت.. سرعان ما يخرج من القرية كلها ليعود به للكهف البعيد



كى لا يثير شبهات أو قلاقل.. ربما بكى طفل منهم وبكاؤهم مزعج، كما لا يأمن مرور حيوان يغتنم منه فريسة سهلة.. كهفه الأكثر أمانا، وهكذا سيضطر لقضاء ليلة طويلة فى رحلات ذهاب وعودة وسرقات واختطاف متلاحق ..

لم يتوان عن ذلك، فترك الرضيع الأول جوار حائط ثم عاد إلى القرية ليلتقط رضيعا آخرا !

لكن فى المرة الثالثة اضطر لقتل أم ! الأم التى كانت تحتضن رضيعها نائمة فى سلام وشعرت بمن يجذب ابنها منها ففتحت عينيها فى دهشة ليمر السكين اللعين على حلقها قبل أن تصرخ.. تتغرغر بدمائها فحسب وهو يلتقط الرضيع ويستدير ليجد الأب يستيقظ من نومه.. قتل أباه أيضا الذى نهض من نومه مفزوعا ليجد السكين ينغرس فى قلبه وهناك من يأخذ طفله ليسير مبتعدا قبل أن يفارق الحياة..

بدون مشاعر حقيقية أكمل عمله المخيف.. الخطفة الرابعة مرت بهدوء، لكن فى المرة الخامسة قبيل



الفجر التقط رضيعا ومشى وعندما بدأ الطفل فى الصياح والتشنج فجأة.. تململت الأم على صوت بكائه فلم تجد رضيعها جوارها، وعلى الفور صرخت ليستيقظ كل من بالمنزل، وهكذا فى قرار سريع أشعل (راؤول) نارا بكلمات من فمه فى ركن الأركان وانطلق يهرب بعدما استفحل الأمر.. ربما ظنوا أن الرضيع يبكى من النار الوليدة، وربما لم يعش أحد أصلا لأن النار استفحلت بسرعة خارقة ليصير المنزل أتونا ملتهبا بعد دقائق ..

وسرعان ما كان يخترق الغابة لاهثا يحمل الغنيمة الأخيرة الصارخة.. كل ذرة فى جسده تصرخ من فرط الإجهاد والحماس..

الآن عليه أنت ينتظر حتى الغد لينفذ ما يريد تنفيذه !

***

فى الصباح أشار إليه الشيطان أن يتابع الأخبار.. نهض من نوم قلق يتلمس الأخبار ليرى من بعيد القرية القريبة ثائرة.. يراهم من بعيد متجمعين كالأمواج



المتلاطمة الغاضبة.. اقترب أكثر ليرى الجموع تقترب هى الأخرى، وهناك من يشير إلى وجود ساحرة فى قلب الجبل هى من فعل كل ذلك ! بكل تأكيد هى من قتلت عائلتين وخطفت خمسة أطفال كى تقدمهم للشيطان، ومع فوران الغضب لاقى الاقتراح هوى فى نفوسهم وبدأوا يتحركون فى جماعات ليفتشوا الغابة تفتيشا دقيقا.. لاحظ أنهم لا يعرفون أنها قُتلت .

توتر (راؤول) بشدة وهو يراهم من بعيد يتحركون تجاهه، صحيح أن الغابة شاسعة لكنهم يستطيعون الوصول إليه بسرعة خاصة وأنهم عندهم فكرة تقريبية عن مكان كهف الساحرة..

وصحيح أيضا أنهم يخشونها لكن الغضب الآن أقوى من أى مشاعر خوف.. فكر أنهم خلال بضع ساعات على الأكثر يمكنهم أن يكونوا فى قلب الكهف، ولو ظل مكانه فالموت مصيره الحتمى..

هكذا هرول عائدا للكهف وجمع ما يحتاجه فحسب مع الأطفال الذين وضعهم فيما يشبه صندوقا كبيرا ملأه



بثقوب الخنجر كى لا يختنقوا وانطلق يعدو مبتعدا متعثرا من فرط ما لاقاه من جهد وألم.. لن يوقفه الآن هؤلاء القرويون..

***

بعد مسافة طويلة للغاية لايدرى كيف سارها بحمله الثقيل، وفى مكان منبسط ملىء بالعشب القصير.. مكان مرتفع يمكّنه من رؤية الغابة بكاملها والقرية من بعيد ؛ نظر للسماء ليجد أن الوقت تجاوز العصر بقليل وربما الوقت مناسب الآن لتنفيذ ما يريد تنفيذه ..

جهز أدواته ونحاسه وقطعة ماس دقيقة (من متطلبات الخاتم) وما يحتاجه من اشياء كانت كلها عند الساحرة الشمطاء، والسكين الحاد وملعقة صدئة لم يجد أفضل منها ..

أخذ نفسا آلم صدره و جلس يتأمل وجوه الملائكة الرضع.. إحداهم تشبه ابنته الصغرى بشدة حتى كأنها هى..



تضحك وتقرقر وهى تعبث بيديها مع وتضع إصبعها فى فمها..

تجمد مكانه للحظات وتذكر فتاته الصغيرة.. هذه بالذات كانت قريبة لقلبه للغاية..

منذ يوم ولادتها وهى تضحك..

تحتضنه وتضحك..

تمسك قدميه وهو يسير وتضحك..

حتى عندما تخطىء أو تتسبب فى مشكلة تضحك ملء فمها..

وكل يوم تغرقه بكلمة (أحبك أبى) ..

(أحبك.. أبى) ..

(أبى)..

رغما عنه انحدرت دمعتا حزن عليها !



كان يحمل تناقضا عجيبا، إذ أن قلبه يحمل ألما عظيما على أسرته، ومع ذلك فهو لا يحمل أى مشاعر تجاه هؤلاء الأطفال !

تناقض عجيب !

نظر تجاه أدواته مرة أخرى.. إناء كبيروسكين وملعقة ونيران متأججة..

رفع عينيه تجاه الشمس التى تتهادى فى طريقها للمغيب..

نزع ملابسه قطعة تلو الأخرى بهدوء ..

أخذ نفسا عميقا ومد يدا إلى ما بين قدميه ليجذب ما هناك و مد الأخرى بالسكين و..

هذا مشهد شديد البشاعة لا أستطيع وصفه لأنه لم يتم بسرعة كما يفترض به أن يفعله، لكن فى النهاية رددت الغابة صوت ألمه المذعور وهو يحمل عضوه بيد مرتجفة بعدما قطعه بالسكين !



ألم رهيب..

ألم لا يمكن تخيله على الإطلاق !

لم يكن يتخيل أن يتألم لمثل هذه الدرجة الشنيعة، والألم يتزايد مع الحرقان الخاص بالجرح الذى تسبب به لنفسه، ورغما عنه ارتمى على الأرض عاجزا عن الحركة والدوار يفتك برأسه من فرط الوجع !

شعر بقدم تدوس العشب أمام رأسه مباشرة.. رفع عينين منهكتين ليرى حذاء ذى السواد.. رفع نظره لعينيه ليصطدم بنظرة ساخرة ..بادله (راؤول) بنظره متوسلة تصرخ بطلب المساعدة أكدها بأنينٍ باكٍ.. توسل إليه أن يرحم ألمه وينهى معه مايريد، لكن كأنما كان يكلم شجرة !

لا رد على الإطلاق.. فقط أشار للشمس التى بدأت فى تغيير لونها استعدادا للنوم ثم.. أشار للنيران التى توشك على النوم للأبد هى الأخرى.. فرصته الوحيدة



تضيع من بين يديه لأنه لا يملك عضوا آخرا ليبتره ! اللعنة..

أظلمت الدنيا للحظات ثم فتح عينيه مرة أخرى.. لابد أنه فقد الوعى قليلا !

نهض بالكاد من رقدته على الأعشاب و بطنه غارقة فى الدماء وجسده يصرخ محتجا.. قدماه ترفضان الانصياع له لكنه دفعها دفعا نحو الإناء المشتعل بنار لا يدرى كيف استعرت فجأة وهى كانت خامدة منذ ثوان لتبثه حرارة محرقة و ..

ألقى فيها عضوه !

ثم التفت ينظر للملائكة الراقدين على العشب..

وهنا أيضا ليس ضروريا للغاية معرفة التفاصيل الكاملة، يكفى أن تعرف أنه قام بالمطلوب منه تجاه الأطفال الخمسة واحدا تلو الآخر..



أن تقرأ عن مجزرة بحق كبار لهو شيء يمكن احتماله نوعا، لكن الأطفال الرضع الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا.. لا يستطيعون حتى دفع غضن شجرة يقترب منهم.. أن تعرف كيف ماتوا لهو قسوة مابعدها قسوة.. هناك قلوب تحجرت واسودت حتى صارت أكثر رداءة من الفحم !

بعد دقائق كانت النيران تلتهم أجسادهم الضئيلة ذات الحناجر المشقوقة، ثم التقط الملعقة والسكين..

إنه دور العين يا صديقى..

فى تردد باكٍ نظر للسكين والملعقة ثم.. اختار أن يوجههما تجاه عينه اليسرى !

ومرة أخرى كان الألم شنيعا رهيبا لا يطاق.. يداه لا تطاوعانه وعينه ترسل إشارات ألم نارية إلى مخه الذى لا يصدق ما يحدث ولا يستوعب أن الأعصاب التى تتمزق تحت وطأة مرور الملعقة داخل محجر العين منتزعة إياها إنما تتمزق بأوامر منه.. وبكل قوة



ومع صرخة أخيرة دفعها (راؤول) للخارج لتسقط متدحرجة على العشب ويسقط هو جوارها يستفرغ ما فى بطنه ..

ثوان من الألم ..

ثوان من الدوار ..

كيف يمكن أن يكون عذاب الجحيم أشد مما يفعله بنفسه الآن ! لقد دخل جحيم فعلى بما فعله بنفسه ولابد أن يغفر له الرب.. لا بد أن يطيعه الشيطان أيضا لأنه يفعل كل ذلك لخدمته !

ثم نهض صارخا متألما يلتقط العين المخلوعة بأصابع مرتجفة ويضعها داخل الإناء.. تبقى فقط الأوراق المقدسة التى كان قد تبرز عليها سابقا، ومالبث أن ألقاها هى الأخرى على ما سبق، ثم مد يديه بإناء فيه الحديد والماسة يضعهم فى مكان أعده خصيصا لكى ينصهروا فى شكل خاتم وانتظر قليلا حين..

ظهر أول رجل من رجال القرية !



صرخ الرجل عندما رأى (راؤول)، وصرخ (راؤول) فى يأس وهو يرى الحديد وهو يكاد يفقد تماسكه على النار.. انطلق رجل القرية يعدو نحو (راؤول) صارخا بكلمات لم يتبينها، بينما كان (راؤول) قد فقد قوته أو كاد مع فقدانه للدماء.. هذه صدمة جديدة لم يتخيل حدوثها ولم يلبث أن انهار أخيرا وفقد وعيه مع صدمته بقدوم الرجل !

وتحت أقدام رجل القرية اللاهث الغاضب مباشرة، ومن خلفه يلحقه الآخرون بعيون تشتعل نارا وصدور مكلومة على ابنائهم وبناتهم رقد (راؤول) فاقد الوعى جوار الإناء الذى يحوى جرائمه !

***

أفاق (راؤول) !

هذا أمر غير متوقع على الإطلاق !

ألم يأت رجل القرية إليه وشاهد ما حدث، أم تراه كابوسا أم.. لا يدرى !



الحيرة تلتهمه ..

ظل راقدا بضع لحظات يستوعب أين هو وهو مغمض العينين.. شعر بنفسه نائما على فراش مريح نظيف عطر الرئحة.. لم يكن قد شم هذه الرائحة الجميلة منذ زمن بعيد، لذلك فقد شعر باسترخاء نسبى.. هناك صوت خطوات قريب..

هناك من يغير الكمادات على جبينه !

فتح عينه الوحيدة ليرى فتاة من أهل القرية تغير له كمادات كانت على وجهه.. ما أن رأت عينه المفتوحة حتى أشرق وجهها وقالت :

- ها أنت يا مسكين قد أفقت.. لقد نجوت من موت محقق، فقد وجدك الرجال جوار أطفالنا الأعزاء فليقدس الرب روحهم.. الرجال قالوا أنك تعرضت للتعذيب بشدة وربما – لو لم يجدوك – لكنت ميتا أنت الآخر.. لا بد أنها تلك الساحرة الشمطاء.. فلتحمد الرب على نجاتك أيها الغريب !



لم يجبها (راؤول) مباشرة وإنما ظل يحدق فيها محاولا استيعاب ماتقوله هذه الفتاة.. هم يظنون إذن أنه ضحية ؟ ليس هذا مهما، إنما الأهم.. الخاتم ؟

لم يجروء بالطبع على سؤالها، لكنه عاد يستسلم من جديد للنوم المحموم الذى لم يستمر طويلا، إذ أنه غرق فى حلم جديد !

تلك الأحلام التى هى ليست أحلاما !

رأى نفسه يسير على ماء كثير.. ربما هو بحر مترامى الأطراف لأن اللون الأزرق يحيط به من جميع الجهات، وجواره يسير الغريب ذو السواد الدائم فى الملابس والشعر.. يسيران باتجاه عرش كبير على الماء أمامهما يجلس عليه رجل وسيم للغاية يضع ساقا فوق الأخرى، ومن فوق رأسه تلتمع هالة القديسين البيضاء.. وعلى النقيض من رفيقه الذى يسير جواره كان كل مافيه أبيض جميل بهى..



عندما اقترب (راؤول) أكثر منه توقف رفيقه عند حد معين وركع على ركبة واحدة على الماء – الذى لم يصبهما بالبلل بالمناسبة - بينما سمع (راؤول) صوتا موسيقيا جميلا يصدر من بهى الطلعة الجالس أمامه يأمره بالتقدم !

فتقدم..

وبعد عدة خطوات مترددة نهض الذى كان جالسا على العرش فوق الماء ونزل درجتين خفيتين وسار نحو (راؤول) هو الآخر، ثم – فى مشهد رائع بديع لم يره أو يسمع عنه من قبل قط – بسط خلفه جناحان ضخمان شاهقا البياض لا يدرى أين كانا بالضبط ،وهو يمد يدا مضمومة إلى (راؤول) ويبسطها ليرتفع منها شىء براق للغاية.. خاتم رائع الشكل ! ثم قال بصوته الموسيقى الجميل :

- لقد رأيت ما قد فعلته، وأكملت لك صناعة الخاتم بنفسى وهو أمر كبير لو تعلم..

خذه ونفذ انتقامك..

خذه وافعل ما شئت..

من اليوم أنت من المقربين الأحباء ومكانك عالٍ بيننا ..

بيد مرتجفة مد (راؤول) يده والتقط الخاتم المزخرف الجميل بيده من الهواء، ثم سمع الصوت الجميل وهو يعود إلى عرشه ليجلس فى نفس الوضعية السابقة :

- من اليوم وبناءا على طلبك أنت..

تقبلناك واحدا منا..

أرنى ما يمكنك فعله..

نهض فجأة محلقا بشكل رائع يخطف الأنفاس من فوق عرشه ليطير تجاه (راؤول) مباشرة حتى كادت أنفه تلامس أنفه ثم قال :

- ربما.. ربما أعدت لك عائلتك !



والآن.. اذهب.. وهذه هدية لا مثيل لها وعليها منى هذه ..

أراد أن يصرخ مستفهما عن معنى هذا الكلام، لكنه انسحب فجأة ليبتلعه ظلام كثيف فتح منه عينيه على ذات الفراش الوثير ..

شعر بشىء ساخن فى قبضته.. فتحها ليجد الخاتم يبرق وكأنما هو شمس صغيرة تخبو تدريجيا..

تسارعت أنفاسه ..

حلمه يتحقق ..

خاتمه ..

خاتم الشيطان ..

خاتم (راؤول) ..

الخاتم الذى صنعه الشيطان بيده !

***

لا أصدق أنى أمسكت هذا الخاتم يوما بيدى !

***



الفصل الخامس

أما الانتقام فهو لذة لا مثيل لها على الإطلاق.. متعة راقية رائعة تريح القلب كأنك فرغت لتوك من صلاة طويلة.. ما أمتع أن ترى معذبيك يتعذبون.. أن ترى منتهكى عرضك يُنتهكون .

الانتقام يحتاج لشيئين فى غاية الأهمية :

أولهما الرغبة العارمة فى الإيذاء.. كراهية عميقة نابعة من سويداء القلب..

وثانيهما : قدر هائل من الحب ! أن تحب ماتنتقم لأجله حبا عميقا يتحول إلى تلك اللذة المقدسة وأنت تنتقم.. هكذا خُلقنا وهكذا تتوق نفوسنا.. أليس (العين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم) ؟

والقلب بالقلب ياسيدى.. القلب بالقلب !

(هناء).. فى شقتها تصرخ وتبكى وهى تدور كأسد حبيس مكلوم.. تحتضن الوسائد فى غرف الأطفال

وتبحث بعينيها عنهم.. تجلس داخل خزانة ثياب زوجها تتشمم عطره وتتمنى لو تعود قدماه لتملأ هذا السروال أو تساعده ليرتدى هذه السترة..

الألم .

تسير بضع خطوات لتتلمس الصور المعلقة على الحائط وتنهار على الأرض فى بكاء مرير يكاد يسرق روحها لكنه لا يفعل ..

لقد فقدت كل شىء ..

تنهض مترنحة من نوبة بكاء بعينين حمراوين تماما.. حلقها جاف مجروح.. تعد لنفسها مشروبا ما ودواءً مسكنا ربما حارب صداعا أسطوريا يعبث فى رأسها بعنف..

تعود وتتذكر لعب أطفالها فى المطبخ.. هنا كانوا يأخذون منها العجين ليعبثوا به كالصلصال.. وهنا كانوا ينتظرون إناء خفق الكريمة ليلعقوا الباقى.. وهنا كانت تطردهم فى عصبية كى يأتى (وليد) ويحتضنها



من الخلف ويقبلها أسفل أذنها فتصاب بالقشعريرة وتهمس فى دلال أنها لا تريد أحدهم فى المطبخ ..

ذكريات قاتلة تؤلمها..

ومرة أخرى تنهار فى بكاء محموم على أرضية المطبخ وتتذكر تحسسها موضع الرأس المقطوع لتصرخ كاتمة صرختها بيدها وقلبها يُعتصر تحت قبضة الألم القاسية..

لا تستطيع التنفس لكنها تتنفس..

لا تستطيع البكاء أكثر لكنها تبكى..

لا تستطيع الحياة أكثر لكنها تحيا !

وتتذكر..

كانت قد خرجت من المقبرة عارية وسارت هكذا إلى أن وجدت أسرة من الأسر التى تعيش فى المقابر.. طرقت بابهم فى هيستريا وعندما فتحوا الباب



أخبرتهم من وسط الدموع والمخاط أن أشخاصا هاجموها وتعدوا عليها و..

لم يكونوا بحاجة لأكثر من ذلك، كأى أسرة مصرية فقيرة يحملون قلوبا ذهبية أوجع قلوبهم منظرها المزرى وعريها المخزى، مع قدر بسيط من التشكك !

ألبسوها جلبابا نظيفا وأطعموها رغما عنها شيئا بسيطا مع كوب شاى ساخن لكنها لم تكف عن البكاء والارتجاف لحظة.. مازالت فى حالة صدمة وعدم تصديق ورفض !

طلبت منهم أن يوصلوها للمنزل بمقابل مادى فرفضوا وعرضوا إيصالها بلا أى مقابل لأنهم (ولاد بلد).. عرضوا عليها أن يذهبوا معها للشرطة لكنها رفضت لحين الذهاب مع زوجها.. قالتها وانهارت فى بكاء عنيف !

تفتح عينيها لتتأمل المنزل الكئيب.. منذ يومين كان يعج بالحياة لكنه الآن يعمر بالموت.. ورغما عن كل



الألم طفح على وجه الذكريات سؤال :

- والآن ماذا ؟

من الذى أعطاها الخاتم لتخرج ثم اختفى ؟

ولماذا ؟

تحسست موضع الخاتم، حين شعرت بظل كريه الرائحة يقف خلفها.. التفتت لترى ظلا جديدا غير من زارها أول مرة.. كان طويلا محنى الظهر نوعا.. عيناه ..

يالهاتين العينين ..

جميلتان..

قويتان..

قاسيتان..

ميتتان !



وبصوت عجيب كأنه صادر من قلب بئر سألها :

- ممن تريدين الانتقام ؟

ممن أريد الانتقام ؟ منهم كلهم طبعا.. تذكرت الواقفين..

(شوكت) الخنزير البدين – (متولى) الوغد عابد المال – (شاكوش) الكلب عديم الرحمة – كان يقف هناك اثنان من زبانية (شوكت).. (زينهم) و(سامح)..

هؤلاء من ذبحوا زوجى وأولادى..

هؤلاء من دفنونى حية..

وهؤلاء يجب أن.. كلمة انتقام لا تكفى !

- كيف ستنتقمين منهم ؟

سأقطعهم بأسنانى.. سأذيقهم النار والألم س... ماذا ؟ الغضب يحرك مشاعرها لكنها فى الواقع لا تدرى كيف يمكن أن تصل إليهم.. هى تتمنى لكنها لا تستطيع..



لكنها تعرف أنه سيساعدها.. هو لم ينقذها من الموت فى قلب قبر ليتساءل عن الكيفية فحسب، هل هو الذى أنقذها أم..

لذلك رفعت عينيها الحائرتين إليه وسألته هى الأخرى بصوت هامس :

- كيف ؟

- سأساعدك.. لكِ منى قدر ماتشائين من المساعدة.. سأذهب بكِ لهم واحدا تلو الآخر.. سأنهى معكِ حياتهم.. سأشفى غليل قلبك.. سأريح روحك القلقة..

سأقدم لك الانتقام ساخنا.. سنلقى الرعب فى قلوبهم قبل أن ننتزعها من صدورهم..

كان يتحدث وملامحه تتغير لتصير أكثر بشاعة.. ملامحه تتغضن أكثر فأكثر وهناك فجوة مخيفة تتكون مكان عينه اليسرى، وسرعان ماعادت ملامحه لتبدو قسيمة نوعا..



ارتجفت مما تراه وبتلقائية تمتمت :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

ما أن نطقتها حتى كان رد فعله عجيبا ؛ إذ أنه صرخ وهو يمسك برأسه فى قوة وتذبذب حتى كأنه مجرد صورة فى الهواء.. صرخت (هناء) أكثر وخرجت تعدو من الحجرة لتصطدم به فى الخارج وتسقط أرضا ..

مد يدا ذات أظافر سوداء قبيحة غير منتظمة وأنهضها كأنما يقيم طفلة صغيرة، وبيده القذرة عفنة الرائحة الأخرى كتم فمها وقال بصوت مرهق لاهث :

- لا تكرريها أرجوك.. اسمعينى فقط.. اسمعينى..

***

بعد مرور ساعة كانا قد اتفقا.. هو سيساعدها على انتقامها بينما ستساعده هى فى شىء مهم للغاية ستعرفه فيما بعد..

فلنبدأ..



***

(سامح) :

كان من مساعدى (شوكت) الأوفياء، وكان ممن لا قلب لهم.. لا هم له إلا شهواته ونزواته وإرضاء نفسه فحسب بلا أى اعتبار لأى شىء آخر، لذلك كان ينهى عمله مع (شوكت) بيه ليذهب ويسهر فى ملهى ليلى اعتاد المكوث فيه لأنه يمتاز بكثرة البغايا وتعددهم، كما أن القائمين على الملهى دائما ما يقدمون فتيات جديدات مما يمثل موردا رائعا لمحبى المتعة المحرمة، ثم يختار راقصة أو فتاة ليل ليلهو بها قليلا ويمتع بها نفسه فى الملهى نفسه، أو قد يعود لمنزله بها سريعا ليحظى بأطول وقت ممكن قبل الصباح، و كان يحب احتساء بضعة كئوس من الخمر كل ليلة.. وعلى الرغم من شربه الخمر بصورة شبه مستمرة إلا أنه لم يسمح لها قط بالتأثير على عقله ؛ ودائما يحصل منها على قدر بسيط يسمح له بانتشاء خفيف فحسب..



أما فى الليلة التى قتل فيها (هناء) وعائلتها فكان يشعر أنه متعكر المزاج فعلا.. هو غير معتاد على رؤية دماء الأطفال كما أن هذا الوغد (شاكوش) لا يملك ذرة رحمة.. وحش سادى يحب الدماء ويستمتع بسفكها ! وصدق أو لا فقد أثر ذلك على نفسيته بشدة !

هكذا فضل أن يقضى الليلة فى منزله ويستدعى الساقطات يمتعنه هناك، خاصة وأن (شوكت) بيه أخبره أنه لن يحتاجه لعدة أيام !

كانت الليلة الأولى صاخبة حقا – دون تفاصيل لأن الشباب ينتظرون مثل هذه الاشياء – لأنه استدعى عدة فتيات دفعة واحدة! وصلن به لحدٍ من النشوة والمتعة لم يصله من قبل، مع الكثير من التدليك وال.. حسنا.. لا أريد الاستطراد لأن أعصابنا لم تعد تتحمل مثل هذه الأمور !

المهم أنه قرر الاكتفاء بهذا القدر والراحة مع مشاهدة التلفاز فحسب ! كان هو الآخر غير متزوج ويعيش وحيدا.. فى الواقع كانت الوحدة من شروط اختيار

هؤلاء الناس لعمالهم كى لا يتركوا وراءهم أدلة أو يثرثرون مع عائلاتهم بشىء إلا من استثناءات بسيطة بالطبع.. أن يكون العامل وحيدا خير من أن يكون له زوجة ثرثارة تجبره على البوح بشىء !

هكذا تراه ممسكا بكوب شاى ثقيل على الأريكة الوثيرة أمام التلفاز يشاهد فيلما إباحيا على الفيديو باستمتاع حين سمع طرقا على باب الشقة !

الساعة تقترب من الرابعة فجرا والساقطات قد رحلن.. ترى هل إحداهن نست شيئا وتريد استعادته ؟ هكذا فكر، وفكر أيضا لو أقنعها بالمكوث معه للصباح !

نهض فى تثاقل وهو يضع ما بيده ليرى من بالباب ليجد..

لا أحد !

لا شىء !

غريبة ..



مع أنه سمع الطرقات بوضوح ولم يشرب شيئا يذهب عقله هذه الليلة ! تقدم خطوتين بسرعة لينظر فى السلم لأعلى وأسفل لكن العمارة فارغة !

إذن هى تهيؤات.. يبدو أنه أفرط فى الشراب فعلا !

ابتسم وعاد لشقته، وما أن أغلق الباب خلفه حتى سمع الطرقات واضحة كأقوى ما يكون تدوى من خلفه مباشرة ترج الباب رجا ! استدار بسرعة وفتح الباب لكنه لم يجد أحدا هذ المرة أيضا ! ارتجف جسده ارتجافة عنيفة وهو يرتد لشقته ويغلقها بعنف ويجرى ليرتمى فى أحضان أريكته الوثيرة..

هذا الأمر غير طبيعى ولا بد أنه من عبث الشياطين.. نعم..

قرر أن يغلق التلفاز وينتظر ليرى ماذا سوف يحدث حين..

تعالت الطرقات فجأة من كل أبواب المنزل دفعة واحدة !

انتفض فى عنف ونهض يتلفت حوله مذعورا.. كان عاريا تقريبا إلا من سروال قصير، فهرول إلى غرفة نومه يلتمس بعض الملابس كى يهرب من كل هذا الرعب حين تلقى ضربة عنيفة على مؤخرة رأسه أظلمت الدنيا بعدها تماما !

***

أفاق (سامح) على إثر انسكاب زجاجة ماء بارد فوق رأسه.. أفاق بصداع عنيف نابع من مؤخرة رأسه وفتح عينيه بصعوبة.. كان يشعر بالألم يغزو جسده بالكامل والرؤية مشوشة للغاية..

حرك عينيه يتلمس شيئا من الإدراك.. برؤية مضببة رأى أمامه شخصا مسربلا بعباءة قديمة جالس على المقعد المقابل وجواره فتاة واقفة تبدو مألوفة بشكل ما.. لو فقط ظهرت ملامحها قليلا، ومالبث أن اتسعت عيناه فى ذعر وصرخ :

- مستحيل !

جاءت صرخته مبحوحة واهنة تحمل ألم قلب مرتجف يوشك على..

الموت..

ويوقن من ذلك !

جاء صوتها باردا وهى تسكب على صدره شىء من قارورة صغيرة.. مجرد نقاط جعلته يشعر بألم رهيب كاد أن يصرخ لكنها وضعت كفها على فمه تمنع صرخته وهى تنظر لعينيه مباشرة وتهمس :

- قتلتم زوجى..

هز رأسه نافيا فى عنف وحاول التحرك ليكتشف أنه موثق فى الفراش بقوة.. حاول الهمهمة فرفعت يدها عن فمه ليقول بصوت متوسل :

- ليس أنا أقسم بالله، إنه (شاكوش) اللعين بأمر من (شوكت) بيه و..



نظرت (هناء) جواره على الأرض لتلتقط ملبسا داخليا ملوثا يخص إحدى ساقطاته وتدسه فى فمه دسا لتكتم صرخاته وتكمل كأنما لم تسمعه :

- وقتلتم أولادى..

وبدأت تسكب قطرات من الحمض على جسده لتتصاعد أبخرة ذوبان جلده مع تشنج جسده وصراخه المريع المكتوم.. انتظرت قليلا حتى يشعر بكل قطرة ويصله التأثير كاملا ثم أردفت بصوت هامس :

- وقتلتمونى..

اتسعت عيناه فى خوف متزايد وهى تفرغ ما بقى من الزجاجة على فخذيه وركبتيه وساقيه وسط تشنجه المتألم وبكائه وهمهماته المتواصلة المتوسلة..

اعتدلت بهدوء لتقول فى برود :

- العين بالعين.. والسن بالسن.. أنت الذين بدأتم بالظلم.. انتزعتم قلبى وأخذتموه.. وحقى..

أكملت الكلام وهى تخرج سكينا قصيرا يبدو حادا للغاية :

- سآخذه..

أخذ يصرخ صراخا مذعورا مكتوما وهى تمد يدها لتشق جلد صدره وهو ينظر فى ذعر.. يتشنج ويحاول الإفلات من القيود لكنها تحيط به بإحكام.. تواصل شق الصدرمع أنينه المستمر لتكشف عظام صدره ..تقف للحظة باحثة بعينيها عن القلب.. إنه خلف القفص الصدرى يافتاة، هكذا تعلمتِ قديما فى المدرسة، ولذلك مدت يدها لتلك الغضاريف التى تربط الضلوع ببعضها لتشق عظام صدره..

أى ألم !

تمد يدها داخل صدره وتنظر إلى عينيه الجاحظتين وخوار الموت ينبعث منه..

تبحث عن قلبه حتى تقبض عليه..

تجذبه للخارج أمام عينيه وتمد السكين لتفصله، بينما يكتم أنفاسه للحظات ثم تخرج منه الزفرة الأخيرة ويهمد جسده للأبد..

اعتدلت ونظرت لذلك الجالس وراءها وهى ترفع القلب الذى مازال ينقبض وينبسط مرتجفا.. لاح على محياه شبه ابتسامة وهو ينهض من مكانه ويمسك بيدها ليذوبا ويتبخرا تماما من هذا المكان!

***

كان (شوكت) جالسا فى مكتبه يشعر بنيران تلتهم قلبه.. وفاة ابنه أثرت عليه بعنف، فعلى الرغم من أنه أصلا رجل بلا قلب إلا أنه لم يحب أحدا فى حياته كما أحب ابنه.. ربما لم يحب أحدا أصلا سوى ابنه هذا.. كل ما يفعله فى حياته كان له وحده، وكل ما يملكه سيئول له فحسب، والآن هو قد مات !

كل شىء ذهب هباء !

فقدت حياته هدفها ..



كان قد علم بشكل ما أن شحنة الآثار الفرعونية التى حصلوا عليها لها علاقة بموته فقرر أن يحتفظ بها ريثما يفهم أكثر وفى خاطره نبتت فكرة مجنونة أن.. ربما يمكنه إعادة ابنه للحياة كما مات ؟ هؤلاء الفراعة لديهم الكثير من العلم فربما لو حاول فحسب مع شخص ممن يفهمون فى هذه الأمور .

كان مجنونا كما قلت وليس لديه عقل متزن وطوال حياته يؤمن بالخرافات ويجرى خلفها ؛ لذلك قرر أن تكون الشحنة كاملة بحوزته إلى أن يفهم ؛ لكن (محمود) سرقه..

المخزن عبارة عن ممر طويل تحت فيلته وتسبقه ثلاثة أبواب حديدية متعاقبة بمفاتيح وأرقام سرية لا يعلمها غيره و(محمود) فقط.. كان يثق به لأنه له الفضل فى تضخم ثروته هذا التضخم الرهيب عندما عرض عليه التحالف قديما.. (محمود) يبغى القوة والحماية من الدولة، وشوكت يبغى المال.. اتفاق رائع، وفكرة المخزن ومكانه يعودان ل (محمود) ؛ لذلك من الطبيعى أن يملك مفاتيحه وأرقامه السرية ..



لكن (شوكت) عاد من الخارج يوما ليجد المخزن فارغا والبواب الأحمق يخبره أن (محمود) بيه جاء مع رجال أجانب وأفرغوا المخزن تماما وترك له عدة حقائب وضعها فى غرفة المكتب ويخبره أن ضعفهم قادم بعد أسبوع !

أخذ يصرخ ويصرخ غاضبا وهو يهرول بجسده الضخم تجاه المخزن ليجده نظيفا تماما ! صعد للغرفة ليجد مالا كثيرا للغاية فى عدة حقائب، لكنه لم يكن يهتم به على الإطلاق..

هو يريد ابنه.. يريد الشحنة التى ستعيد له ابنه فحسب ولا يريد شيئا آخرا، لكن أين ذهب (محمود) ذلك اللص الغبى أصلا ؟

هكذا لم يكن أمامه سوى زوج ابنته الاحمق.. أرسل إليه من يهدده ويتوعده ليخبره بمكان الشحنة لكن الفتى لم يتكلم قط، أو كل ما قاله أنه لا يعرف شيئا.. كيف لا يعرف وهو الذى قام بجرد المخزن ؟



هكذا لم يكن أمامه أى حل غير خطف الفتى وأسرته واستجوابهم كى يفصحوا عن مكان الشحنة أو مكان (محمود).. ولكنهم لم يفصحوا عن شىء !

بالأحرى لم يكن الفتى يعرف شيئا عن الشحنة؛ لذلك قرر أن يحرق قلب (محمود) على ابنته وزوجها وأحفاده !

فقتلهم !

اغتصب ابنة شريكه وقتل زوجها وأولادها ودفنها معهم حية، العجيب أن هذا كله لم يرضه بالشكل الكامل ! مازال منتظرا (محمود) كى ينتقم منه بالشكل الذى يرضيه، وكى يحصل منه على الغنيمة ! أى أنه يريد منه أن يعطيه التماثيل وبعدها يقتله !

هكذا تراه جالسا فى مكتبه يفكر فى الكيفية التى يحقق بها مبتغاه، ربما يكشف اتصالاته ليعرف من الأحمق الذى اشترى منه الشحنة القاتلة.. الأكيد أن المشترى واحد لأنه جمع الشحنة كلها دفعة واحدة،



كان ذلك حين سمع طرقة على الباب كما لو أن هناك من رمى عليه كرة صغيرة أو قطعة طين ! رفع عقيرته يصيح متسائلا عمن بالخارج ليجيبه الصمت !

ربما هو وهم فحسب ؟ !

انشغل بما يفعله عن تلك الطريقة الوحيدة.. حجمه الضخم جعل من الصعب أن يتحرك ليتفقد سبب الطرقة، ولذلك يظل الحل الأسهل أن يظل مكانه ويتناسى.. لو كان هناك شىء سيفهمه لاحقا..

بعد ساعة تقريبا ومع بزوغ النهار نهض من مكانه يتمطى.. يعد نفسه بحمام سريع دافىء قبل أن ينام.. كان قد توصل إلى معلومة تقريبية تفيد بأن الشارى هو الخواجة (خوليو) الإيطالى.. سيتحقق من ذلك غدا لأن الإرهاق بلغ منه مبلغه.. هكذا نهض من مكانه وسار حتى فتح الباب لينعقد حاجباه فى فضول غاضب..

كان أمام بابه قلب بشرى جاف، وعلى الباب نفسه آثار دماء توحى أنه حين ألقى عليه كان طازجا..



قلب من هذا ؟

على الفور صرخ بأعلى صوته واستدعى أمن الفيلا وكل من فيها حتى الطباخة التى نهضت مذعورة من سباتها يسألهم فى صرامة عن هذا القلب.. لا أحد يعرف !

أمر الطاهية أن تضعه فى المجمد لحين فهم ما يدور.. اتسعت عينا المسكينة فى ذعر لكنه لم يهتم، فقط ألقى أوامره هذه فى غطرسة ليستكمل خطته التى وضعها منذ قليل :

أن يأخذ حماما وينام !

***

ياله من رجل مجنون وشخصية بغيضة !

***

عند استيقاظه أتاه خبر مقتل (سامح) ! نقل له أحد رجاله كيف مات وكيف استخرجوا قلبه من جسده

وكيف تعذب قبيل موته وآثار الحروق عليه.. الحق أنه لم يهتم بذلك، وإنما فقط أشاح بيده آمرا من ينقل له الخبر أن ينصرف ويتابع الأخبار والتحقيقات عن كثب وأشعل سيجارا وجلس يفكر :

- هل هذه الفعلة من ألاعيب الفراعنة هى الأخرى أم مجرد حادثة انتقامية لشىء فعله ذلك الغبى (سامح) ؟

ولكن لو شىء انتقامى، فكيف ولماذا ظهر قلبه عنده ؟ وكيف دخل من دخل وخرج دون انتباه الأمن.. بل كيف عبر الأسوار دخولا وخروجا ؟! هناك خيوط كثيرة مفقودة هنا !

رفع سماعة هاتفه وبغطرسة شديدة تحدث مع أحد ضباط الشرطة القريبين منه وأخبره بما حدث، وطلب منه أن يوافيه بالتفاصيل كاملة، ثم عاد يسترخى ويفكر :

أين أنت يا(محمود) الآن ياترى ؟



***

(محمود) كان فى مأزق مخيف للغاية..

(محمود) عندما اتفق مع الخواجة (خوليو) على شراء الذهب طلب مبلغا زهيدا نوعا نظير الشحنة كاملة ،وهو ما أثار شك الخواجة.. كان رجلا ثريا بكل ماتحمله الكلمة من معان ؛ وكان يمتلك سفينة صغيرة قوية خاصة به فحسب ..

طبعا المكالمة الأولى للقاء الأول من مصر.. وعندما سافر إليه محمود عرض عليه عرضا رائعا.. سيعود لمصر على متن سفينته الصغيرة مع خمسة من رجاله المخلصين ممن يفهمون فى الآثار نوعا.. سيتفقدون الذهب ويحملونه مع (محمود) وزوجته ويتركون جزءا من المال ل(شوكت)، ثم عند العودة ينقده باقى ماله كاملا ..

اتفاق عادل..



بالفعل انطلقت المركب القوية وخلال يومين كانت قد عبرت البحر المتوسط من إيطاليا رسوا على منطقة بعيدة عن أعين الفضوليين والشرطة، وتركوا فيها رجلين للحراسة وزوجة محمود ،ومضى الثلاثة الباقين مع (محمود) لإحضار الذهب.. (محمود) استعد تليفونيا بسيارة نقل كبيرة نقلتهم من شاطىء البحر المتوسط لقلب القاهرة.. لحسن حظ (محمود) لم يكن (شوكت) موجودا.. هكذا دلف للمخزن الذى أبهر الرجال.. هذه آثار ذهبية لا مثيل لها وربما لا تقدر بمال أيضا !

وعلى الفور – وبمساعدة رجال (شوكت) الذين اعتادوا طاعة (محمود) - حملوا الشحنة وانطلقوا عائدين للسفينة الراسية بانتظاهم متخذين مسارات لا توجد فيها قوات شرطة فى العادة ..

وسرعان ما كانت السفينة تمخر عباب الماء عائدة إلى إيطاليا حاملة كنوزنا الملعونة ولكن..



دعنا نتفق أن مئات التماثيل الذهبية الصغيرة بالتأكيد ستمثل إغراءا قويا لأى شخص فى الوجود، فما بالك بلص ؟ ولذلك فقد اجتمع اللصوص الخمسة ليلا فى سرية ليتفقوا على أن (خوليو) بالتأكيد لن يدرك اختفاء عشرة تماثيل من هذه.. (محمود) قال أنها مائة وخمسين.. سيقسمون أنهم وجدوا مائة وأربعين فحسب !

التمثال الواحد من الممكن أن يدر عليهم مالا ضخما يكفيهم سنينا طويلة وربما حتى آخر العمر دون عمل.. لكل فرد تمثالان فحسب يأخذهما ويخفيهما ويتصرف فيهما بعد الوصول لإيطاليا..

وقد كان..

هل يمكنك أن تتوقع ماحدث ؟

فى منتصف الليل ارتجت السفينة على صوت صراخ مدوٍ من حجرة أحد الرجال.. صراخ رهيب ينم عن ألمٍ غير محتمل دام لثوان فحسب.. وبسرعة شديدة



انطلق إليه أحد البحارة القريبين منه ليجد منظرا بشعا.. هل تعرف منظر (الفوطة) المبللة التى اعتصرتها يد قاسية لإخراج ما بها من ماء ؟

حسنا.. كان المشهد شبيها بذلك !

ارتفعت عقيرة البحار ينادى زملاءه مذعورا حين وجد ظلا يخرج من الجدار جواره و..

ارتفعت صرخته المتألمة فى هلع شديد هو الآخر قبل أن يصمت للأبد !

كان البحاران لآخران ينامان فى قمرة قريبة، على حين يقف بالأعلى بحار وحيد يتابع اتجاهات السفينة.. نهض الاثنان من نومهما فى فزع واندفعا ليجدا زميليهما معصورين وأعضاءهما مسحوقة وعيناهما تنم عن ألم رهيب.. الأقرب للباب مازالت أطرافه ترتجف وعيناه تنمان عن بقايا حياة تنسحب منه الآن !



والقاتل بالتأكيد مازال هنا ومن الواضح أنه يتمتع بقوى خارقة لا قبل لأحد بها !

مع هذا الإدراك الرهيب تناهى لأذن الجميع صرخات البحار الوحيد فى الأعلى متزامنا مع ظهور (محمود) وزوجته لاهثين متسعى العينين.. زوجته مع رؤية أول بوادر الدماء أطلقت صرخات ذعر عاتية، فاحتضنها زوجها واضعا يده على عينيها، فى حين انطلق الاثنان الباقيان إلى قمرة القيادة ليجدا زميلهما الثالث ممزق الأطراف بوحشية بالغة.. يداه وقدماه ملقيتان بعيدا بينما تحمل عيناه ذعرا وألما لا يوصفان قبل أن تخبو منهما الحياة تماما هو الآخر !

وقفا يلهثان فى ذعر وهما يشيران للدماء المتناثرة فى كل مكان ثم يشيران للأسفل فى غضب ويقولان كلاما كثيرا بالإيطالية التى لا أفقه منها حرفا.. نستنتج منه مثلا :

- (محمود).. والشحنة.. لابد أنهما السبب، ولابد من التخلص منه ومن الشحنة بسرعة !



وفى وحشية لامنطقية نابعة من الخوف من الموت هبط البحاران لا يبغيان إلا هدفا واحدا فحسب..

قتل الزوجين وإلقاء الشحنة فى الماء..

***

واحد..

اثنان..

ثلاثة..

أربعة..

خمسة..

ترمق (هناء) زوجها الذى يؤدى أمامها تمارين الضغط متباهيا كطفل صغير بما كونه من عضلات صدر وليدة، ثم تنهض فجأة لتقفز فوق ظهره وتنادى أولادها بمرح ليتكالبوا فوق الشاب على الأرض وهى تقول :



- ارفعنا أيها القوى هيا..

ومن خلفها يصيح الأطفال أن : هيا هيا يا أبى هيا ارفعنا..

يستنفر قواه ليحاول رفع نفسه عن الأرض مرة واحدة أخيرة لكن يديه ترتجفان ويسقط ممدا على الأرض وفوقه زوجته وأطفاله يضحكون؛ فيقول بصوت مختنق :

- انهضوا أيها ال ..

يستجيب الطفلان فورا وينطلقان يعدوان ضاحكين إلى حجرتيهما فى حين تظل (هناء) مكانها متصنعة الغضب وتقول :

- ال.. ماذا ؟ انطق وكن شجاعا !

ضحك (وليد) ومد يديه بصعوبة يلتقط قدمها الدقيقة يقبلها ثم ينقلب على ظهره ويعتدل جالسا ويحتضنها لتصير فى حضنه تماما وهو يهمس :



- ال.. حياتى.. وال..حبيبتى.. وال..آآآآآآ

تضحك فى دلال وهى تمنحه قبلة خفيفة وتهمس :

- آآآآآآآآآآ ؟

- لا تكفى الكلمات كما تعلمين.. الحب أفعال حبيبتى لا أقوال ..

قرن قوله بدفعة من طرف قدميه للباب القريب و..

أفاقت (هناء) من شرودها فى منزلها وهى تئن وتبكى..

نظرة نحو ركن من أركان المنزل ضربت قلبها فى مقتل مع الذكريات المتدافعة..

هؤلاء الكلاب الأوغاد.. لماذا قتلوهم ! لماذا..

مسحت دموعها ثم التفتت نحو ذلك الغريب عفن الرائحة الجالس فى الخارج يلتهم طعاما ما فى هدوء !



هى لا تدرى من هو ولا ما هو من الأساس، لكن آخر ما يمكن أن تتخيله فى حياتها على الإطلاق هو أنه طلب منها أى طعام يأكله ! لم يكن لديها فى الثلاجة سوى بعض الأرز القديم والبسلة التى شارفت على الفساد فتقبلهما شاكرا ومضى يأكل فى بطء شديد وصمت.. أتراه صوت نحيب ينبعث منه هو الآخر أم ماذا ؟

انتظرت حتى أنهى طعامه وتنهدت فى عمق.. الشمس شارفت على المغيب وهو كما قال لن يتحرك إلا فى الظلام والظلام قادم.. نهضت من مكانها ووقفت أمامه بجسد هزيل وطلبت منه الانطلاق لوجهتهما التالية..

(زينهم) !

العجيبة أنه كان يعرف أماكن الذين ترغب فى قتلهم أو كيفية الوصول إليهم.. لم تسأله عن الكيفية فلن تكون هذه أغرب نقطة تتعامل معه فى هذه الفترة !

أومأ برأسه موافقا وأمسك بيدها و..

اختفيا !



***

زينهم :

سمع (زينهم) عن مقتل (سامح) بالأمس وتعجب للغاية.. سامح وغد محب للنساء، فهل لإحدى بغاياه يد فى موته ؟

لم يهتم كثيرا فى الواقع فهو لم يكن يحبه.. ما أهمه الآن تلك الاجازة غير معلومة المدة التى أعطاها لهم السيد (شوكت)، لذلك حاول قضاء أكبر وقت ممكن مع أطفاله ووزوجته وإخوته.. فى الواقع هو يعيش فى منزل أسرى كبير ويسهل جدا حشد الأقارب فى مكان واحد وهو ما فعله.. ولكن ما سر تلك الارتجافة فى قلبه ؟

يشعر شعورا سيئا للغاية أن هناك مصيبة على وشك الحدوث !

(زينهم) يعيش فى منطقة شعبية، وكان مثالا للتناقض فى كل شىء؛ إذ أنه يعمل فى تجارة المخدرات



واستخراج وبيع الآثار وتهديد الأبرياء أحيانا وإحضار الإتاوات، ومع ذلك فهو لا يترك فرضا غالبا فى المسجد ولا يشرب خمرا أو يقرب النساء لأن هذا حرام !

ومن هذا الأساس هو لم يشارك فى تعذيب أو قتل عائلة (هناء) لكنه كان يقف مشاهدا فحسب دون أدنى تدخل.. العجيبة أنه لم يستنكر حتى ما يحدث لأن هذا مجرد عمل !

شخص عجيب..

وماذا لو قلت لك أيضا أنه أب حنون للغاية ! وشخص محبوب فى عائلته لأقصى درجة و يحب الإنفاق على أسرته ببذخ.. كما أن له هدفا خفيا من تجميع عائلته حوله وقت الأزمات ؛ فهؤلاء يمثلون حماية لا بأس بها على الإطلاق، ومن هنا جاءت صعوبة المهمة الثانية التى أمام (هناء)..

كانت فى مكان ما فى سقف الحجرة ترمقه وهو يتحرك.. لا تفهم كيف لا يراها أحد، ولا تفهم ما كل



هذه الاشكال الغامضة المخيفة التى تتحرك حولها.. كانت تنفذ النصيحة بإبقاء عينيها مغلقتين فحسب والانتظار ..

لا بد من لحظة يختلى بها الإنسان بنفسه.. فى الحمام مثلا، بعد العودة من مشوار طويل مرهق، عندما يقف تحت المياه المنهمرة ليجد من خلفه يدا قذرة تكتم أنفاسه كى لا يصرخ، ومن لا مكان تظهر أمامه (هناء) بنظراتها القاسية الراغبة فى الانتقام..

هى تلك اللحظة ..

تنهمر من عينيه دموع الذعر وهو يحاول الإفلات من اليد القذرة إلا أن (هناء) عالجته بطعنة من سكين صغير فى رئته جعلته يفقد القدرة على الصراخ بصوت عال، أعقبها أن تركه ذلك الواقف خلفه ليتهاوى على الأرض ينز الدم من أنفه وفمه ويصرخ بصوت ضعيف يطلب النجدة، لكن الماء حجب استغاثته..



رفع عينيه إلى الواقفة أمامه وهو يسأل بصوت مرتجف لا يكاد يكون مسموعا :

- ماذا.. تريدين ؟

وسرعان ما تعرف عليها فاتسعت عيناه ذعرا وانتفض جسده.. ربما لو رأى ملك الموت بنفسه لم يكن التأثير ليختلف كثيرا !.. بصوت متحشرج قال :

- أنا.. أنا لم.. أشارك.. ك.. كنت وا.. هاااه.. واقفا فحسب و..

سعل فتناثرت الدماء حوله وأردف :

- الرحمة.. ع.. عندى أ.. أطفال و..

قاطعته ببرود :

- وأنا أيضا كان عندى طفلان.. اتذكرهما ؟

قرنت كلامها بحركة سريعة تحت ذقنه شقت بها حلقه لتمنعه من الكلام نهائيا وهى تردف :



- سألتنى ماذا أريد ؛ أريد زوجى وأبنائى..

أريد حياتى..

أريد أن أعيش مرة أخرى..

أريد حقى..

هل يمكنك إعطائى إياهم ؟

ثم مدت يدها بالسكين تجاه صدره تحت الماء المنهمر يغسل الدماء أولا بأول لتبتلعها البالوعة وهى تكمل :

- أريد قلبك عوضا عن قلبى..

اتسعت عيناه فى ألم مذعور وخوف مشوب بألم.. لم يستطع حتى الصراخ ليلحقه من بالخارج..

الألم..

الرعب يكسو قسمات وجهه..



تشنجات جسده مع صوت تنفسه الخارج من قصبته الهوائية المشقوقة..

قلبه الذى يرتجف بين أصابعها ودموعها تغرق وجنتيها ..

ثم..

الموت .

***

طاخ..

رفع (شوكت) نظره للباب وعقد حاجبيه فى تساؤل، ثم هب من مكانه بصعوبة يهرول مسرعا كى يفتح الباب ليجد قلبا يرتجف ارتجافاته الأخيرة ومعها يضخ آخر دفقات دماء داخله ..

رفع (شوكت) عقيرته فى غضب وهو يصرخ صراخا بلا معنى.. استدعى كل من بالفيلا وأمرهم بتفتيشها ركنا ركنا..



وبعد فترة بدا واضحا جليا أن المكان خاوٍ إلا ممن يقيمون هنا بالفعل ..

اضطر للانتظار حتى الصباح كى يفهم أن (زينهم) قد مات عندما اتصل به أحد الضباط الذين يوصلون له الأخبار..

وجده أولاده مشقوق الحلق والصدر وبلا قلب داخل حوض الاستحمام.. لم تكن هنا دماء كثيرة بسبب انهمار الماء عليه وهو ماجعل الجروح واضحة مؤلمة للنظر، والعجيب أن المنزل مكتظ بعائلته ولم يدخل أو يخرج أحد من المنزل..

ما الذى يحدث إذن ؟

ما الذى يحدث ؟

***



الفصل السادس

ماهذا الجنون !

(راؤول) يرغب فى الانتقام من (محمد الفاتح) ..

و(هناء) ترغب فى الانتقام من كتيبة رجال !

وهناك شيطان فرعونى يريد الانتقام ممن يحوز شيئا من مقبرته ..

أيضا هناك لصان يبغيان الانتقام من (محمود) وزوجته ..

بالمناسبة ف(شوكت) أيضا يريد الانتقام من (محمود) وزوجته !

وربما يقودهم جميعا شيطان يبغى الانتقام من الجنس البشرى كله !

ألا يوجد فى قلوب هؤلاء مكان للحب ؟



منذ حصوله على الخاتم وكل شىء تغير..

صار لديه القدرة على التنقل بين عالمى البشر والشياطين، وعندما يصير معهم يصير منهم تقريبا فينتقل بسرعة خارقة أو حتى يوسوس للناس !

شيطان بشرى !

لم يفهم جيدا كيف يتم الأمر لكنه لم يهتم بالبحث عن الأسباب، فقط انطلق بقوة نحو قصر (السلطان محمد) ليحقق انتقامه.. يحلم أن يطعنه فى قلبه، ولكن على مشارف حجرته لم يستطع الدخول !

والسبب ببساطة أنه لا يرى الحجرة من الأصل ! هو يعرف أنها هنا ويسمع أصواتا لكنه يرى الفراغ، وفراغ عجيب لا يمكن اختراقه !

هناك حجرة بالتأكيد وحوائط.. هو لا يراها وكأنما.. كأنما هو فى قلب صندوق الساحر أو.. لا أعرف !

هو لا يراها لكنه يشعر بها.. فقط !



أخذ يلف حولها ويتلمس ويتشمم ويبحث.. يدور فى لهفة عن باب أو شباك أو غيره، لكنه كمن يتحسس مكعبا خفيا عملاقا بلا ثقوب !

والجدير بالذكر أن القصر كان مليئا بمثل هذه الحجرات العجيبة.. وملىء بالبشر الذين يسمع صوتهم ولا يراهم ! فإذا عاد لصورته البشرية رأى كل شىء واضحا !

على أن أعجب شىء هو الآذان.. يؤلمه ! وكثيرا ما كان يضطر للهرب مع سماع صوت الأذان أو الصلوات المقامة.. هذه كانت ككهرباء تسرى فى جسد مبلل بالماء مسببة ألما أسطوريا لا يمكنه تحمله.. ومع اليأس اشتعل الغضب والجنون يضطرمان فى صدره وطفق يضاعف محاولاته لكنه لا يجد (محمدا الفاتح) هذا.. لا يراه..

يراه فقط عندما يتجسد بعيدا عن الجيش لكنه لا يراه عن قرب ولا يستطيع الوصول إليه، ولسبب لا يفهمه أيضا لا يمكنه الاقتراب منه ومن بعض الناس.. هناك



بشر مضيئون بنور أبيض حارق لا يمكن تجاوزه يراهم فى حالته الشيطانية فحسب ! بمعنى أنه حتى لو فكر أن يتجسد أمامه ويقتله فلن يحدث ذلك ايضا !

هنا..

انهار..

أخذته نوبة غضب وبكاء عنيفين فى قلب غابة من الغابات وهو يتذكر..

زوجته الحنون وهى تقترب من حاملة الفطائر الشهية وتضحك كما تضحك الملائكة..

ابنته الكبرى وهى تعدو نحوه وتهمس فى أذنه (أحبك يا أبى)..

ابنته الصغرى وهى تتعلق بقدمه وتضحك فى مرح بينما يحاول هو السير مبتعدا..



حتى (بيتر) الصغير الذى كان يستجيب لكل مطالبه مبتسما..

صرخ مرة أخرى وهو ينتزع الأعشاب من الأرض ويلقيها بعيدا ويشعر بالنيران تلتهم جوفه والدموع تتساقط بغزارة من عينه الوحيدة.. ظل هكذا بعض الوقت إلى أن خطرت له فكرة قد تساعده على الانتقام..

قد..

فبعد كل الجنون الذى مر به لن يفتقد طريقة يصل بها لمبتغاه.. لا ضير إذن من جنون إضافى صغير !

***

دعنى أخبرك شيئا هاما.. أقوى نار فى الدنيا نار القلب.. قد تتسامح فى حقك مرارا وتكرارا بابتسامة واسعة، لكن إذا قرر وغد ما أن يمس أحد افراد عائلتك بسوء ؛ وقتها فقط يظهر الإنسان المتوحش القابع

بداخلك فى انتظار فرصته المناسبة، فما بالك برجل قتلت عائلته بالكامل وهو لا يملك سواهم فى حياته ؟

نحن هنا لا نتحدث عن مشروعية الحرب أو قدسيتها أو مكانتها الدينية أو السياسية، إنما نتحدث عن رجل فقد أسرته دون ذنب جنوه أو حتى دون أن يكون له ناقة ولا جمل فى هذه الحرب.. كان يعيش سعيدا فى مدينة قوية مع أسرة لا يستطيع تخيل أجمل منها، ثم يهجم عليه جيش آخر يبغون مدينته.. يريدون داره ويريدون زوجته ويريدون أرضه.. يريدون موته !

وياليتهم قتلوه.. إنما قتلوا أحبته ..

قتلوا من عاشوا فى قلبه ؛ لذلك صار قلبه فارغا بعدما ماتوا ..

لا يفهم لماذا.. ولا يعرف سببا مقنعا.. ولا يرغب سوى فى الحياة على الهامش مع أسرته..

هذا ما حدث له، و هو ليس مطالبا بتفهم دوافع الجيش القادم..



ماتوا أحباؤه.. ويرغب فى الانتقام !

***

لحكمة أرادها الله تعالى لا تستطيع جحافل الشياطين الاقتراب من أى مكان مقدس على الإطلاق مع اختلاف الملل.. هكذا تراهم يحومون فقط حول المساجد والكنائس ومعابد اليهود - لو استطعت رؤيتهم - ثم يهربون مع انطلاق أول بادرة للصلاة سواء أذان أو جرس أو غير ذلك.. وهذا ما كان يثير جنون (راؤول) ..

هو يريد أن يصل إلى (السلطان محمد) لكنه وجيشه لا ينفكون عن الصلاة والتعبد طوال الوقت ! وبالتالى لا يستطيع الاقتراب منهم، وكما قلنا منذ قليل هو لا يراهم أصلا ماداموا فى صلواتهم !

كان يحاول ويحاول ومايلبث أن ينزوى جالسا يبكى فى قهر وغيظ.. يضاف إلى مشاعره السلبية شعور قاس بالضعف والإحباط والألم والخسارة، كان ذلك حين وسوست له نفسه أن.. هناك



طرق أخرى للانتقام مبدئيا إلى أن يستطيع الوصول ل(محمد).. من يحاربه هذه الايام ؟

وجد الإجابة تنبعث من جوار أذنه.. كان (محمد الفاتح) يعد العدة لدخول إقليم (والاشيا)، والتى يمكث فيها القاتل الأشهر فى التاريخ..

(فلاد) القادم من والاشيا..

صاحب رمز التنين (دراجول)..

الشيطانى (دراكيولا) !

التفت سريعا ليرى بقايا غبار أسود ينم عن وجود شيطانى منذ ثوان يلقنه ويوسوس له ! لم يهتم لذلك كثيرا إنما ألقى نظرة على القصر الكبير فى الأفق، وسرعان ما خلف غبارا مماثلا وهو ينطلق إلى أرض الدم..

والاشيا !

***



ما أن تدلف لقصر (فلاد) فى تلك الآونة حتى تجد أنفك تقلصت وأمعاءك تحركت من رائحة الدماء، يعطيك إحساسا عاما بوجودك فى مجزر عملاق، غير أنها ليست دماءا حيوانية كما تعلم..

لقد وصل إليه (راؤول)..

لم يصل إليه كبشرى بالطبع وإنما وصل إليه الشيطان (راؤول)، وبحث عن (فلاد) سريعا إلى أن وجده جالسا فى البهو يفكر ..

الاتراك يتحركون.. الأتراك قادمون.. هو الذى أعلن الحرب عليهم ورفض الانصياع لأوامرهم من قبل، مع أن الإقليم كان يرضخ بالفعل تحت حكم الأتراك، ومع أنه هو شخصيا نشأ فى قصر (السلطان محمد) مع أخيه.. ومع أن أخاه قد أسلم وانضم لجيوش (السلطان محمد)، إلا أن بذرة التوحش والتمرد كانت تنمو داخله يوما بعد يوم.. هكذا تراه يستقل بالإقليم ويعلن التمرد والعصيان ورفض الأوامر رغم ما رآه من إمكانيات جبارة فى فتح القسطنطينية!



قطعا كان هذا جنونا واضحا.. حركة هوجائية لا معنى لها على الإطلاق، كى أقرب لك الصورة تخيل أن منطقة العتبة مثلا أعلنت عصيان الولايات المتحدة الأمريكية، بل وأعلنت الحرب عليها بكل من تحويهم من الباعة المتجولين !

أى منطق سوى الجنون !

وهذا الرأس المجنون تربة خصبة رائعة لبث أفعال مروعة لا يمكن صدورها وتنفيذها إلا من قلب مكلوم لعقل فقد اتزانه ..

وحقيقة، فقد وسوس إليه بأفعال مروعة.. مثلا أنه يلتهم إفطاره أمام رؤوس العثمانيين المبتورة ! أو أن يشرب كئوسا من دمائهم ممزوجة بالخمر ويجبر المقربين على الشرب من هذا المزيج اللعين ! وهناك بتر الأطراف بالسكين وتعليق الأجساد لتنز ما بها دماء..



كمثال على جنونه أن :عندما جاءه وفد (محمد الفاتح) للتناقش لم يخلعوا العمم فى حضرته، لذلك أمر بدق العمم بالمسامير فى رءوسهم !، هل تدرك الآن الشخصية السايكوباثية اللعينة التى لجأ إليها (راؤول) ؟

على أن أفضل ما أججه فى ذهنه فكرة القتل بالوتد العملاق (الخازوق).. أن يدخل عامودا خشبيا طوله ثلاثة أمتار من دبر الضحية ثم يرفعونه جالسا على الوتد ويثبتونه قائما فى الأرض وهو جالس عليه.. وتحت تأثير ثقل الضحية والجاذبية الارضية يخترق العامود أحشاءه رويدا رويدا وينزلق الجسد ببطء لأسفل حتى يخرج العامود من فمه أو من أحد كتفيه، وعلى ذلك قد تظل الضحية أياما تقاسى العذاب الشنيع.. من قرأوا سيرة (سليمان الحلبى) يعرفون هذه الطريقة، إلا أن (سليمان) بالطبع لم يستغرق وقتا.. كان بعض الضحايا يقضون أياما يتوسلون من أجل شربة ماء نتيجة العطش غير المحتمل الناتج عن فقد الدماء.. يتوسلون لمن أمامهم أن يقتلوهم كى



يتخلصوا من عذابهم، وهو ما كان يدخل السرور على قلب (فلاد) ويضحكه إلى حد القهقهة !

ذهب إليه (راؤول) يؤجج فى ذهنه فكرة الانتقام من الأتراك وقتل كل من يمت للخلافة العثمانية بأى صلة.. كان يعلم أن ذلك يؤلم (محمدا).. يعرف أن ذلك يثير غيظه وغضبه وربما يبث بعض الخوف فى أعماقه.. فى الواقع بذل (راؤول) جهدا جبارا عندما أجج فكرة توحش (فلاد).. وعندما اقنعه بشرب الدماء علنا وجعل الناس يعرفون أنهم ليسوا أمام بشرى عادى..

بث فيهم الخوف..

زرع فى قلوبهم الرعب..

وسوس إليهم بالفزع، خاصة عندما جعله ينقلب على أهل بلاده أنفسهم وينفذ فيهم أحكاما مروعة.. اشتكوا إليه يوما كثرة الفقراء، فأوحى إليه (راؤول) أن يدعو خضم الفقراء لوليمة ثم قتلهم فى حركة أشبه بمذبحة القلعة التى قام بها (محمد على)، لكن مع ألوف من



فقراء بلاده وبلا ذنب ! وهكذا صاح فى ظفر أن بلاده صارت بلا فقراء !

بالرعب والدم يصير كل شىء سهلا..

الرعب وحده يهزم الجيوش بلا سيف..

عندما تواجه جيشا بيد مرتجفة من الخوف فلا أمل لك فى صد ضربات سيوف أطفال هذا الجيش حتى !

(السلطان محمد) قرر أن الوقت قد حان لإيقاف هذا السفاح عما يفعله.. إنه كالسوس ينخر فى أسنان الدولة العثمانية.. ربما هو ضعيف وليس خطرا للغاية، لكنه مؤلم مزعج ؛ لذلك قرر أن يسير إليه على رأس جيش كبير بنفسه، وهو فى الطريق الآن..

هذه حرب خاسرة لا محالة لو دخلها (فلاد)، لكن (راؤول) ألقى فى نفس (فلاد) فكرة رهيبة مجنونة لا تأتى إلا من قلب رجل ملأ الجحيم قلبه..

أن..



يصنع عشرين ألف وتد من غابة الأشجار المحيطة به.. أنت تعرف أن رومانيا كثيفة الاشجار ولا مشكلة فى ذلك، ثم يحضر كل الأسرى العثمانيين لديه - العشرين ألف أسير عثمانى كلهم الذين ملئوا سجون والاشيا – ويثبتهم فى الأرض على الخوازيق !

أن يصنع غابة من المخوزقين !

وهكذا فعل !

فيما بعد سمع الأخبار فى بهو القصر جوار (فلاد)، أن (السلطان محمد) كان يقترب بنفسه من المكان متقدما جيشه الكبير، حين تناهى لأذنيه وآذان الجيش آلاف التأوهات المختلطة بالأنين والصراخ.. ومالبث أن ظهر لعينيه المنظر الكابوسى البشع !

غابة من المخوزقين !

عشرة آلاف وتد على يمين الطريق ومثلهم على يساره !

ارتجف جسد (محمد) فزعا واشمئزازا وتعالت من خلفه صيحات الرعب مع الكثير من (لا إله إلا اللّٰه) و(لاحول ولا قوة إلا باللّٰه) و (إنا للّٰه وإنا إليه راجعون)..

أدرك (محمد) بخبرته العميقة أن الرعب ضرب قلب الجيش فردا فردا، وأنه لو تقدم خطوة فهو خاسر لا محالة.. توقف مكانه، ثم رفع قبضته عاليا و..

أشار للجيش أن يعود ..

انسحب وغصة كبيرة تملأ حلقه..

انسحب (السلطان محمد)..

انسحب من إقليم والاشيا فاتح القسطنطينية !

لا تستهن أبدا بقوة الرعب يا صديقى ..

***

وماذا عن (هناء) ؟



اختارت (هناء) أن يكون التالى هو (شاكوش).. القاتل الذى قتل عائلتها بالكامل، ولتترك القادة للنهاية..

علمت من (راؤول) مكانه..

لحظة !

(راؤول) بنفسه هو من يقود انتقام (هناء) ؟

نعم.. ظننت أن الأمور واضحة لدرجة كافية عند هذه المرحلة، إنه (راؤول) بنفسه وشحمه ولحمه.. علاماته كانت واضحة للغاية يا رفيق خاصة عينه العوراء ..

لكن ليس ذلك الذى ظهر فى القبر ؟

اترك كل شىء لوقته الآن وتابع معى الأحداث ربما فهمنا شيئا من كل هذا الجنون !

كما كنا نقول، (راؤول) اصطحبها لمكان (شاكوش) فى بداية الليل ووقفا فى مكان خفى يرونه فى الشارع من حيث لا يراهم..



واااااااااااه على وجع القلب !

ااااااااااااه عندما ترى قاتل أولادك يضحك ويأكل ويشرب ويتحرك بجسد ملأت الحياة جنباته !

اغرورقت عيناها بدموع القهر والغضب والألم وهى تتلصص عليه من وراء الجدار.. ضاق صدرها حرجا ولم تستطع أن تكتم آهات قلبها وهى تنطلق مع دموع نابعة من صدر ذاق الألم الخام كما خلقه الله، ورغما عنها تتابعت أمام عينيها الذكريات القريبة ..

منظر جسد ابنها مفصول الرأس ..

زوجها مفقوء العين محطم الوجه ..

الآهات ..

أحرقت جوفها بنيران تمنت أن تلتهمها وتموت لينتهى كل عذابها، ورغما عنها أخذت تنشج دون أى رد فعل من ذلك الواقف جوارها..



لحظات مرت قبل أن ترفع عينين محمرتين إليه وهمست :

- خذنى إلى منزله..

***

شاكوش :

كان (شاكوش) هذا يعمل سمكريا فى الأساس وله ورشة عملاقة فى هذه المنطقة، وكل الناس يعرفونه ويعرفون أنه رجل بلا قلب، خاصة عندما يجدونه فى المشاجرات يتعامل بعنف بالغ ولا يتورع عن ضرب الغريم بأقرب شىء معدنى ثقيل أو يدخل لإحضار شاكوشه الأثير مسببا حالة من الهرج العام والذعر، خاصة عندما يقترن كل ذلك بأبخرة المخدرات التى دوما ما تطوف فى خلايا مخه ؛ لذلك لم يكن حوله سوى بضع أوغاد فحسب على الرغم من أن ورشته تلقى رواجا بين الناس..

فى تلك الليلة أنهى عمله وصعد لمنزله يصفر فى هدوء وهو يمنى نفسه بليلة قوية.. طعام شهى يملأ بطنه ثم يتناول امرأته حتى الصباح !

دلف للشقة ولفت نظره السكون والظلام المخيمان على الشقة.. مد يده لزر الإضاءة وهو يغلق بقدمه الباب، ثم رفع عقيرته بالنداء على امرأته..

أجابه صمت مطبق أو.. هل هذه همهمة ؟

بالفعل.. همهمة خفيفة من ناحية غرفة النوم.. هل نامت تلك الحمقاء وتحلم ولم تصنع الطعام ؟ إنه لا يشم رائحة طعام !

احمرت عيناه غضبا، بينما ظل وجهه على جموده الطفولى.. هذا رجل لاتظهر مشاعره على وجهه على الإطلاق !

سار بخطوات بطيئة وهو يتسمع الهمهمات نحو غرفة النوم وفتح بابها فى غضب هادر ليجد زوجته وابنته



مقيدتين على مقعدين تبكيان، وجوارهما فتاة ورجل مسربل بالسواد !

على الفور - وفى رد فعل حيوانى - التفت خلفه كى يحضر أى سلاح قريب حين هوت ضربة هائلة من المسربل بالسواد الذى صار عنده فى لحظة ! مادت به الأرض فقط ؛ مما أثار دهشة الواقف لأن الضربة كانت عاتية بالفعل ولربما شجت رأسا آخرا، فهوى عليه مرة أخرى، وثانية، وثالثة حتى سقط أخيرا ! أبخرة المخدر جعلت من الصعب أن يفقد الوعى بسهولة ..

وسرعان ما استيقظ ليجد نفسه مقيدا جوار زوجته وابنته.. وأمامه تلك المرأة ! هو يعرفها لكنه فقط لا يتذكر متى رآها، ثم زحف الجليد على قلبه عندما سمعها تتكلم بالكاد مع صوتها المهزوز بالبكاء :

- أيها الوغد.. أنت قتلت زوجى وأبنائى بالمنشار ورميتنى معهم فى القبر.. لو بيدى لقطعتك وقطعت عائلتك أمامك لتتعذب لكنى أعرف مَن مثلك.. أمثالك بلا قلب ولا يهمهم غير أنفسهم، لذلك..



أخذت نفسا عميقا ثم أكملت :

- رحمة بزوجتك وابنتك أنا خدرتهم، لكنى لن أخدرك.. سأطلب منك أن..

إذا أردت أن تحيا فعليك أن تقتلهما..

السكين جوار يدك، وإلى أن تتخذ القرار..

أخذت نفسا آخرا ثم أكملت :

- سأعذبك إلى أن تموت..

اتسعت عيناه فى فزع وحاول الصراخ ليفاجأ بالكمامة على فمه وهو يتابعها بعينيه تتحرك إلى ما خلف ظهره بعيدا عن متناول يديه و..

شعر بالألم الحارق الرهيب يخترق ظهره كأقوى ما يكون !

حاول التلوى والفرار لكنه كان مقيدا بإحكام.. حتى ذراعاه مقيدان بشكل لا يسمح له بحرية الحركة



تماما.. وتجدد الألم العنيف الحارق مرة أخرى..

وأخرى وأخرى..

وانتقل الألم فجأة إلى قدمه اليسرى مع صوت ارتطام عنيف..

كانت تقطع إصبعه بالساطور !

وكل حركة منها تصحبها صرختها المكتومة أو أنينها المعذب وبكاؤها المستمر.. جسدها يتشنج من فرط البكاء، وسوائل عينيها وأنفها يغرقان وجهها فتمسحهما من حين لآخر قبل أن تستكمل ماتفعله، ومن بين أسنانها همست فى غل مهزوز النبرات :

- أسوأ ما فى الدنيا أنى سأقتلك مرة واحدة فقط.. لو كان الأمر بيدى لقتلك ألف مرة بألف طريقة..

أنا أموت كل يوم ألف مرة أيها اللعين ..



وقرنت قولها بضربات هستيرية متلاحقة بطرف السكين على ظهره..

هو كان حيوانا شهوانيا لا يهتم غير بنفسه فحسب، لذلك لم تمر لحظات حتى تناول السكين جواره ورفعه كى يغمده فى قلب زوجته الغافية حين أوقفتها يد (هناء) المهتزة ودموعها تغرق وجهها وهى تهتف بنبرة مهتزة من فرط البكاء :

- حقيييييييييير !

هى كانت مصممة بالفعل أن يقتل أسرته بيده، لكنها لم تستطع.. ربما اوقفتها نظرة من الفتاة التى اختلجت للحظة وهى فاقدة الحس على مقعدها، وربما أن أعصابها لم تعد تتحمل أكثر، لذلك قررت إنهاء ماتفعله كالمعتاد.. فليكفى هذا القدر..

كانت تقف خلفه بحيث لا يستطيع الوصول لها على الإطلاق، لذلك شقت جلد ظهره المتشنج من الألم، ثم شقت قفصه الصدرى من الخلف ومدت يدها تقطع



الرئة بالسكين ثم تجذب القلب المرتجف وتفصله عن الجسد بضربة واحدة حاسمة.

***

طاخ !

***

لقد مات (شاكوش)..

لايدرى.. وثبت الفكرة إلى ذهنه فحسب، وربما عقله اللا واعى يدرك شيئا لا يدركه عقله الواعى و..

لا يهم..

المهم أن هكذا فكر (شوكت) وهو يسمع الضربة القوية - على باب حجرة نومه هذه المرة -، فتقلب فى فراشه بانزعاج.. فكر للحظة أن ينهض، ثم قرر أن يستكمل نومه وغدا يأمرهم بوضع القلب جوار أخوته !

***



و(محمود) ؟

(محمود) الآن على ظهر مركب ينطلق بسرعة كبيرة نحو إيطاليا وكل شىء ضده تماما.. القاتلان يهرعان نحوه وزوجته ولا ينويان إلا الشر.. طبعا لم يكن ذلك فى حسبانه على الإطلاق إلا حين ظهر أمامه الرجلان وفى عينيهما نظرة الضباع التى تشتهى الدم..

فى عينيهما نظرة الدم !

كانا يتقدمان نحوه وزوجته شاهرين شيئين لا يتبينهما.. ربما سكينتين أو ساطورين !

ظهورهما يشبه ظهور ملك الموت حين تدرك أن لا مهرب.. كمن يقتادونه للذبح أو يجعلونه يسير إلى المقصلة..

لا مهرب ..

لا مفر ! المهم أن يكون الموت سريعا فى تلك الأوقات لو أردت رأيى..



تجمد مكانه على حين انتفضت زوجته صارخة وعيناها معلقتان على السلاحين.. على الفور جذبها فى صدره يغمى عينيها وأغمض عينيه هو الآخر حين باغتته صرخة قاتل منهما يصرخ فى ألم مذعور ككلب هرست قدمه سيارة ضخمة وتناثر شىء ما على وجهه..

فتح عينيه بخوف ليجد أحدهما ممزقا نصفين على الأرض يتلوى ويئن بوهن بينما تدور عينا الثانى من الرعب وهو متجمد فى وضع ثابت.. الأكثر إثارة للرعب أن الممزَق هذا مازال حيا يئن ويحاول الزحف والتشبث بأى شىء بينما تتدلى أمعاؤه خلفه.. زميله فقد السيطرة على سوائل فمه فراح يهذى برعب ويشير للملقى على الأرض بالإيطالية ويتلفت حول نفسه، ثم اتخذ قرارا مختلفا عما كان ينتويه وانطلق يعدو نحو السطح ثم نحو حاجز السفينة، وبلا تردد قفز قفزة عظيمة وهو يصرخ إلى قلب الماء الأسود مباشرة.. بدا منظره رائعا بالفعل وهو يطير فى الهواء ثم تبدأ الجاذبية عملها ليهوى نحو الماء مباشرة، حين



التقطه شيء ما في الهواء وأعاده بقوة رهيبة إلى سطح السفينة كطفل يلقى لعبة على الأرض.. ارتطم ظهره بالسطح في قوة وتفجرت الدماء من مؤخرة رأسه ومع ذلك لم يفقد الوعي ! ظل يتمتم بتوسلات إيطالية عندما..

حسنا.. نعود لمثال الفوطة المعصورة من جديد لأني لا أعرف كيف أصف إنسانا يتم عصره حول نفسه، ولا كيف أصف صوت عظام صدره التي تتحطم أو صوت غرغرته المخنوقة أو عيناه اللتان تنسحب منهما الحياة ببطء ويخبو بريقهما مع نظرات الهلع والموت الجاثم بقسوة على ظهر المركب !

وبعدها هدأ كل شيء..

المركب مازالت في طريقها تمخر عباب البحر، بينما يسير (محمود) وزوجته نحو السطح والقمرة يرتجفان ويحدقان في الجثث التي تملأ المركب !

***



الفصل السابع

أحبك..

أحب ابتسامتك..

أحب مشيتك ..

أحب نظرتك لى..

ابتعدت رغما عنى ، لكنى سأبحث عنك ..

يوما ما لن أكون هنا.. يوما ما سأغادر هذا العالم ..

وقتها سأبحث عنك.. بين النجوم سأبحث عنك ..

فى صمت الكون..

فى ضوء الشموس البعيدة ..

فى الزهور السماوية ..

بين أنوار الملائكة ..

سأبحث عنك ..

وسأجدك ..

أحبك !

عاد جيش (محمد الفاتح) من حيث جاء بعد أن هزمه الخوف..

انتصار ضئيل ل(فلاد) ومن خلفه (راؤول) ، ومع ذلك ظل (راؤول) حائرا غاضبا..

مازال هدفه بعيدا عن يديه..

مازال (السلطان محمد) حيا ويعد العدة لدخول المزيد من البلاد!

لم يثأر لزوجته وبناته..

مازالت النار تضطرم فى قلبه ..



ومازال لا يستطيع الوصول إلى (محمد) ولا يستطيع حتى رؤيته إلا من بعيد..

فكر أن يتجسد أمامه ويغمد سيفا فى رقبته ولكن كيف وهو لا يستطيع تحديد مكانه من الأساس !

مع شعوره العارم باليأس ترك والاشيا ، وترك غواية (فلاد) لأنه ضعيف أحمق سينهزم لا محالة ، كما أنه لن يقدم له أكثر مما قدم بالفعل ، وانطلق بلا هدف وسط الغابات يفكر..

ظل يسير وحيدا إلى أن وصل لبقعة شاسعة بلا أشجار.. مجرد أعشاب نامية فحسب.. تمدد على ظهره وأرسل عينيه للسماء يتأمل النجوم.. آلاف النجوم البراقة فى السماء تتابع الأرض فى شغف.. خيل إليه أنها تتجمع لتكون وجه زوجته..

حبيبته ..

- أتعلم أن الأرواح الصالحة تصعد للأعلى لتصير نجوما لامعة؟

- حقا ؟ وماذا أيضا ؟

- أنت لا تصدقنى.. الأرواح الصالحة تصعد للملكوت بين النجوم وقد تصبح نجوما لامعة ، و أيضا قد تظل بين الملائكة ترقص على أنغام الكون وعلى صوت تراتيل الملائكة الجميل ..

- مممممم.. فكرة مثيرة للاهتمام.. وهل تعتقدين أنى لو مت سأصير ملاكا ؟

- بل ستصير فأرا ! لقد أنهيت شطائر الجبن كلها ايها الوغد !

قالتها ولكزته فى صدره فضحكا حتى دمعت عيناهما ..

مسح دموع عينيه وهو ينظر للكون من الأعلى ويهمس :

- يوما ما سأبحث عنك هناك..

وعندما اجدك لن أتركك..



أحبك ..

***

ولماذا لا يفكر فى حل مجنون ؟

فكر فى ذلك عندما رأى شخصا يخر صريعا على الأرض وجواره امرأة تصرخ فى رعب أن عليهم استدعاء القس على الفور.. عيناه تنقلبان وجسده ينثنى من أثر لهو الشياطين به ..

هناك حل..

انزوى بعض الوقت يتابع تقدمات وانتصارات (السلطان محمد) واحدا تلو الآخر فى حسرة وغيظ بانتظار اللحظة المناسبة..

ومتى تأتى اللحظة المناسبة ؟!

كل لحظة تمر عليه يزداد قلبه سوادا وحقدا وتزداد الهلاوس حوله.. ما يستطيع فعله فقط هو إغواء بعض الناس لمزيد من الوحشية لكن هذا كل شىء..



بالنسبة ل(فلاد) الوالاشى فقد مات بعد حرب قاسية ومطاردات سريعة عبر البلاد حتى ظفر الجنود العثمانيون به.. حبسوه بعض الوقت ثم قطعوا رأسه لينهوا شروره وجنونه للأبد ! على حين ازداد عقد انتصارات (السلطان محمد) حتى أنه وصل لليونان وما حولها .

النار تأكل قلب (راؤول) أكلا وانعكس ذلك على ملامحه ، فتغيرت عينه لتصير حمراء كالدم ، ولربما لو رأى نفسه هكذا منذ عدة سنوات لانطلق يعدو فى فزع من منظره المخيف..

ثم..

حانت فرصة..

هناك شخص اسمه (ماسترو لاكوب).. هو طبيب ماهر ذاعت شهرته فى ذلك الوقت.. عرف (راؤول) أن السلطان أبدى اهتمامه به وبعث من يحببه فى الإسلام منذ فترة سرا.. كان أصلا من مدينة البندقية الإيطالية



ويعيش فى اسطنبول ، ولكن السلطان لا يمكنه استخدام طبيب غير مسلم.. لا يمكنه إدخال القصر مَن ليس مسلما من صفوف الأوروبيين لأنه لا يأمن الخيانة رغم كل شىء !

تابع معى ماحدث..

***

دخل (لاكوب) منزله ليلا بعد أن أشهر إسلامه منذ قليل.. كان يمنى نفسه بالكثير من وراء إسلام ظاهرى ، يكفى جدا أنه سيكون جوار الملك.. أن تعيش جوار ذلك الفاتح العظيم وفى قصره أفضل بكثير قطعا من العمل فى أى مكان آخر حتى ولو وصلت شهرته للآفاق..

خلع ملابسه بالكامل لأن الجو كان حارا ، وسكب على نفسه دلوا من الماء يبرد به جسده الحار ، ثم تمدد على فراشه يطلب النوم بعد يوم شاق ملىء بالأحداث السارة..



بعد ثوان تعالى صوت شخيره ، ومعه التمعت عينان مضيئتان فى قلب الظلام المحيط.. وببطء خرج من قلب الظلام (راؤول) متجسدا يحدق فى المسجى أمامه للحظات.. ثم خلع ملابسه حتى صار عاريا هو الآخر ، وببطء تمدد جواره وبدأ يلتصق به.. اقشعر جسد الطبيب بشدة وانتفض عندما شعر بمن خلفه ، لكن (راؤول) احتضنه بقوة بالغة وكتم فم الطبيب المذعور ، وببطء بدأ شىء مذهل يحدث ..

الجسدان يلتحمان بشكل لا يمكن تصديقه ! بينما تنم ملامح وجهيهما معا عن ألم لا يمكن احتماله..

إنسان من أبناء آدم حول نفسه إلى شيطان مريد ويتلبس إنسانا آخرا !

الطبيب يتلوى من الألم..

حاول أن ينتفض أو يصرخ ليخرج من حلقه وحلق (راؤول) صوتا مخيفا للغاية.. جسد (راؤول) يذوب ببطء فى جسد الطبيب حتى لم يتبق منه إلا رأسه



وقدم وساق.. أغمض الطبيب عينيه بقوة ويأس محاولا أن يطلق صرخة استنجاد أخيرة لكنها لم تنطلق أبدا.. ظل جسده يتشنج ويتلوى ويحرك رأسه بعنف رافض للاستحواذ القائم وهو يئن ويصرخ صراخا مكتوما بفم مغلق..

الفراش يهتز ويئن هو الآخر تحت وطأة التشنجات العنيفة التى تحدث فوقه ثم انهار على الأرض محدثا دويا عنيفا بالجسد العارى الواحد فوقه والذى صار يطلق خوارا كخوار الثور ، ثم لم يلبث أن هدأ وهمد تماما على الفراش ..

لا صوت الآن سوى صوت تنفس ضعيف ينبعث من صدر الطبيب..

وفجأة ..

فتح عينيه وابتسم ببطء ابتسامة لا تكاد ترى !

نجح الاستحواذ !



***

فى قصر السلطان المظفر فاتح القسطنطينية كان (السلطان محمد) يرتب أموره لغزو جديد فى صمت وسرية.. لا أحد يعرف وجهته على التحديد لكن الشائعات تتناثر أنه متجه لإيطاليا هذه المرة ، ولكنه كان يشعر بالتعب.. طبيبه الحاذق يسقيه الدواء كل يوم منذ أسبوع كامل ومع ذلك فصحته تتدهور يوما بعد يوم ، وحالته تتأخر يوما بعد يوم مع أن عمره صغير نسبيا على هذا المرض ومازال فى أوج قوته !

إن ما يحدث غريب لكنه يثق فى طبيبه هذا.. يكفى أنه قد أشهر إسلامه بلا أى شروط ، وتكفى سيرته وشهرته التى بلغت الآفاق ..

كان يفكر فى هذا الكلام حين طرق الباب ودلف إليه الطبيب بابتسامة شاحبة.. كان صامتا كما هى العادة ناظرا للأرض ووضع أمامه كوب الدواء فى احترام وانحنى نصف انحناءة ثم عاد أدراجه لحجرته لحين الحاجة إليه..



أمسك (السلطان محمد) الكوب ونظر له مليا كأنما يشعر بشىء ما غير سليم.. ارتجفت عيناه حينا ثم حسم قراره وسمى الله وتجرعه على مهل ثلاث مرات..

بعدها لم يشعر أنه فى حال جيدة ، لذلك ترك مكانه واتجه للفراش وأراح رأسه على الوسادة ، لكنه لم يرتح كما هو المفروض..

الألم يزيد والتنفس صار عسيرا..

الخدر يسرى فى جسده وعضلاته تصدر آلاما اسطورية ، ورغما عنه صرخ بألم ينادى على من بالخارج كى يغيثوه.. وما أن دلف الحراس حتى وجدوه ممددا يحتضر وبريق الحياة يخبو فى عينيه وصدره يطلق زفراته الأخيرة !

أصاب الحارس الذعر خاصة مع الرغاوى الكثيفة التى خرجت من فم السلطان.. علامات التسمم المعروفة التى يدركها أى طفل.. نقل عينيه بين كوب الدواء



وجسد السلطان الذى شارفت روحه على الخروج أو كادت ثم انطلقت صرخاته تزلزل جنبات القصر وهو يعدو خارجا من حجرته تاركا بقية الحراس يدلفون لحجرة الفاتح العظيم تنهمر دموعهم خوفا وجزعا على من حاز بشرى رسول اللّٰه :

- لقد ماااااااات السلطاااااااان ..

السلطان (محمد) الفاتح مااااااااااااات ..

خاننا الطبيييييب.. قتله الطبيييييييييب ..

وسرعان ما التهبت النفوس.. الحراس أدركوا الحقيقة على الفور.. فى الواقع داخلهم شك أن الطبيب يفعل شيئا خاطئا ما مع التعب المتزايد الذى يبدو واضحا على الطبيب ، لكنهم الآن تأكدوا أنه قتل السلطان..

السلطان مات مسموما ولا شك ..

ساد الهرج وانطلق بعض الحراس شاهرى السيوف يبحثون عن الخائن فى الطرقات ذهابا إلى حجرته..

والخائن كان فى حجرته ينظر أمام المرآة يحاول التخلص من الجسد الذى تلبسه..

لو رأيت المنظر المريع لما صدقت نفسك..

الطبيب يقف أمام المرآة يحاول الخروج ، فيظهر رأسان جوار بعضهما للحظات ثم ترتد الرأس لتصيرا رأسا واحدة..

صدر يخرج من صدره ويرتد..

يصرخ صوت الطبيب من داخله أن أغثنى وأنقذنى.. أنت قتلت السلطان ، فيرد (راؤول) بالصمت المطلق.. جسد الطبيب يتشبث به بقوة ولا يريده أن يغادره.. يحاول (راؤول) مرة أخيرة الخروج من هذا الجسد بقوة حين امتدت يد عبر المرآة بغتة لتدخل جسد الطبيب وجذبت (راؤول) العارى منه بعنف.. شهق الطبيب شهقة عالية كأنما روحه هو التى خرجت ، واتسعت عيناه فى ارتياع وهو يحاول التقاط أنفاس هاربة ناظرا للمرآة فى هلع وهو يرى العارى الذى



تلبسه جوار شخص شديد الوسامة يرتدى ملابسا سوداء يبتسمان فى سخرية.. يحاول التحدث فى وهن ، لكن الباب تحطم فى عنف ليدلف بعض جنود السلطان شاهرين أسلحتهم الحامية.. يرفع يديه وبقوة متهالكة يحاول الصياح أنه ليس.. لكن السيوف تناوشته ذات اليمين واليسار وسط صرخاته المتألمة وأطرافه تتناثر جواره.. وخلال دقيقتين صار جثة ممزقة تتطلع بعينين خاويتين للمرآة التى خرج إليها (راؤول)..

لقد حقق انتقامه..

قتل (السلطان محمد)..

قتل من قتل أحبابه..

***

رحم الله السلطان محمد الفاتح ورزقه مابشر به رسول الله فاتح القسطنطينية.. طبعا الأحداث هنا تدور من وجهة نظر (راؤول) فحسب ، لكن عليك أن تطلع



وتبحث عن سيرته لتدرك أى رجل عظيم كان هذا الرجل.. رحمه الله وألحقنا به على خير . (فى نهاية الكتاب ملحق خاص عنه أرجو منك الطلاع عليه جيدا.. أعرف أنى نوهت لذلك من قبل لكن لا ضير من تذكيرك من وقت لآخر)

***

(محمود) مازال على سطح المركب..

بعد مرور عدة ساعات لم يحدث شىء جديد.. مازالت متجهة نحو وجهة غامضة الآن لأنه محمود لا يفهم شيئا فى الملاحة ، حاول (محمود) أن يفهم كيف يوجه السفينة لكن عبثا فتركها كما هى.. حاول أن يستخدم أجهزة الاتصال بلاجدوى..

مازالت المركب ممتلئة بالأشلاء والجثث ، كما أن هناك مقبرة كاملة لفرعون غاضب يقبع بالأسفل ولا يدرى (محمود) وزوجته ماذا سيفعل ولا كيف سيتصرف معهما.. لا يدرى لماذا تركهما على قيد الحياة أصلا !



كانت زوجته فى حالة انهيار عصبى كامل ، حاول تهدئتها لكن من الواضح أنها دخلت فى صدمة ما لأنها جالسة تهذى وعيناها ثابتتان لا تتفاعلان معه على الإطلاق ومن ركن فمها سال خيط لعاب ينم عن فقدانها الإدراك أيضا.. احترقت دوائر عقلها فصارت جسدا بلا عقل !

سيتصرف معها فيما بعد لو عاشا.. انصرف تفكيره لابنته وزوجها.. حمدا لله أنهما سالمين فى مصر !

قرر أن يظل فى الكابينة مع زوجته ويتابعان البحر من أمامهما ربما ظهرت سفينة أو جزيرة أو أى شىء ينجيهما من تلك المركب الملعونة، و فعلا ظلا هناك بانتظار شروق الشمس حين شعر بحركة من خلفه جمدت الدم فى عروقه وهو يتوقع أسوأ ما يمكن أن يحدث.. انتصبت شعيرات جسده بالكامل وهو ينظر للخلف متوقعا شيئا كابوسيا لا يحدث إلا فى الأفلام الرديئة ، وصدمته صرخات هيستيرية من زوجته وهى تهتز من فرط الرعب وقد عاد إليها الإدراك نوعا لتتلقى هذه الصدمة المروعة ..

الجثة العصورة تتحرك !

تتلوى..

تحاول النهوض فتفشل..

تتحرك مرة أخرى زاحفة على الأرض باتجاه باب الكابينة..

توقف تنفس (محمود) من فرط الرعب والانهيار وهو يرى الجثة تتحرك على الرغم من العينين الميتتين اللتين تشبهان عينا خروف مذبوح!

سرعان ما اختفت الجثة عبر الباب تاركة بركة دماء متجلط مكان موت الرجل.. والأكثر إثارة للرعب أن هناك أصوات زحف متناثرة فى المركب توحى أن الجثث الأخرى تتحرك هى الأخرى !

أن تكون فى مركب وحدك قرب الفجر مع خمس جثث وشيطان سفاك للدماء وزوجة فقدت عقلها فصارت كنبات صارخ !



المهم أن (محمود) قرر شيئا عجيبا للغاية.. هو لم يكن شجاعا قط فى حياته وبالتأكيد لم يكتسب شجاعة مفاجئة الآن ، لكن ربما لأنه شبه موقن بالهلاك الآن قرر أن يتبع الجثة يرى ماذا يحدث بالضبط !

لو أراد ذلك الذى يقتل من فى المركب أن يقتلهما لكان قتلهما بالفعل ، لكنه تركهما لسبب ما..

نظر لزوجته لكنها أغلقت عينيها ومالت على جانبها فى وضع الجنين تئن وترتجف..

حسنا.. كما قلنا لقد احترق عقلها وذاب من فرط الرعب فصارت كائنا غير واعٍ ولا مدرك لما يدور حوله.. تركها مكانها وبقلب مرتجف خرج يتبع آثار الجثث ، لمح إحداها تتحرك بصعوبة لتدلف مكان الغرف السفلية !

رفع وجهه واستنشق نفسا عميقا من هواء البحر وزفره فى حرارة ثم بدأ يتحرك ليرى..

ليفهم..



وياليته لم يفعل !

***

- تعالى يا حبيبتى..

همس بها (وليد) برفق وهو يجذب (هناء) إليه بهدوء على أنغام موسيقى تحبها.. هى لاتفهم فى أسماء المطربين الغربيين ولا تفهم ما يقولون لكنها تعشق هذه الموسيقى بما تحويه من كلمات تمس روحها.. التقط يدها وقبلها إصبعا إصبعا على تلك الإضاءة الهادئة الخافتة للغاية ، واحتضنها برفق يرقص معها بهدوء ، ثم رفع يدها قبالة يده وسألها هامسا :

- تحبيننى ؟

رفعت حاجب العناد الأيسر وهى تهز كتفيها بدلال وتهمس :

- تؤ.. ولماذا احبك ؟



ضحك وهو يمد يده فى جيبه ويخرج شوكولاتة تحبها ويقول :

- ربما لأنى أحضرت لك هذه ؟

تهمس فى أذنه مقربة شفتيها منها للغاية :

- لم يكن الحب بالشكوكولاتة قط أيها الأحمق..

يقشعر جسده وتشعر هى بذلك ، فيخرج من جيبه الآخر قلادة ذهبية صغيرة فى علبة مخملية اللون.. كانت رقيقة للغاية بالفعل.. أخرجها من علبتها ثم لفها حول عنقها العطر وهمس :

- أو ربما لأنى أحضرت لك هذه ؟

نظرت لها بانبهار.. يالها من رقيقة رائعة تحوى فى نهايتها ماسة دقيقة شديدة الجمال.. شهقت ونظرت لعينيه مباشرة وهمست :

- مجنون..



- أحبك..

قرن قوله بقبلة حارت ذابت فيها شفتاها من حرارة فمه و..

استيقظت !

للأسف استيقظت من نومها الخفيف وحلمها.. أفاقت من ذكرياتها على نهنهتها وبكائها ويدها ممسكة بالقلادة حول عنقها.. ظلت مكانها تبكى وتنشج بصوت مسموع..

مدت يدها تتحسس مكان نوم زوجها الراحل ويرتفع بكاؤها أكثر فأكثر.. فى وقت قصير اختفى أبوها وأمها ومات زوجها وأولادها .اختفت عائلة وأسرة وحل محلهما صمت كئيب ووحدة قاسية قاتلة تجثم على الأنفاس بلا هوادة وبلا رحمة على الإطلاق..

نهضت متكسرة العظام تشعر بعطش قاتل وصداع يكاد يفتك برأسها وكأن آلاف المطارق تطرق جدران عقلها بلا رحمة.. لابد أنه بسبب كثرة البكاء والتفكير



والحزن ، كما أنها لم تتناول شيئا منذ فترة طويلة.. تشعر بالضعف الشديد وجسدها كلها يرتجف كمن يوشك على فقدان الوعى.. نهضت من رقدتها وتوجهت صوب المطبخ ترمق ذلك الكيان الأسود العجيب الممدد فى صمت على الأريكة بالخارج.. لم تستمر كثيرا فى النظر إليه فهى تكرهه بشكل ما.. أى نعم هو ساعدها على الخروج من القبر ولكن مع ذلك كانت تتمنى لو تركها وشأنها لتموت وتتخلص من كل هذا العذاب.. ميتة بشعة بلا شك ولكنها حتما ليست أبشع من حياتها البائسة التى تحياها الآن !

فتحت الثلاجة تبحث عن شىء يصلح للأكل ، فلم تجد إلا بعض الخضر الفاسد وبضع بيضات.. حسنا.. لم تكن تملك البال الرائق لصنع أى شىء ، هكذا تراها تضع البيض فى مقلاة ثم تتناوله من المقلاة مباشرة وهى ساخنة.. بعدها صنعت كوبا من الشاى الثقيل وعادت به لحجرتها عندما همس بها ذلك الجالس :

- ألا يوجد طعام لى ؟



الحق لقد نست ، ولثانى مرة تشعر بالدهشة من كونه كائنا حيا يتناول الطعام ! وكم كانت دهشتها من لهجته المنكسرة وهو يطلب الطعام بلهجة شبه ذليلة..

بلهجة من كان يبكى منذ قليل هو الآخر !

تسللت بعض الشفقة لقلبها تجاهه ، ثم أومأت برأسها إيجابا فى لطف حزين ..

عادت للمطبخ وصنعت له المثل وقدمته له فتناوله ولم يعترض ، إنما لأول مرة همس بصوت باكٍ :

- شكرا لك..

لم تصدق..

هل يخيل إليها أم أن صوته هو الآخر محمل بالبكاء ؟

هل هذه دموع تنساب من جهة عينه الوحيدة أم..

نظرت له فى انكسار بضع لحظات ثم اشاحت بوجهها بعيدا..



ليس لديها الوقت ولا البال الرائق لتهتم بأحزان الشيطان..

فلتفكر فيمن هو قادم..

الريس (متولى) بنفسه !

***

أنهى الريس (متولى) صلاة العشاء مهموما ثم أسند ظهره إلى عامود من أعمدة المسجد يفكر فى هم يملأ قسمات وجهه المتغضن.. أغمض عينيه ووضع أصابعه على جبهته وهو يفكر فيما يحدث دون إجابة واضحة فى عقله.. لا يفهم من يتبع الرجال ليقتلهم ولا يفهم هل له علاقة بذلك أم لا ، لكن هناك الشعور فى أعماقه ينبئه أن دوره قادم لا محالة.. شعور يقترب من اليقين المطلق !

الريس (متولى) لم يرَ قط فما يفعله حراما أو غيره.. هو يعتقد أن بحثه عن الآثار شىء شرعى للغاية مادام



لم يضر أحدا.. ولا شبهة سرقة هنا.. ألم يبحث عنها ويستخرجها بنفسه ؟

ثم أن استعماله القسوة مع عماله الخائنين ليس حراما أيضا حتى ولو أفضى بهم للموت ! هم قد خانوه أولا وعقوبة الخيانة قد تصل للموت وهم يعرفون ذلك ، فلا حرج إذن.. حتى ذبح الأطفال لا يعتقد أن له صلة به مادام قد أشاح ببصره بعيدا ولم يفعلها بيده !

لكن أن يتم تتبع عماله وقتلهم بهذه الطريقة البشعة ! ياليتهم لم يفتحوا تلك المقبرة المشئومة.. ياليت سلسلة القتل هذه تنتهى !

والمصيبة أنه موقن تمام اليقين أن القتل سيناله حتما وأقرب مما يتخيل؛ لذلك نهض من مكانه وصلى نافلة بقلب متضرع خاشع لله أن يزيل عنه البلاء ويرحمه من أجل أطفاله !

للحق كان قلبه خاشعا فى تلك الصلاة كما لم يخشع طوال حياته قط حتى أنه ظل فى سجدة واحدة ما



يقرب من عشر دقائق كاملة دعا فيها الله بفك الكرب والبلاء والهم كأقصى ما يكون ، حتى أنه بكى.. ربما لم يكن بكاؤه من خشية الله تماما لكنه بكى.. يخشى الموت ويدرك بشكل ما أن هناك مصيرا مظلما ينتظره فى الجانب الآخر إن مات !

أنهى صلاته وعاد يستند على العامود فى المسجد شبه الخالى.. فى تلك الأيام كانت المساجد لا تغلق أبوابها قط ، لذلك فضل أن يقضى ليلته هنا فى هدوء بعيدا عن صخب العالم.. وهذه كانت مشكلة لأن (هناء) ومن معها لا يستطيعان دخول المكان.. من معها لا يرى المسجد أصلا و(هناء) لو دخلت فسيتعرفها على الفور..

لا حل إلا استدراجه للخروج والعودة لمنزله ثم الانفراد به.. هو يملك عمارة كاملة ، والشقة السفلى منها مخصصة للاجتماعات والمقابلات كما تعلم ، لذلك ..

استدعت صبيا من صبيان الشارع وقالت له أن يدلف للمسجد ويخبر ذلك الجالس أن (محمود) بيه قد مر



عليه منذ قليل فأخبره أهل الريس (متولى) أنه يصلى فى المسجد ، وربما وجدوه هناك ، فترك له رسالة أنه سيمر عليه بعد نصف ساعة فى الشقة السفلى !

عندما سمع الريس (متولى) ذلك من الصبى انتفض فى مكانه.. لابد أن هناك مصيبة ليأتى له (محمود) بيه ويريده على انفراد !

هكذا نهض من جلسته وبخطى متثاقلة اتجه نحو الباب ليخرج نحو بيته.. لا يدرى أنه سيعود إلى المسجد بعد قليل فى خشبة مسجاة!

ما أن وصل لمنزله حتى دلف للشقة الفارغة أسفل منزله وجلس فى ترقب ينتظر.. خطر له أن يفتح التلفاز ففعل ، ثم جلس يتابع مايدور فى شرود حين..

خرجت له (هناء) من الحجرة الداخلية تنظر له بعينيها المحمرتين الباكيتين وتقول :

- وهنت عليك يا ريس (متولى) ؟

انتفض مكانه فى ارتياع وهو يحدق فيها ذاهلا ثم يهتف أن (بسم الله الرحمن الرحيم) ، لكنها تستطرد :

- وهان عليك أولادى ياريس متولى ؟ طاوعك قلبك أن تدع كلبك يفصل رؤوسهم عن أجسادهم ؟

اتسعت عيناه أكثر وأكثر وهو يرفع يده كأنما يبعدها عنه وهو يلهث قائلا :

- لم.. لم استطع.. أنا لا أستطيع.. يا ابنتى..

ابتسمت فى سخرية مريرة وهمست :

- ابنتك ؟ تدفن ابنتك حية يا ريس ؟ حقا قلبك رهيف الحس ! نسيتنى ..

ونسيت أياما كنت أجلس فيها على قدميك أداعب لحيتك.. نسيت ألعابا أحضرتها لى طفلة ..

ونسيت ألعابا أحضرتها لأطفالى وأنت تدع (شاكوشك) القذر ينهال عليهم ليقطع رءوسهم ويقتلهم..



أنسيت ابنتك حين تركتهم يدفنوننى حية ياريس ؟

ألم يكن فى قلبك رحمة ورصاصة فى مسدسك تنهى بها حياتى بدلا من العذاب ؟

اتسعت عيناه أكثر مع وتيرة صوتها المتصاعدة ومد يده يمسك قلبه بينما نبت عرق غزير على جبتهته ، فمدت يدها تنزع يده المرتجفة وهى تقول :

- لا.. أشعر بقلبك يرتجف منذرا بأزمة قلبية لن أسمح بها.. لن تموت إلا على يدى يا ريس (متولى)..

قرنت قولها أن أخرجت كيسا بلاستيكيا شفافا وضعته على رأسه وجذبته للخلف بقوة وهى تردف :

- يجب أن أشعر بموتك..

يجب أن يكون موتك.. يجب أن..

لم تستطع الإكمال مع ارتجافة يدها والبكاء المسيطر عليها بطريقة هستيرية حتى أنها لا تحكم القبض على



الكيس.. حاول الريس (متولى) المقاومة ومع تخاذلها انتزع نفسه من بين يديها ونهض من مكانه يخور محاولا الحفاظ على الحياة بداخله.. نزع الكيس وهو يعدو خارج الحجرة عندما أوقفه مرافق (هناء) بقوة وطرحه أرضا ..

رفع عينيه إليه ليجد شخصا أعورا ينظر له فى قسوة لا مبالية كما ينظر الجزار لذبيحته ، على حين استلت (هناء) سكينا صغيرا كان على منضدة قريبة وهمست :

- قيده..

اتسعت عينا الريس (متولى) أكثر وهو يرى حبلا يلتف على يديه وقدميه ويُشد على فمه ، بينما اقتربت منه (هناء) وانحنت نحوه بالسكين لتمزق ملابسه العلوية من على صدره.. يعوى الريس (متولى) ألما عندمت تغرس السكين فى طبقات الجلد السطحية تمهيدا لسلخ الجلد والوصول للقلب..

حسنا.. مرة أخرى لا داعى لوصف ماحدث منعا للملل..
لقد مات الريس (متولى) و..

***

طاخ ..

***

انتفض (شوكت) بيه على سماع صوت الارتطام.. كان جالسا يتناول الطعام فى مطبخه بهدوء حين سمع الارتطام جواره داخل الحوض المعدنى القريب مباشرة ، نهض من مكانه وألقى نظرة سريعا ليجده قلبا جديدا يرتجف ارتجافاته الأخيرة قبيل سكونه الأبدى..

نظر له للحظات متعجبا ورفع رأسه للسقف يبحث..
التفت حوله فى كل مكان يبحث.. لا أحد فى الغرفة ولا ثقب فى السقف ليسقط منه هذا القلب ! من أين جاء إذن !

هل نبت القلب من العدم أم ماذا ؟



مسح على وجهه فى غضب وخرج من المطبخ بعدما ألقى بقايا ما يأكله فى فمه (لا أفهم كيف واتته نفسه أن يلتهم المزيد من الطعام!) ونادى على من بالخارج.. هناك ثلاثة حراس أشداء أمرهم أن يفتشوا المنزل كله ولا يتركوا منه شبرا واحدا حتى يجد المتسلل ، أومأوا برءوسهم فى صمت ثم تحركوا بينما دلف هو لغرفة مكتبه فى ثورة وجلس على مقعده الوثير الضخم يفكر.. من الذى يفعل به تلك الأفاعيل ولأى سبب ؟ وقلب من هذا الذى ظهر من العدم ؟

الحق أن الخوف بدأ يضرب قلبه بقسوة وهو شبه متيقن أنه يواجه مالاقبل له به لكنه يتظاهر بالتمساك أمام نفسه.. هو رجل يخاف من الألم فقط ، ولو أن هذه تهديدات ما فلا يجب لمن يهدده أن يصل إليه بأى شكل من الأشكال..

يجب أن..

طاخ..



طاخ..

طاخ !

اتسعت عيناه فى ذعر مجنون وهو يحدق فى الباب.. ثلاث خبطات؟ هذه أقوى من تلك التى يسمعها عند ارتطام القلوب ، ولكن..

هو خائف..

لا يفهم وخوفه هذا جمده فى مكانه تماما وارتفع صوت أنفاسه الشبيهة بخوار الخنازير من فرط الخوف والترقب ولم يحرك ساكنا.. ظل متجمدا مكانه للحظات حين انفتح الباب بهدوء وتدحرج شىء ما تاركا خيطا رفيعا من الدماء وكأنما هناك من دفعه عن عمد ..

رأس أحد الحراس الثلاثة بجوار الرأسين الباقيين..

نهض من مكانه صارخا ، وامتزجت صرخت بصرخة انطلقت من جوار أذنه وارتطام عنيف برأسه أفقده

الوعى على الفور!

***

(راؤول) :

قتل (راؤول) محمدا الفاتح..

و.. فراغ !

انتهى هدفه فى حياته البائسة ولم يعد أمامه شىء يفعله على الإطلاق ، لذلك كان من الطبيعى أن يفكر الآن فى الموت لينهى حياته ويتخلص من آلام قلبه..

العجيب أن انتقامه من (محمد) لم يشف غليل قلبه ولا بَرَّدَ نار وجعه على الإطلاق.. ربما ارتاح نوعا لكنه لم يزل متألما حزينا يفتقد زوجته الحبيبة بشدة ويفتقد طفلتيه بجنون..

خرج من القصر بصحبة ذى السواد هائمين فى الهواء ليتركه على مشارف الغابات ويرحل.. يهمس فى ثنايا



عقله أنه قد أنقذه للمرة الثانية ويحسن به أن يطيعه فيما بعد ..

كان (راؤول) فى هيئته الشيطانية ، وسرعان ما غيرها ليجلس على الأعشاب ويتأمل.. وكأنما يعاد الزمن للخلف رأى فتاتيه تلهوان على العشب أمامه بمرح.. ترقصان كما يرقص النبلاء على صوت دقات يديه ودقات (بيتر) ، بينما تغنى زوجته بصوتها الجميل وبإيقاع متسارع..

(مكتوب على النجوم.. أنى أحبك للأبد ..

مكتوب على النجوم.. وجهى ووجهك للأبد ..

مكتوب على النجوم.. سيبقى قلبى للأبد ..

لايحتوى غيرك لأنه.. مكتوب على النجوم !)

- (أعرف أن الأغنية سخيفة لكن ياليتك تسمعها بلغتها الاصلية.. لن تفهم شيئا لكنك ستشعر كم هى رائعة !)



تذرف عيناه دمعتان حارتان ويطلق قلبه دفقة نيران حارة تترجمها تنهيدة بالغة القسوة..

هنا اتخذ قراره ونهض من مكمنه وانتقى غصن شجرة مدبب أخذ يكحت به الأرض ليصير أكثر حدة..

نظر للسماء وللقصر البعيد ، ونظر للمكان الذى تخيل فيه أطفاله وزوجته وهمس :

- أحبكم.. لعنة الله على الحرب وعلى الشيطان معا..

ورفع يده بالغصن المدبب وبأقصوى قوة يمتلكها غرسها فى قلبه مباشرة !

***

لم يحدث شىء !

انغرست العصا داخل قلبه بالكامل وكأنما غرسها فى قلب شخص آخر.. بل كانت سهلة للغاية ودخولها سلس وهو يضعها فى قلبه !



رفعها وغرسها فى عنقه بقوة وهيستريا لكنه ذات الشىء حدث ! بشكل عجيب هو يشعر بها وبوخزتها ودخولها جسده.. يشعر بالألم العنيف للطعنة لكنها لم تؤثر به على الإطلاق !

اتسعت عيناه وانعقد حاجباه فى غضب ، بينما تجسد جواره ذو السواد صامتا مبتسما يرمق الأفق البعيد وهو يمد يده بحلواه السوداء !

نظر إليها (راؤول) للحظات ثم سأل فى يأس محبط :

- لماذا لم أمت ؟

نظر له الجالس جواره بنفس الابتسامة الواثقة وهو يرفع يده بما تحمله نحو فم (راؤول) الذى التقطها ثم رماها فى إهمال لتسقط على الارض وتذوب تماما مخلفة بقعة سوداء لا تكاد ترى ملامحها.. تلاشت ابتسامة الجالس جواره ونهض فى غضب لاطما (راؤول) لطمة هائلة على وجهه نز منها الدم ، لكنه لم يبد أى رد فعل.. فقط عاد يسأله :

- لماذا ؟

جاءته الإجابة الساحقة كرسالة شديدة الوطء اخترقت عقله بلا هوادة كادت أن تذيب خلايا مخه :

- أنت لنا..

أنتى ملكى أنا أفعل بك ما شئت..

ليس من حقك أن تموت مالم أدفعك أنا للموت..

ليس من حقك أن تعيش إلا بشروطى أيها ال.. الشيطان !

تلقى الرسالة فى جمود ثم وضع وجهه على كفيه وأجهش ببكاء عنيف.. العجيب أن الشيطان انتظره وكأنما يحمل احتراما لانفعالات البشر ، لكن (راؤول) وسط دموعه تذكر شيئا فرفع عينيه فى لهفة وسأله بصوت مرتجف :



- ألم.. ألم يعدنى أنه بإمكانه أن يعيد إلىّ عائلتى ؟ ألم يقل أن بإمكانه إعادتهم للحياة ؟

ساد الصمت لثوان ، ثم رد عليه ببطء لزج :

- نعم.. يمكنه ولكن بشروط..

بلهفة فائقة سأله (راؤول) :

- وما الشروط ؟ أنا موافق على كل شىء..

ابتسم الشيطان الجالس فى رضا وهو يومىء برأسه ويمد يده إليه ويلتقطها معلنا بداية عهد سىء للغاية لم يتخيله قط ولا حتى فى أسوأ كوابيس (راؤول) !

***

محمود :

(محمود) يتسلل خفية على المركب وراء جثة متحطمة تسعى مع أربع جثث أخريات نحو هدف مجهول !



خطوة وراء الأخرى يراهم فى مشهد كابوسى يزحفون نحو الحجرة التى تحوى الآثار الفرعونية ، وكلما وصل أحدهم تمدد جوار التابوت الصغير !

كان قلب (محمود) يرتجف وهو يرى الجثث ذات العيون الشاخصة تتحرك بهذه الكيفية.. ارتجف جسده حين التقت عيناه بعينى جثة من الجثث المسجاة للحظة ، لكن لم يبد أن الميت قد انتبه له أصلا ! توارى للحظات وهو يلتقط أنفاسه ثم عاد ينظر.. كان التابوت الصغير يهتز وغطاؤه ينزاح ببطء وسلاسة ، ثم من داخله انبعث غبار أسود عجيب.. غبار أسود للغاية وكأنه من نسيج الكون نفسه!

تحرك الغبار وتشكل ثم تجسد على أرضية المركب..

كان يبدو بالضبط كرجل قوى لكنه.. يحمل رأس حيوان ما !

رأس ابن آوى ربما أو.. لا يعرف..



كان يلهث فى عنف وهو يتأمل ذلك المشهد المعجز أمامه وذلك المخلوق المخيف يقف أمام الجثث.. كان يبدو شفافا إلى حد ما.. أخذ (محمود) يلهج بالاستعاذة لكن ذلك الشيطان فيما يبدو لم يكن من تلك الشياطين التى تذهب بالاستعاذة !

أو ربما هو ليس شيطانا من الأساس ؟ !

فجأة اندفعت لذاكرة (محمود) شكل هذا الكائن..

إنه (أنوبيس) !

(أنوبيس) الفرعونى..

(أنوبيس) على الرغم من أنف كل من قال أن هذه الكائنات خرافية لا وجود لها وأن كل هذا مجرد خيال فحسب !

وقف ذلك ال (أنوبيس) أمام الجثث المسجاة ، وانحنى ناحية أحدها واضعا يده داخل جسده مباشرة



منتزعا شيئا ما وضعه فى خطمه وأخذ يمضغ ! ثم كرر العملية مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وخامسة !

إنه يلتهمهم !

كاد (محمود) أن يفقد الوعى لكن الوحش المتجسد أمامه لا يدرى ماذا سيفعل.. ربما لو فقد وعيه فلن يستعيده مرة أخرى على الغالب!

لذلك لذلك تجمد مكانه حتى انتهى ذك الواقف من وجبته، وكان يبدو الآن معتما تماما ! كأى فيلم رعب قديم كان يقوم بأكل الجثث والضحايا ليبنى لنفسه جسدا يعيش به على الأرض !



نعم لا منطق هنا.. ربما كان سيعتبر ما يحدث هراءا ممتعا لو رآه فى فيلم أمريكى ، لكنه الآن يعيش أقصى لحظات رعبه ..

انتهى الوحش من طعامه واعتدل ناحية تماثيل الذهب بجسده الفارع القوى.. كان أسمر اللون واضح قسمات الجسم.. لو تغاضينا عن رأسه فجسده جميل الشكل ومبهر فعلا.. كائن جميل مخيف لو رأيت صورته لن يمكنك إلا أن تعجب به فحسب !

توجه ناحية التماثيل الذهبية والتقط بعضا منها بعناية ووقف يتمتم تمتمات رهيبة رجت المكان من حوله.. أتعلم ذلك الصوت الذى يبتلع روحك ويصيبك بالدوار فلا تكاد تفهم مايحدث ؟

هو ذلك الصوت.. ومع ترانيمه حدث أغرب ما يمكن تخيله على الإطلاق.. كانت التماثيل تغير هيئتها وتذوب بين يديه لتتحول إلى أشياء أخرى تزحف على جسد الواقف لتستقر فى مكان محدد من جسده



وتحيط به ! على ركبيته وعلى مرفقيه وساعده وعلى صده وعلى رأسه !

كلما التقط تمثالا بيده تحول وتغير وتحرك ليأخذ مكانه فى مشهد مهيب.. وعلى الرغم من عدد التماثيل إلا أنها كانت تتشكل على جسده بسرعة فائقة حتى لم يعد فى الحجرة أى تمثال على الإطلاق !

وتوقفت الترانيم !

الآن ..

(أنوبيس) واقفا محاطا بدروع ذهبية رائعة تخطف البصر والقلب ، ثم حول بصره تجاه (محمود) !

(محمود) القابع خلف الباب متجمدا من فرط الخوف والرعب والتقزز.. ربما هى صدفة فحسب وهو فقط يريد الخروج من الباب لذلك ينظر فى هذا الاتجاه ؟ لكنه بدأ يتحرك تجاه الباب ..

نحو محمود المتوارى ..



كان يراه يتقدم نحوه ولا يستطيع الحركة..

لا يستطيع التنفس..

لا يستطيع أن يحرك ساكنا؛ فأين يذهب من هذا العملاق ؟

لحظات وكان (أنوبيس) بنفسه واقفا أمامه بكامل بهائه وقوته وجبروته وجسده فائق القوة !

وتحدث (أنوبيس)..

بصوتٍ قوى مدوٍ وكأنما يتكلم من أعماق بئر واسع قال :

- اسجد واخضع..

اقترب واسمع..

أنت فى حضرة (أنوبيس) فاخشع..



اتسعت عيناه فى هلع وهو يسمع النبرات الرهيبة.. بالفعل دقات قلب (محمود) بلغت حدا اسطوريا الآن وهو لايدرى ماذا يفعل بالضبط.. هو خاضع خاشع بالفعل !

مرت لحظات صمت ابتلع فيها (محمود) ريقه بالكاد قبل أن يتفتأ عقله عن شىء..

ببطء وخنوع سجد أمام قدم العملاق الذهبية وأغمض عينيه !

مرت لحظات على هذا الوضع لم يحدث فيها شىء.. رفع عينيه بحذر ليجد المكان خاليا و..

أتته صرخة زوجته الملتاعة من الأعلى !

صراخ من يوشك على الموت !

***

الفصل الثامن

المسعودة تتحدث..

حقا ؟

هذه جملة مطاطة للغاية.. كأنى أقول أن (هشام) يأكل ومروة تنام وخالد يذهب إلى الحقل !

لكن..

صدقنى الوضع هنا مختلف ؛ لأن المسعودة ستتحدث وهى لم تفعل ذلك منذ فترة طويلة !

إذن لم لا أكف عن الثرثرة وأتركك تتابع ما حدث فحسب !

كان (شوكت) قد فاض به الجنون لدرجة كبرى لم تحدث فى حياته قط، لذلك قرر أن يستعين بالريس (متولى) كى يلتمس عنده شيئا من الفهم ؛ ليجد



الريس (متولى) هو الآخر ميتا فى منزله منزوع القلب ! إذن عرفنا قلب من هذا الذى سقط عليه من العدم !

أشار إليه أحد أتباعه أن يستعين بال(مسعودة) ربما كانت لها قوة سحرية ما أو ربما كان لديها خبر.. تحمس (شوكت) للفكرة وارسل فى طلب المسعودة، لكنها رفضت الحضور !

جن جنونه..

من هى أصلا كى ترفض الحضور ل(شوكت) بيه ؟

من تلك الحمقاء التى ترفض أوامره أو تتغاضى عن الحضور إليه..

إنه شوكت بيه.. ألا تعلم من هو !

ألا يعلمون من هو !

أخذ يلف حول نفسه وهو يخور كالعادة.. فى الواقع هو الآن وحده تماما إلا من بعض الحراس الأغبياء

فحسب لأن تجارته الغير مشروعة لا يستطيع إقحام غرباء فيها، وكان راى أحد الحراس الأغبياء – كما يراهم - أن يذهب هو لها.. لن يخسر شيئا وهو فى حاجة إليها !

هاج (شوكت) وارتفع صوته بالسباب للفتى المسكين أمام كل العاملين بالفيلا، واتهمه بالحمق والغباء والتخلف والخنوع مع بعض السباب البذىء الذى طال أمه وأبيه، ثم طلب منه حانقا أن يذهب به إلى مقر تلك الساقطة الشمطاء !

تحرك الحارس محمر العينين والوجه من فرط الإهانة والإحراج ليقود السيارة بنفسه بينما جلس (شوكت) يخور على المقعد الخلفى، وليس يدرى كيف غط فى نوم عميق مصدرا شخيرا مزعجا قبيحا لأقصى درجة !

عندما وصل لمقرها وأوقظه الحارس الشاب، كانت مفاجأة مذهلة رهيبة مزلزلة لوجدان (شوكت) على الرغم من ذهاب عقله الوشيك ؛ إذ انها تعيش فى قصر فخم جدير بالملوك !



كان يتوقع أن يصل لمنطقة عشوائية أو مكان قذر قديم أو بيوت متهدمة تليق بالكيفية التى رآها عليها.. تلك القذرة قبيحة الرائحة تعيش هنا ؟ وفى سره تساءل كيف تعيش تلك المرأة فى هذا القصر وتعمل مع الحثالة أمثال الريس (متولى) ؟

ترجل من سيارته تحت حراسة من حرس المسعودة الذين استقبلوه باحترام، ثم دلف لحديقة كبيرة يقبع فى وسطها حمام سباحة كبير يسبح داخله نموذج يخت صغير شديد الجمال !

كل شىء عجيب غريب متناقض !

بعد دقائق من المشى فى المساحة الخضراء الشاسعة جلس على حافة حمام السباحة على حين وُضِع جواره مشروب بارد باحترام، تجرعه فى نهم ثم تجشأ فى عمق.. (رباه كم أكره هذا الوغد)..

لم تمر بضع دقائق حتى ظهرت من خلفه امرأة فاتنة.. ليست امرأة بالضبط وإنما هى فتاة رائعة الجمال



دقيقة الملامح ربما هى فى أواخر العشرينات.. تابعها بنظره مبهورا يتساءل فى قرارة نفسه عن هويتها ولماذا لم تأت تلك المأفونة وعيناه تلتهمانها التهاما حتى جلست على الطرف المقابل له وقالت بصوت هادىء :

- أنا (المسعودة).. شرفت منزلى المتواضع بقدومك.. العجيب أنى كنت أتحدث عنك مع صديقة لى منذ دقائق.. تحت أمرك يا (شوكت) بيه.. أوامرك ؟!

مرة أخرى نظر لها مذهولا منزعجا..

لابد أنهم يضحكون عليه..

لابد أنهم يستغفلونه لسبب ما، لذلك دون كلمة اعتدل وحاول النهوض محتدا من مقعده الوثير ليوقفه قولها الحازم :

- لو نهضت من هنا ورحلت فلن تعود لهنا مرة أخرى ابدا !

نظر لها فى حدة وغضب ثم عاد يسترخى على مقعده ويسألها بصوت الخنزير :

- أنتِ المسعودة ؟ كيف ؟ وما الدليل ؟

ردت بهدوء :

- المقبرة الملعونة فى منطقة الجيزة، وقبها ثلاث مقابر فى منطقة عين شمس، وسبع مقابر فى الأقصر ! أتريد المزيد ؟

احتقن وجهه.. لا أحد يعرف كل اسرارهم هكذا غيرها بالفعل، لذلك ابتلع دهشته مع غيظه وانبهاره ثم استطرد فى كلامه قائلا :

- أنا سمعتك من قبل تشيرين علينا ألا نفتح هذه المقبرة تحديدا، وقد فتحناها.. شريكى اختفى وكل من فتحها معى قتل.. حتى ابنى قتل ! أريد أن أفهم وأريد أن أعرف هل هناك خطر يحوم حولى ! وهل يمكننى استعادة ابنى من الموت أم لا ؟



نظرت له بهدوء وعينين صافيتين بينما تلقى الشمس المائلة للغروب ظلالها عليها فتجعلها شديدة الجمال فعلا.. ثم قالت بهدوء:

- أتعلم ياسيد (شوكت).. أنا كنت أعرف أنك قادم اليوم.. وقد طلب منى صديق عزيز أن أحكى لك كل شىء عن هذه المقبرة.. كل ما سيشبع فضولك حتى النهاية.. فقط استمع لى جيدا ولا تقاطعنى.. أعدك أن تفهم كل شىء بمجرد غروب هذه الشمس، وأيضا ..

قاطعها قائلا فى حدة :

- ومن صديقك هذا الذى علم أنى قادم ؟

ابتسمت وقالت :

- رائع.. لو قاطعتنى مرة أخرى فستندم للغاية سيد (شوكت) لأنى لست صبورة بطبعى.. دعنى أسترسل فى حكايتى وسيصير كل شىء واضحا لو فقط تحليت بقليل من الصبر.. أعدك بهذا.. فقط اسمعنى..



احتقن وجه البدين وهو يشير للنادل الواقف بعيدا أن يأتيه بالمزيد من المشروب فى غطرسة وكأنه يملك الدنيا، ثم أشار لها أن تبدأ وعلى وجهه أعتى علامات الغرور وضيق الأفق والضجر..

***

قالت المسعودة بصوتها الرقيق بينما يداعب هواء الغروب الوشيك شعرها الرائع :

منذ فترة قريبة - قبل أن أعتزل - كنت باحثة عن آثار، وأنا موهوبة حقا فى هذا المجال، حيث أنى أكاد أشم مواضع الذهب القديم.. وأين أبحث عنه ؟

تحت بيوت الفقراء بالطبع.. أبحث عن الكنوز الأثرية القديمة التى تركها الفراعنة.. هناك كميات من الذهب لايمكن تصورها بانتظار من يجمعها من تحت الأرض.. والحقيقة أنى قد أصبحت غنية فى وقت قياسى بسبب هذه الموهبة.. فاحشة الغنى بالفعل !



بدأ الأمر منذ فترة ليست بعيدة جدا.. أذكر أنى عندما كنت فى الثالثة عشر من عمرى قلت لصديقة لى أن تحت منزلها كنز من الذهب ! طبعا ضحكت باستهزاء ولم تصدقنى، ولكنها حكت لوالدها..

الأب - بشكل ما - صدق الحكاية.. تستطيع القول أنها صادفت هوى فى نفسه لأن جاره فى ذات الشارع وجد تمثالا ذهبيا تحت منزله وباعه بمبلغ أسطورى، ثم ترك المنطقة كلها إلى حى راق وودع الفقر للأبد..

هذا الرجل جلس معى يحاورنى ويسألنى ما إذا كنت متأكدة تماما فأكدت له حدسى.. أنا أشعر بالذهب أينما كان، فاختبرنى بأن أخفى قطعة ذهبية فى الحجرة وعرفت أنا مكانها بكل سهولة.. كان الانبهار يملأ عينيه وهو يمسك بالقطعة الذهبية ثم صافحنى فى عزم..

وبعد مرور عدة أيام كان قد اتفق مع رجال يفهمون فى هذه الأمور للحفر واستخراج ما تحت الأرض مقابل التنازل عن بيته لو لم يجدون شيئا.. كانت



مخاطرة قوية ولكنه كان واثقا فى بشكل كبير.. بالمناسبة هؤلاء هم رجال الريس متولى !

وحفر..

كانت النتيجة أن وجدنا تحت منزله مقبرة فرعونية كاملة !

أنت لاتصدقنى يا (شوكت) بيه، أنا أرى ذلك جليا فى ملامحك.. هذا شأنك ولكن هذا ماحدث..

وجدنا مقبرة صغيرة نصف متهدمة ليس فيها ذهب كثير.. فقط بضع حلى بسيطة، ولكن بيع القطع الأثرية وحدها غير حياته تماما..

وللأبد..

ومع مذاق المال الجميل أصبح الرجل مهووسا بذلك العمل.. لذلك كان من الطبيعى أن احتضننى الرجل كبنت له وأغدق على المال كما أشاء.. رغباتى أوامر لا تقبل النقاش مقابل مساعدته فى كشف مكان الكنوز



وعليه وعلى الريس (متولى) ورجاله الباقى ! كما ترى كانت صفقة رابحة لكلينا !

كان الأمر يتم كالتالى : فقط كنا نسير بهدوء فى منطقة ما.. أى منطقة عشوائية من مناطق (عين شمس) مثلا أو الجيزة.. نتجول معا جوار المنازل فى الأماكن القديمة - وهى مناطق غنية حقا بالآثار - وكل ما على أن أفعله هو أن أشعر فقط.. ما أن أؤكد له وجود الذهب فى منطقة ما حتى يشترى المنزل كله مهما كان سعره مبالغا فيه حتى نحفر تحته براحتنا تماما ودون تدخل من أحد.. وطبعا الريس (متولى) بفريق حفره كان ينهى المهمة فى وقت قياسى إذ أنه لديه عمال متخصصون للحفر حتى لاتنهار الحفرة، وعمال آخرين لحمل وإخفاء الأتربة بدعوى تجديد المنزل.. ومع الوقت اشتهر بأنه مقاول كبير يشترى المنازل القديمة لتجديدها أو هدمها وبناء غيرها.. وهى سمعة لم تأت من فراغ لأنه بالفعل امتهن هذه الوظيفة كستار على عمله الأصلى : التنقيب عن الكنوز..



بالطبع أنت تتساءل من أين أتت لى هذه القدرة العجيبة.. أليس كذلك ؟

فى الواقع أنا نفسى لا أعرف.. كنت وأنا صغيرة أجد القطع الذهبية الصغيرة الضائعة بسهولة فائقة، خاصة تلك التى تضيع من أمى أو أختى أو التى أجدها صدفة فى الشارع.. الموضوع مجرد إحساس قوى باتجاه وجود الذهب وبأى كمية.. إحساس لا يشبه أى إحساس آخر ولكنه يشبه لفح النيران نوعا.. كلما ازداد اللفح كلما زادت كمية الذهب، ولم يفشل إحساسى بوجود الذهب قط.. حتى أن آخر مقبرة كانت تحوى تماثيلا ذهبية كاملة، والكثير من الحلى والأساور.. كنز حقيقى يسيل له لعاب أى إنسان.. وقد باعه أبو صديقتى بمبالغ لايمكن تخيلها وأغدق مالا وفيرا لكل العمال، والنتيجة الآن أن معه مال يكفيه لقرون..

أنا معى مال يكفينى لقرون وأنا مازلت ابنة السابعة عشر وقتها!



أصبح عندى فيلا خاصة بى اشتراها لى أبو صديقتى جوار فيلته لنكون معا متجاورين دائما، وقد انتقلت إليها مع أمى.. ليست هذه الفيلا التى نجلس فيها الآن بالطبع، الأخرى بعتها منذ زمن ..

نسيت أن أخبرك أنى كنت أعيش وحدى مع أمى وليس لدينا أقارب تقريبا سوى أختى المتزوجة بعيدا عنا، وأمى امرأة عجوز طيبة اقتنعت أنى أعمل مع زوجة أحد لاعبى كرة القدم وهو صاحب كل هذا الثراء.. أما أختى فقد كانت خارج مصر مع زوجها، وقد صدقت الحكاية هى الأخرى إذ أنه لا سيناريو آخر قابل للتصديق..

وصديقتى ؟ سأخبرك عنها لاحقا !

لكن يجب أن تعلم أن صديقى الحقيقى كان والدها الطيب.. علاقة معقدة نوعا لأنى على الرغم من حبى له أشعر دوما أنه يحتفظ بى قربه ويخشى على من الهرب.. كنت صديقة مخلصة لابنته التى كانت



مندهشة دوما من قدرتى العجيبة، وبالنسبة إليه كنت أنا المَخرج ..

أنا مفتاح سعادته الأبدية..

لم أدر قط سبب هذه الموهبة، ولم أفكر كثيرا فى السبب.. إنها موجودة وكفى..

وكشابة تمتلك الملايين، ماذا تتوقع أن تفعل ؟

بالطبع كل شىء ممكن..

مثلا.. التباهى بالخروج مع شباب وسيمون للغاية مقابل المال !

هؤلاء لا يفعلون شيئا سوى بعض القبلات والأحضان والصور وانتهى الأمر على ذلك، فكما تعلم الفتيات يصيبهن الجنون من هذه الاشياء.. الانطلاق دون رقيب أو حسيب شىء فى منتهى الجنون ومادام المال يتحدث فالكل يخضع تحت قدمى.. كما توافرت



المخدرات والمسكرات وكل متع الحياة بأفضل جودة ممكنة..

كل شىء كان رهن يمينى كأفضل ما يكون؛ والباب المغلق لا يظل مغلقا أمام المال أبدا، أى شىء أريده وأحلم به أحققه دون تفكير..

فعلت أشياءا جنونية حقا !

وقد ظلت حياتى على هذه الوتيرة إلى أن وجدته..

كان بيتا قديما ذا مساحة واسعة حقا.. اشتريناه وباشرنا الحفر يوما بعد يوم حتى وصلنا لجدار مقبرة غريبة نوعا.. لست أدرى ما سبب غرابتها لكنى شعرت بعدم ارتياح يتملكنى بالكامل.. وعلى الرغم من ذلك فقد دلفنا للمقبرة..

فى الداخل كان يقبع تابوت لطفل صغير يبدو أنه كان ذا شأن.. رسوم كثيرة هامة وكهنة وطلاسم على تابوته الصغير وحوله مئات التماثيل الصغيرة الذهبية



لإله من آلهة الفراعنة.. أنت ترى أن هذا الوصف متكرر أليس كذلك ؟

المهم، هذه العملية لم يشارك فيها الريس (متولى) لذلك فهو لا يعرف هذه التفاصيل..

فتحنا التابوت واستخرجنا مافيه، ثم لمحته جوار يد المومياء..

شئ يشبه الأمبول، لكنه فرعونى صغير يحتوى سائلا أحمرا ثقيلا..

يبدو أنه.. الزئبق الأحمر ؟ !

نعم..

زئبق أحمر..

هذا هو..

لطالما سمعت عنه وإن لم أصدق فى وجوده قط..



يقولون أنه يسيطر على ملوك الجان..

ويقولون أنه يجعل الرجل شيئا خرافيا مع النساء، ويجعل النساء شيئا خرافيا مع الرجال أيضا.. يكفل متعة بلاحدود طوال العمر..

ويقولون أنه يباع بالجرام، والجرام بعشرة ملايين دولار.. بالطبع كانت النقود آخر همى، معى رصيد مالى يكفينى ويكفى أولادى - لو تزوجت - حتى مماتهم، وربما يكفى أولادهم أيضا !

كان فى يدى الآن هذا الزئبق الأحمر.. وضعته داخل جيبى بهدوء دون أن يلاحظ أحد، ثم خرجت من المقبرة وعدت إلى منزلى يومها وأنا فى قمة الإثارة.. بالطبع أخفيت عن شريكى وعماله اكتشافى هذا.. لابد أن أعرف تأثيره وما يستطيع عمله بالضبط، سواء كان سحرا أو علما قديما أو خرافات، يجب أن أعرف..

وفى حجرتى الأثيرة داخل الفيلا استرخيت على مقعد وثير وجوارى مشروب ساخن أعدته لى الخادمة



العجوز.. انتظرت بضع لحظات حتى خرجت الخادمة من الحجرة وأخرجت الأمبول الفرعونى وأخذت أتأمله..

كان أمبولا فضى اللون مصنوعا من مادة تشبه الزجاج إلى حد ما.. شكله غير مألوف على الإطلاق وكأنه ليس فرعونيا من الأساس !، فقد كان مضلعا نوعا دون أى نقوش مميزة، وغطاؤه منحوت على شكل حيوان أسود يشبه الكلب، و داخله المعدن السائل.. حوالى خمس جرامات منه..

للحظات أحسست بشىء غريب حولى..

شعور مقبض اعتصر قلبى لوهلة بينما أحسست بالإضاءة تتذبذب نوعا واعترانى شعور مخيف أنى لست وحدى فى الحجرة !

هززت رأسى بعنف وفركت عينى ونظرت حولى.. لاشىء غريب على الإطلاق.. يبدو أنى مرهقة فحسب، ثم عدت أتأمل الأمبول..



كانت المقبرة التى وجدناها لواحد من كهنة الفراعنة على مايبدو أو ابنه تحديدا لأنه كان صغير الحجم حقا.. قد تكون المومياء لطفل أو لكاهن بالغ فى حجم طفل ! لم نستدل على ذلك بشىء، ولكن طول عهدنا بنبش المقابر جعل لنا خبرة فى معرفة نوع المقبرة بمجرد دخولها.. كنت أسمع أن هؤلاء الكهنة يملئون المقابر بأسحارا هائلة لحماية مقابرهم من اللصوص والمدنسين، لكنى أعتقد أن كل ذلك هو محض هراء، فلم أشاهد أبدا أى شىء غريب فى أى مقبرة دخلنا إليها قبل هذه!

المهم أنى كنت أحدق فى الأمبول شاردة، حين خطر لى خاطر غريب..

ماذا سيحدث لو تناولت قطرة من هذا الزئبق الأحمر ؟

ذلك الفتى الرائع قادم بعد قليل.. لقد رأيته فى أحد الأفلام الأجنبية، وطلبت أن يأتى لى خصيصا من أمريكا ! نعم لا تتعجب فالمال أقوى من السحر.. تخيل أن يقضى معى ليلة ونتصور آلاف الصور التى

سأتباهى بها على قريناتى لاحقا.. وبالفعل لم يطلب الوغد ثمنا زهيدا، كما طلب تحويل النقود أولا.. لا بأس لأن كل هذا لا يعنى لى شيئا على الإطلاق.. الآن أفكر فى نشوة أنه نجم مشهور فيما يفعله وأريد أن أكون شيئا أسطوريا أمامه لا ينساه قط..

رفعت الأمبول أمامى عينى وأخذت أحاول فتحه برفق، لكن الغطاء كان محكما فعلا ولم أستطع فتحه فورا.. بذلت جهدا حقيقيا فى جذب الغطاء وإدارته حتى اكتشفت أن الغطاء يدور لينفتح عكس اتجاه عقارب الساعة..

وفتحت الأمبول..

خيل إلى للحظات أن هناك بخارا عطريا أحمرا يخرج من الأمبول وبالفعل شممت رائحة عطرية غريبة..

فى لحظات بدت الحجرة وكأنما اختفت خلف سحب حمراء وظهر ذلك الظل أمامى !



كان المشهد يبدو كالهلاوس الشديدة التى تنتج عن تناول المخدرات.. اتسعت عيناى وأنا أذوب فى السحب الحمراء والظل غير واضح المعالم الذى يقف أمامى، ثم هززت برأسى فى عنف وأغلقت عينى فى قوة للحظات ثم فتحتهما..

الأمبول فى يمينى والغطاء فى شمالى ولا أبخرة حمراء حولى ولا ظلال.. أمر غريب لأنى لا أتذكر أنى تناولت شيئا مخدرا اليوم !

فى تردد رفعت الأمبول إلى شفتى وأملت الأمبول بحذر لتسقط منه قطرة واحدة فقط على لسانى..

لم أبتلع القطرة مباشرة، وإنما تراجعت فى مقعدى أتذوقها.. كانت شيئا لم أذق مثله أبدا من قبل !

بعد لحظات شعرت بالسحب الحمراء تتكاثف داخل الحجرة مرة أخرى.. ومن قلب الضباب القانى ظهر ذلك الظل المخيف !



ضخم الجثة مفتول العضلات، يحمل رأس كلب هو الآخر !

تحرك ناحيتى ببطء، فأغمضت عينى وفتحتهما عدة مرات، لكنه لم يختف هذه المرة !

اتسعت عيناى رعبا وأنا أحدق فيما حولى.. اللعنة.. ماذا فعلت بنفسى ؟

تجمدت فى مكانى لا أستطيع الحركة ولا أقوى حتى على الصراخ والاستنجاد.. كان الظل المخيف يقترب منى مخترقا السحب الحمراء فى هدوء بينما تكاثفت السحب الحمراء حولنا أكثر وأكثر !

نبض قلبى يزداد جنونا..

اقترب الظل المخيف منى وانحنى تجاهى يحدق فى عينى مباشرة ولفح أنفاسه الكريهة ترتطم بوجهى..

رباه.. ماذا أفعل ؟



ظل فى مكانه متجمدا بضع ثوان ثم..

اخترقنى بغتة !

نعم.. فجأة هجم على مخترقا جسدى فى نعومة كنعومة الأشباح !

انتفضت من مقعدى كأنما أمسكت بكابل ضغط عال وقد تحرر صوتى أخيرا، فصرخت بأعلى صوتى..

هناك ألم رهيب يعتصر جسدى كله.. درت حول نفسى أتلمس الباب وسط الضباب الكثيف لكن.. أنا لا..

لا أستطيع..

التنفس..

و..

أظلمت الدنيا فجأة !

***

فتحت عينى ببطء لأجد نفسى على فراشى الوثير وضوء النهار يغمر المكان مبددا كل خوف !

جسدى يؤلمنى للغاية وذهنى مشوش للغاية.. السؤال الملح على ذهنى : كيف أتيت إلى فراشى ؟

تحركت عيناى ببطء لأنظر نحو جسدى لأفاجأ بملابس مختلفة عما كنت أرتديه بالأمس ! متى أبدلت ملابسى ؟

مع دهشتى أشعر بدوار عنيف يكتنف رأسى وذهنى مشتت للغاية.. نظرت من النافذة لأرى الشمس فى كبد السماء ! لا بد أن الساعة تجاوزت الثانية عشر !

هل نمت كل هذا الوقت ؟

ببطء تعود إلى ذكريات مشوشة عن الضباب الأحمر والزئبق الأحمر و.. يبدو أنى كنت أحلم.. كان كابوسا مخيفا إذن ؟



لكنى لا أحلم بكوابيس على الإطلاق ! نومى غالبا ما يكون نوما أسودا بلا أحلام من الأساس ! لابد أنى أفرطت فى الشراب أمس.. لكن هل شربت أمس أصلا ؟

لا أذكر شيئا.. تذكرت شيئا هاما : أين ذلك الممثل الأجنبى الوسيم ؟

شعرت بالحيرة تكتنفى بشدة.. أنا لا أذكر حقا أى شىء.. هل جاء وغادر أم أنه لم يحضر أم ماذا ؟ لا أذكر..

آآآآآآه.. صداع عنيف يطرق رأسى.. رفعت يدى لأمسك رأسى وأنا أحاول النهوض لكن حركاتى خرقاء تماما !

نهضت بتعثر شديد أسير خطوة تلو الأخرى تجاه دورة المياه القريبة كى أغتسل وأفرغ بطنى المتقلصة.. دلفت لدورة المياه وأنا أستند على الباب الخشبى

ووقفت أمام المرآة لأغسل وجهى ثم رفعت عينى للمرآة و..

اتسعت عيناى فى رعب وأنا أرتد للخلف مصعوقة بكهرباء المفاجأة.. من تلك الحسناء التى يطالعنى وجهها من المرآة ؟

إنها تشبهنى بقوة.. ملامحها هى هى ملامحى ولكن كل شىء أجمل..

رفعت يدى لاهثة أتحسس قسمات وجهى الجديد.. جلد مشدود نضر فائق النعومة وشعر أسود غزير كثيف كفتيات الإعلانات وعيناى تبدوان وكأنهما مكحلتان ووجنتاى متوردتان وشفتاى مكتنزتان جميلتان حقا ! كنت ألهث من الانبهار والخوف ولا يدور فى ذهنى سوى..

الزئبق الأحمر !

متناسية ألمى هرولت إلى الحجرة التى كنت جالسة فيها بالأمس وأخذت أبحث كالمجنونة عن الأمبول..

أين هو ؟

فتشت المقعد ونزعت الوسائد التى عليه ونظرت إلى المنضدة القريبة وتحتها وتحت المقعد وطرف السجادة و..

أين الأمبووووووووووول ؟

عدت ثائرة لحجرة نومى لأجده مستقرا أمامى على الفراش الأبيض !

يبدو أنى نمت وهو فى يدى ولم أنتبه لذلك..

مددت يدى أختطفه فى لهفة وأتأكد من إحكام غلقه.. للأسف تناثرت منه بضع قطرات لأنه لم يكن محكم الغلق سابقا.. لقد نقص الأمبول قليلا..

وضعته بحرص على الكومود بجوار الفراش وأنا أفكر..

إذن.. ليلة أمس حقيقية ؟ !



رفعت عيناى للمرآة الطولية فى الحجرة وأخذت أتأمل جسدى.. أتأمله فى دهشة ممزوجة بالذعر والإعجاب !

والسبب أنى لم أكن رياضية قط.. أنا نحيلة هزيلة ولا ألعب حتى تمارين الصباح، فمتى صارت منحنيات جسدى متناسقة جميلة مرسومة بدقة جميلة هكذا ؟

أخذت أدور حول نفسى أتأمل تفاصيل جسدى بإعجاب شديد وأنا أقترب من المرآة رويدا رويدا.. تماديت حتى وقفت عارية تماما أمام المرآة وصفرت فى دهشة.. لو خضعت لعشرات العمليات الجراحية لما صار جسدى وجلدى فائقى الجمال لهذه الدرجة ! لقد صرت فاتنة كما ينبغى أن تكون الفاتنة !

مرحى..

صفقت بيدى فى جذل وأنا أتساءل عن التغييرات الأخرى التى حلت بى..

سمعت طرقات على باب الحجرة، ومالبثت أن دلفت خادمتى العجوز لتضع الإفطار لى دون أن تنتظر ردى..

هى معتادة على ذلك.. شعرت بالتوتر وأنا أختطف شيئا أستر به نفسى وأنا أدعو الله ألا تنظر تجاهى.. على أى حال خادمتى العجوز لا تكاد ترى شيئا أصلا نتيجة كبر سنها ورفضها التام للكشف أو تغيير النظارة ! ولم يبد عليها أنها لاحظت شيئا غريبا ولم تنظر نحوى من الأساس ! هى تكرهنى بشكل ما !

ما أن خرجت حتى زفرت وعدت أتأمل نفسى فى المرآة وأفكر.. يجب أن أستعد الآن للخروج، فقد كان لدى موعد مع والد صديقتى فى المقبرة لاستكمال العمل.. أنا لا أرغب فى الذهاب اليوم، لكنى لا أستطيع التخلف.. ليس هناك عذر مناسب..

هكذا ارتديت ملابسى على عجل وتناولت إفطارا خفيفا وقرصين مسكنين للصداع العنيف هذا، ثم توجهت لموقع العمل..

عندما وصلت إليه داخل المقبرة نمّت نظراته عن الدهشة كأنما هو غير متأكد ممن يراه ! حبيبته، لكن حتى صوتى صار مختلفا عما اعتدته.. صار أجمل



وأكثر رقة وعذوبة.. رد على السلام فى دهشة وهو يهز رأسه فى إعجاب وما لبث أن اختلى بى جانبا سائلا إياى :

- ماذا حدث لك يا فتاة ؟ أنت تبدين مختلفة اليوم بشدة.. بل تبدين وكأنك لست أنت أصلا !

تظاهرت بالدهشة وسألته :

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أنك تغيرت من الأمس لليوم.. شكلك وصوتك صارا مختلفين جدا.. تبدين أجمل و.. أطول ! لولا أنى أعرفك جيدا لقلت أنك لست نفس الشخص أبدا !

صمتُّ لثوان مترددة فى إيجاد رد مناسب.. عيناه تفحصانى حتى أن وجهى تضرج بحمرة الخجل ثم أكمل هامسا فى إعجاب :

- كأنك كبرت عشر سنوات فجأة !



أطلقت ضحكة خرجت متوترة رغما عنى وربتُّ على كتفه بيدى الناعمة الرقيقة قائلة :

- يبدو أنك قد أرهقت فى العمل يا عمى - كنت أناديه دوما يا عمى -، فأنا بالتأكيد لم يتغير بى شىء.. لو تقصد ممارسة الرياضة فأنا بدأت منذ فترة وليس اليوم فقط.. ربما هى المكملات الغذائية التى أتناولها ؟ بالمناسبة كنت عند مصفف الشعر بالأمس أيضا ..

ظل ينظر لى بشك وعيناه تقولان بوضوح أنى كاذبة ويهز رأسه نفيا فى بطء.. هززت كتفى مبتسمة وتركته واقفا لأهرب من نظراته وأسئلته، ثم تشاغلت بمتابعة العمال متظاهرة باللامبالاة وقلبى يخفق كالطبل..

مرت ساعة تقريبا، وفجأة اجتاحنى خوف رهيب ضرب قلبى كمطرقة عاتية بلا رحمة.. رجفة خوف قاسية جعلتنى أتحرك فى المكان بعصبية زائدة وأنا أتلفت حولى فى قلق بالغ وأشعر بأحشائى تتقلص من



فرط الخوف، حتى أن والد صديقى لاحظ ذلك، فسألنى :

- ماذا بك يابنيتى ؟ تبدين على غير ما يرام.. أتريدين قضاء حاجتك أو ماشابه ؟

وجدت نفسى أقول له فجأة وبتوتر لم أعهده فى نفسى أبدا :

- يجب أن ننهى العمل الآن.. يجب أن نرحل فورا من هنا.. فورا يا عمى !

- ماذا تعنين ؟ لم ينته العمل بعد و..

قاطعته بصوت عال لفت انتباه العمال وبعصبية لم أعهدها فى نفسى أبدا :

- لايهم.. وجودنا هنا صار خطرا ويجب أن نرحل بسرعة !



كان يحدق نحوى فى خوف، لكنه اعتاد صدق إحساسى دائما، فأمر العمال بسرعة مغادرة المقبرة على الفور..

ودون نقاش..

وسرعان ما كنا نخلى المكان والتوتر يتصاعد فى جوفى كأقصى ما يكون.. كنت أنتظر لأطمئن أن الجميع قد خرج ولم يدفع الطمع أحدهم للبقاء للاستيلاء على شىء ما لنفسه..

خوفى يزداد..

قلبى ينقبض ولا أستطيع التنفس بشكل منتظم..

ومع خروج آخر عامل فوجئنا بالمكان يتزلزل والغبار يعم المكان بشدة وصوت رهيب يكاد يصم آذاننا..

الحفرة تنهار !

تنهار مهددة بدفن من يوجد بالداخل حيا إلى الأبد.. تماما كما كنا نسمع عن حوادث الحفر الأخرى التى مات أصحابها تحت أطنان التراب..

وكما لم يحدث معنا من قبل !

جرينا بعيدا عن المنزل وسط الصياح والصراخ والتراب الرمادى يعمى العيون والأنوف.. ومن بعيد وقفنا نراقب ما يحدث فاغرى الأفواه معفرين بالتراب نرمق موضع المقبرة المنهارة فى حالة من الجمود..

كل منا لا يصدق أنه قد نجا من هذا المصير المخيف..

لقد كان الموت قاب قوسين أو أدنى بالفعل..

لو كنا تأخرنا خمس دقائق فقط !

الدفن أحياء..

والد صديقى واقف جوارى يردد فى ذهول :

- كيف عرفت ؟ لقد أنقذتينا يافتاة، لولاك.. لولاك..

كان يضرب كفا بكف وهو ينظر نحوى بامتنان..

وخوف !

وبدأ العمال يحيطون بى وكأنما يتبركون وأنا فى حالة من الذهول !

طوال عمرى وأنا أشعر بقرب الذهب فحسب.. لكن..

كيف أدركت اقتراب الخطر ؟

أهذا تأثير الزئبق الأحمر إذن ؟

لو كان هذا بسببه فهو خبر رائع.. نقطة واحدة منه فعلت كل هذه الروائع بى وبحواسى، فمن الطبيعى أن أفكر : ماذا لو كنت تناولت أكثر ؟

وهل هناك تغييرات حدثت لى ولا أعرفها ؟

وأيضا ذلك الظل المخيف الذى اخترقنى.. ماذا عنه ؟

أم أنه كان وهما ؟ ربما كان هلوسة فحسب ؟



لا أعرف.. رأسى يدور بعنف لكنى حتما سأعرف..

***

كان (شوكت) يتابع الحكاية بشغف وانبهار غير عاديين.. لابد أن ذهنه يتخيل الآن أحلاما ذهبية وكيف يمكن الاستفادة من الفتاة الرقيقة القابعة أمامه.. كانت قد صمتت للحظات تشير بيدها علامة أنها تريد مشروبين لها ول(شوكت) مرة أخرى، ثم أردفت :

- انتظرنا حتى هدأ الوضع وأغلقنا المكان جيدا.. كنا نرد على أسئلة الفضوليين أننا كنا نفحص الأساسات البالية للمكان، لكنها تشققت ونحن بالداخل فخرجنا مسرعين لنفاجأ بانهيارها..

وانتهى الأمر وعدنا لمنازلنا..

فى منزلى أخذت دشا دافئا ولكنى بدأت ألاحظ أشياءا غريبة..

حواسى أصبحت حادة حقا.. بل إن قوتها تزداد بمرور الوقت !

أمسى سمعى حادا لدرجة سماع حفيف أوراق أشجار الحديقة ببعض التركيز.. بصرى صار حادا حتى أنى استطعت الحركة فى الظلام بسهولة تامة !

إحساسى العام بجسدى وبالموجودات من حولى.. أشعر بكل خيط فى ملابسى التى كنت أرتديها، وكل قطرة ماء أو فقاعة صابون تنساب على جسدى الآن.. قوتى الجسدية تزداد أيضا !

معقول ؟

هل أتحول لبطلة خارقة مثلا ؟

يبدو أن الأيام القادمة ستكون ممتعة ! ولكنى مع ذلك خائفة..

أحتاج لمعرفة المزيد عما أمر به الآن..



يجب أن أفهم..

أنهيت حمامى ودلفت إلى غرفتى المفضلة وتأملت فى مكتبتى العملاقة التى كلفتنى مبلغا باهظا أبحث فيها عما يمكن أن يفيدنى، وسرعان ما حملت عدة كتب تتحدث عن لعنة لفراعنة والاكتشافات الفرعونية الغامضة وجلست بهدوء على الأرض أمام الكتب أبحث.. ساعة وراء ساعة، وهراء يتلوه هراء ! بالفعل معظم ما وجدته هراء فحسب ! يؤسفنى أن اقول أن هذه الكتب مليئة بكلام خيالى من أناس لا يعرفون شيئا البتة..

ظللت فى مكانى أبحث فى قنوط لا أدرى كم من الوقت وفجأة..

سمعت همسات خافتة تتردد فى حذر خارج الغرفة..

شعرت بالتوجس..

من الذى يهمس خارج غرفتى ؟



نهضت فى هدوء لأسير نحو باب الحجرة وأفتحه بهدوء، لكنى لم أر شيئا مريبا، لكن الهمسات لم تتوقف !

صوت مقبض مخيف تشعر أنه ينبعث جوار أذنك !

همسات عجيبة مخيفة كأنها هسيس أفعى أو كأنه.. لا أعرف !

الخادمة غير موجودة لأن اليوم أجازتها الأسبوعية وأمى نائمة كما تأكدت بنفسى !

والهمس المريب مستمر..

فتشت الفيلا كلها والهمسات تلاحقنى من ركن لآخر.. همسات شريرة كأنها صلوات غامضة يا سيد (شوكت)..

المهم أنى عدت لغرفتى فى توجس وأغلقتها فى خوف وتوجهت لفراشى أحاول الهروب بالنوم.. لكن



بطرف عينى لمحت حركة فى ركن الغرفة.. التفت نحوها بسرعة لأجد أن كل شىء على مايرام !

مرحى.. يبدو أنى سأقضى ليلتى فى هلاوس، وهذه أعرف علاجها الفعال..

نهضت من مكانى وأحضرت زجاجة الشراب الغالى وصببت لنفسى كأسا ووقفت لثوان فى مكانى لأن الإضاءة خفتت فجأة، ثم أمسى كل شىء مهزوزا حولى كأنما أرى الموجودات خلال إناء تحمير الطعمية فى الشارع !

تسارعت دقات قلبى وأنفاسى وأغمضت عينى بقوة ثم هززت رأسى بعنف وفتحت عينى لأجد كل شىء على مايرام والحجرة ثابتة كما عهدتها ! إما أن تكون هلاوس نتيجة الإرهاق أو أنى فى طريقى للجنون !

المهم أنى شربت كأسى دفعة واحدة وقلبى ينتفض، ثم جلست أتابع بحثى فى الكتب المتناثرة حولى بعينين لا تفقهان شيئا.. ورويدا رويدا شعرت بالنعاس

يكتنفنى رغم أن الوقت مازال مبكرا.. لم أستطع المقاومة ؛ فتمددت ونمت على الأريكة كما أنا..

وحلمت.. حلما شديد الواقعية يا سيد (شوكت) لم أر مثله فى حياتى من قبل قط..

بصورة شديدة الوضوح رأيت أنى فى المقبرة التى كنا فيها بمفردى أتلفت حولى فى عصبية وخوف، وبخطى ثقيلة أتجه ناحية أحد الجدران.. أتقدم حثيثا لكن الجدار مازال بعيدا كأنى لا أتحرك على الإطلاق، ثم سمعت صوت الخطوات ورائى.. ببطء أستدير لأراه قادما من وسط الظلام !

الظل المخيف الذى رأيته يخترقنى من قبل يقترب منى ببطء وهو يتموج ويخور وأنا عند الجدار !

الجدار ؟ متى وصلت إليه ؟

لا أدرى كيف وصلت إليه ولا يهمنى أن أعرف الآن.. رفعت يدى - دون إرادة منى فى الواقع - أحاول ضغط بعض الأحجار على الجداربترتيب معين.. ترتيب يداى



تحفظانه بمفرديهما دون توجيه منى ! ما أن انتهيت حتى دارالجدارحول محوره رأسيا مثلما نرى فى أفلام المغامرات، فدخلت مسرعة وحاولت إغلاقه مرة أخرى فى وجه الظل المخيف، لكن الظل بلغه دفعة واحدة ودفعه بعنف فى وجهى فتعثرت ووقعت بعيدا عنه، ثم نهضت وجريت بعيدا دون وعى..

وهو يطاردنى..

انطلقت أعدو فى منطقة غير واضحة المعالم وقلبى يخفق بسرعة من فط الخوف، وفجأة تعثرت وسقطت من مكان مرتفع..

جسدى يسقط بسرعة فى الظلام.. لا أكاد أرى شيئا..

إحساس التحليق الحر هذا الذى يعقبه اصطدام حتمى قبيل الوفاة.. أنا أدرك هذا وأرغب فى الصراخ لكن لاصوت ينبعث منى على الإطلاق !

صوت الهواء يمر جوار أذنى مصحوبا بزئير غاضب من الظل فوقى..



و..

ترررررررررررن ترررررررررررن

رفعت عينى مدهوشة والقاع يقترب بسرعة ثم..

استيقظت !

نهضت مفزوعة لأجد أنى قد تجاوزت العشر ساعات فى نومى متصلين ! على الرغم من أنى لم أشعر بمرور كل هذا الوقت، ولست أشعر بالراحة كما يفترض بى.. كنت كأنى نمت بضع دقائق فحسب!

غريبة.. لم أفعلها من قبل قط !

كان المتصل هو والد صديقتى يريد أن يعرف متى سآتى له لنرى ماذا سنفعل فى تلك المقبرة المنهارة، فأخبرته أنى سآتى له على الفور بمجرد أن أفيق.. كنت مرهقة كأنما قضيت الليل أعدو و أشعر كأنى لم أنم لحظة واحدة !



قمت محطمة الجسد لأدلف للحمام..

لابد أنى مريضة..

وقفت أمام مرآة الحمام أنظر لوجهى الجميل المرهق بذهن مشوش، وعندما خلعت ملابسى لأغتسل هالنى مارأيت..

عدة كدمات متناثرة فى جسدى كأنما..

كأنما سقطت من مكان مرتفع !

***

أكملت الفتاة باستمتاع :

- وضعت يدى على رأسى لأجد أنى محمومة ! أخذت أتنفس بسرعة وانا أرمق الكدمات القبيحة.. لقد سمعت أن مرضى السرطان يظهر لهم كدمات كهذه ! يجب أن أذهب للطبيب اليوم.. نعم.. لكن بعد أن اذهب لوالد صديقتى لننهى مسألة المقبرة معا، ثم



ليكن مايكون بعدها.. لكن فى قلبى كانت تنبض ذات الجملة..

الزئبق الأحمر..

***

عندما ذهبت لموضع المقبرة كان العمال قد بدأوا يحاولون إصلاح ما أفسده الانهيار وفتح ممر جديد مؤمّن تأمينا مضاعفا هذه المرة كى نستكشف بقية كنوزها ونستخرجها.. وقفت فى الخارج وأغمضت عينى وتركت المجال لإحساسى المشوش أصلا ثم اتجهت لمكان معين وأخبرتهم أن يحفروا فيه.. ودون مناقشة أمرهم والد صديقتى كالمعتاد بطاعتى والحفر فى هذا المكان..

و قبل مغيب الشمس كانوا قد استطاعوا تهيئة مدخل جديد فى نفس المكان الذى أخبرتهم به، بل ووجدنا هنا بضع تماثيل ذهبية أخرى لم نكن قد شاهدناها من قبل، ولكن لفت انتباهنا بضع عظمات تبدو بشرية ملقاة جوار التماثيل المتناثرة خارج المقبرة.. بقليل من

الخيال يا سيد (شوكت) أقول أن هناك لصوصا حاولوا سرقة المقبرة فى الماضى وأوقفهم شىء ما هنا.. قتلهم وتركهم ولم يمس شيئا من الذهب !

غريبة !

و الأعجب من ذلك يا سيد (شوكت) أن المكان بدا لى مألوفا رغم أنه لم يكن مرئيا ضمن ما اكتشفناه قبل الانهيار..

بمجرد أن اطمأننت على دخولهم بأمان شعرت أنى لا أستطيع البقاء لحظة أخرى.. التعب والإرهاق يتملكانى تماما.. استأذنتهم وعدت إلى منزلى بالكاد.. للحق لم أستطع حتى الذهاب للطبيب.. سأصعد لغرفتى وسأنام قليلا، ثم عندما أستيقظ سأتصل بأى طبيب ليأتى هو.. توجهت لحجرة نومى أجرجر قدمى متجاهلا نداء أمى و ألقيت نفسى على الفراش بملابسى من شدة الإرهاق وغبت عن الوعى فورا..

ومرة أخرى حلمت..



رأيت أنى فى نفس المكان الذى بدأ منه الحلم السابق..

وبنفس التفاصيل !

أتجه للجداربيط، ويأتى من ورائى الظل، وأفتح المدخل السرى وأهرب منه، ثم أتعثر وأسقط من حالق، ثم استيقظ مفزوعة !

استيقظت بسرعة نسبيا هذه المرة وأنا ألهث بشدة..

لقدعرفت هذا المكان..

قاطعها (شوكت) منبهرا :

- نفس المقبرة أليس كذلك ؟

رمقته بنظرة نارية وهى تجيب بنبرة حازمة متوعدة :

- كما توقعت بالفعل ياسيد (شوكت) وارجو ألا تكون نسيت وعدك بعدم مقاطعتى.. كان الجزء الذى اكتشفناه حديثا من المقبرة !



تراجع شوكت فى مقعده ساخطا متململا.. هو يريد الانتهاء من كل هذا سريعا لكنه أيضا يريد معرفة البقية.. استحوذت الفتاة على مشاعره تماما وفضوله سيطر عليه.. لذلك خضع لها وهو يعد نفسه بقتلها قريبا !

التقطت الفتاة نفسا عميقا ثم قالت :

- الحيرة تخبطتنى بشدة وأنا أتساءل عن كنه ما يحدث لى..

التبدل فى شخصيتى وملامحى وجسدى، ثم إحساسى بالخطر وتعاظم مشاعرى وحواسى والكابوس المتكرر حول المقبرة المكتشفة حديثا.. وذلك المطارِد ! لقد بدأ كل شىء بعد ما ابتلعت قطرة الزئبق الأحمر.. إنه السبب فيما يحدث لى الآن حتما !

نهضت من مكانى وأخرجت الأمبول من مكمنه وأخذت أتأمله مرة أخرى باهتمام لأكتشف عدة



اكتشافات هامة يا سيد (شوكت).. كان غطاء الأمبول له نفس شكل رأس ذلك الظل الشبيهة بكلب..

ثم فعلت أغرب ما يمكن فعله ياسيد (شوكت) وبلا أى منطقية على الإطلاق، أطلقت ضحكة رقيقة وفتحت الأمبول مرة أخرى !

على الفور تكاثفت السحب الحمراء فى جو الحجرة وفى قلب السحابة الحمراء تجسد الظل المخيف وهو يستدير تجاهى !

كان الذعر يتملكنى بالفعل إلا أنى نظرت نحوه وابتسمت للحظات ثم رفعت القنينة وسكبت كل مابها فى جوفى ياسيد (شوكت) ! أعرف أن مافعلته ضد المنطق وأنى ربما أموت مسمومة مثلا، لكن ليس لدى تفسير من أى نوع، بل لا أكر ما إذا فعلت ذلك بإرادتى الحرة أم لا من الاساس !

ما أن ابتلعت ذلك السائل اللعين حتى شعرت كأن حلقى يحترق.. ألقيت الأمبول وبدأ جسدى كله فى

الارتجاف..

سقطت على الأرض وبدأ التشنج.. وحولى تكاثفت السحب بصورة عجيبة حتى اختفت الغرفة خلف السحب الحمراء، ثم أظلمت الدنيا فجأة وفقدت وعيى تماما يا سيد (شوكت)..

***

عندما استعدت وعيى كانت هناك رائحة عطرية غريبة تملأ الجو، ففتحت عينى ببطء مشوب بألم الصداع العيف الذى يلتهم رأسى التهاما.. ما أن رأيت المكان حولى حتى اتسعت عيناى فى انبهار؛ لأنى كنت فى قلب معبد فرعونى بكامل بهائه و(جلال)ه وعظمته وألوانه الزاهية ورسوماته الغائرة الملونة الجميلة، بينما تنعكس أضواء ذهبية وانعكاسات ممن يسيرون حولى.. ممددة على منضدة حجرية عالية، وجوارى يقف شخص أصلع ينظر لى نظرة خاوية ويردد كلاما منغما بلغة لم أسمعها من قبل قط، ثم يمد يده ليلتقط



خنجرا حادا جوارى على المنضدة الحجرية، وفجأة فطنت لشىء هام.. أنا افهم مايقول !

و بسرعة يغزونى الذعر الجنونى !

لم أكن مذعورة بسبب مكانى الذى يخالف كل منطق، ولا لأنى فهمت بوضوح لغتهم.. لكن لما يقوله الرجل..

كان يخبرهم أنه سيبدأ أولا باستخراج القلب، ثم اقتلاع العينين واللسان ويلقى كل هذا للتماسيح !

طبعا كان يتحدث عنى !

كنت عاجزة عن الحركة والصراخ وهو ينحنى نحوى مباشرة وأنفاسه الغاضبة الساخنة تضرب وجهى وهو يكمل كلامه لى أنا :

- هذا جزاء المدنسين..

هذا جزاء السارقين..

هذا جزاء اقتحام قبر (أنوبيس) العظيم !



دون وعى رفعت يدى فى حركة دفاعية أدافع بها عن حياتى ولكن مهلا..

أنا غير مقيدة ؟

أنا غير مقيد !

هذا غير منطقى لكن ليس هذا وقت المنطق على الإطلاق..

على الفور نهضت من مرقدى بأسرع ما استطعت وأخذت أعدو إلى الصحراء القريبة.. كنت أرتدى ملابسا فرعونية بيضاء ربما كانت لتسعدنى فى وقت آخر لكن الآن هذا الصندل السخيف يؤلم قدمى، ومع ذلك أخذت أجرى كأسرع ما يكون وحانت منى التفاتة للخلف لأجد الهول يعدو ورائى..

نفس الظل متجسدا هذه المرة فى الحقيقة قادم خلفى بقامته التى تناهز المترين طولا وهو يزأر بصوت مخيف !



زدت من سرعتى قدرما استطعت وأخذت أركض بين الأعمدة والممرات ولما أصل للصحراء بعد، حتى خرجت من المعبد إلى أرض صحراوية فسيحة..

تعثرت من فرط الفزع عدة مرات، حتى وصلت لمقبرة مفتوحة جديدة كأنما هى معدة لاستقبال أحدهم..

بسرعة قفزت داخل المقبرة المفتوحة وأنا آمل الاختباء من ذلك الظل المتجسد وفى نفسى أتساءل : أهذا حلم جديد ؟

فى الداخل وجدت نفسى أمام ذلك الجدار الذى رأيته مرتين فى أحلامى.. ألتفت للخلف فرأيت ذلك الظل قادما نحوى حثيثا وهو يخور..

عدت أنظر للجدار وقلب يدق كالطبل.. نفس النقوش البارزة أمامى هنا.. مددت يدى وضغطت على الجدار بنفس الترتيب الذى رأيته فى الحلم، وسرعان ما وجدت الجدار يلف حول نفسه كأنما كان هناك قفل وانفتح بفعلتى..



تماما كأحلامى !

دخلت مسرعة وحاولت إغلاق الباب، لكن - أيضا كمافى الحلم – وصل إليه الظل المخيف ودفعنى لأسقط بعيدا..

نهضت بسرعة وأخذت أجرى وأنا أحاذر أن أسقط كما فى الحلم.. كل مرة كنت اتعثر وأسقط فى هوة سحيقة.. ها هى هناك !

تجاوزت تلك الهوة السحيقة ودرت حولها وأنا أنظر لموقع قدمى.. هناك مقبرة أخرى مفتوحة تنتظر ابتلاع جثة جديدة.. نظرت خلفى لأجده بعيدا.. فى يأس قررت الاختباء فى المقبرة الجديدة يا سيد (شوكت)، فإما النجاة وإما الهلاك..

كان العرق يغمر عينى، وصدرى يكاد ينفجر وألهث فى عنف.. أختلس النظر خلفى لأجده يقترب..

خطواته ترج الأرض وبدا من خواره أنه غاضب بشدة..



لو أمسكنى..

هكذا انطلقت أعدو داخل المقبرة العجيبة التى تبدو كالنفق، ومن بعيد ظهر ضوء خافت..

رويدا رويدا رأيت آلات العمال وأدواتهم المبعثرة فى كل مكان.. إنها نفس المقبرة التى اكتشفناها اليوم ونفس المكان الذى اكتشفناه صباح اليوم ! بل والباب الصغير مفتوح بنفس الدرجة أيضا وكأنما لم يمسه أحد على الإطلاق !

بآخر بقايا القوة خرجت من المقبرة ! كنت ألهث بعنف شديد وأشعر بمطارق تطحن دماغى طحنا بينما دبيب خطوات هذا الشىء تصم آذانى وزئيره قد بلغ حدا مرعبا..

صدرى سينفجر..

دفعت الباب أغلقه بقوة قبل أن يصل إليه الوحش..

الظل..



لكن.. هل تمنعه جدران ؟

انغلق الباب تماما فى وجهه هذه المرة، ولم أنتظر لاعرف ماذا سيفعل، بل أسرعت أحاول الخروج من المقبرة اللعينة..

فقط بضع خطوات لأجد الحارس جالسا يدخن ويرمق الفراغ فى صمت.. أصابته الدهشة عندما رآنى بهيئتى المزرية هذه ونهض لتوه يحاول مساعدتى.. أخذت ألهث فى عنف، ثم طلبت منه نقودا كى أذهب لمنزلى !

نعم..

أنا أشحذ نقودا من هذا الحقير كى أستطيع الذهاب لبيتى !

***

دلفت لمنزلى وأغلقت كل الأبواب ورائى حتى باب حجرتى المفضلة، ثم استلقيت على فراشى وأخذت أرتجف..



هل أنا فى وعيى أم أن تلك السحب الحمراء تتكون مرة أخرى ؟

ومن بينها يظهر الظل مرة أخرى ؟

مرة أخرى ؟

الآن أشعر باليأس يعترينى..

يبدو أنه لامفر..

هذه المرة لا طاقة عندى كى أفعل أى شىء..

ظللت فى مكانى أحدق فيه فى يأس.. فلينه الأمر سريعا وليفعل ما يريد أن يفعله..

اللعنة عليه وعلى الزئبق الأحمر والآثار والفراعنة.. اللعنة على كل شىء !

تراجعت للخلف وأنا أغمض عينى.. أشعر بالظل يقترب منى وأنفاسه التى تشبه الخوار تحرق وجهى..



الوقت يمر ولا شىء يحدث !

فتحت عينى ببطء.. إنه يقف أمامى بلا حراك.. أتراه يفكر فى شىء ما ؟

لماذا لم يخترقنى هذه المرة أو يحاول قتلى ؟

ربما.. ربما هناك فرصة رغم كل شىء ؟

نهضت ببطء من مكانى وأنا أنظر له بحذر..

لا يتحرك..

خطوة نحو الباب..

خطوة أخرى..

حتى رأسه مازالت ثابتة وكأنه تحول لتمثال دخانى يتنفس..

خطوة أخرى..



فجأة نظر نحوى وهو يخور فانتفضت وتعثرت فى شىء ما وسقطت للخلف بينما انقض الوحش على و..

فقدت الوعى مرة أخرى يا سيد (شوكت) ! انا فتاة على الرغم من كل شىء ومن الطبيعى أن أفقد الوعى كثيرا !

***

فتحت عينى فى ألم..

رأسى يؤلمنى..

وجدت نفسى مرة أخرى ممددة فوق تلك المنضدة الحجرية، وذلك الكاهن المخيف واقف جوارى عاقدا ذراعيه يبتسم تلك الابتسامة المنذرة بالويل وهو يهز رأسه..

ما أن فتحت عينى ونظرت نحوه حتى مد يده يلتقط نفس الخنجر الحاد واقترب منى..

حاولت الفرار كالمرة السابقة، لكنى اكتشفت أنى مقيد للمنضدة بقوة هذه المرة..

ورغم الموقف إلا أنى تساءلت لماذا لم يقيدنى المرة السابقة ؟

أصوات تراتيل مخيفة تتعالى..

يقف بجوارى..

بهدوء يهبط بالنصل على بطنى..

آآآآآآآآآآآآآآه.. آآآآآآآآآآآآآآآآآآه.. يااااااااااااااااالالألم..

النصل البارد يشق صدرى..

ألم رهيييييييييييب..

أشعر بيده تعبث فى صدرى ويقطع أشياءا باليد الأخرى.. لسانى صار ثقيلا فجأة، لاأستطيع الصراخ..

الضباب يغشى عينى..



رفع يده ممسكا بقلب دام يرتجف.. نظر لى مليا ثم أعاده لمكانه داخل صدرى وهو يقول بلغته الفرعونية القديمة :

- ستساعدينهم..

سيطلبون منك معرفة أماكننا وسترشدينهم..

ليوم نحتاجك فيه ستخبرينهم..

لعودة (أنوبيس) الرب ستدلينهم..

ومن ذهبنا سيكون هلاكهم..

عودى لهم..

ثم أظلمت الدنيا يا سيد (شوكت) تماما..

***

ومن يومها وأنا أرشد من يحاول أن يطلب منى مساعدته مقابل مبالغ مالية تكفل لى الحياة التى تراها



على الرغم من أنى لست بحاجة حقا للمال.. أستغل موهبتى وآخذ حق إرشادى وانتهى الأمر.. هى لعنة اصابتنى ولا فكاك منها يا سيد (شوكت).. ابتعدت عن والد صديقتى فى السكن وبعشت هنا وحيدة.. مازالت استمتع بحياتى كما ترى لكنه استمتاع سخيف للغاية !

ساد الصمت لحظة ثم قطعه صوت (شوكت) القمىء وهو يقول بنبرة متسائلة حادة :

- حكاية رائعة يافتاة.. حكاية رائعة بالفعل أنستنى سبب حضورى لك، ولكن عندى بعض الأسئلة التى لم أفهمها تمام من حكايتك الطويلة الخيالية هذه لذلك أنا..

قاطعته الفتاة وهى تقوم بدلال وتمسك يده المكتنزة وتقول :

- أنا أعرف كل أسئلتك وعندى من سيجيب عليها كاملة.. صدقنى ستفهم كل شىء بعد قليل.. تعال معى..



نهض البدين خلفها وسارا معا إلى أن دخلا الفيلا.. ثم إلى السلم المفضى للطابق الأعلى، صعد وراءها بصعوبة وهو يلهث ثم اقتاده لحجرة مفتوح بابها.. طلبت منه الدخول ريثما تحضر شيئا وتعود له..

غمره الشك للحظات.. نظر للحجرة المظلمة ودلف للداخل بخطوة.. امتدت يده تبحث عن زر الإضاءة، وما أن غمر الضوء الحجرة حتى وجدها جالسة أمامه بكامل غضبها..

(هناء)..

***

الفصل التاسع

الأمل..

سلاح قوى بيد الشيطان وتحبه النفس للغاية.. أنت تأمل فى حياة كريمة لذلك قد تفعل ما لا يمكنك تخيله من أجل لقيمات.. أنت ترى قتلة يقتلون بشرا آخرين من أجل هاتف محمول أو حفنة نقود.. الأمل فى سعادة وراحة أو حتى الشبع بعد وجبة شهية ..

الأمل ..

أنت ترى الأمل يتجسد من حولك ويصنع من جسد هامد لا يقوى على فعل شىء جسدا صلبا يتحرك بطاقة الأمل ليحقق هدف لو تحقق لصارت الحياة أجمل..

عبارة بسيطة للغاية لكنها تعبر بشدة عن حال (راؤول) بعدما قرر أن يستكمل رحلته الشيطانية الرهيبة على أمل أن تعود زوجته وأسرته إليه مرة أخرى..

انطلق بإيعاز من الشيطان نحو فئة مختارة بعناية من البشر يبث فيهم رغبة القتل..

يوسوس لهم كم أن القتل جميل رائع وممتع، إذ أن ما فعله مع (فلاد) الوالاشى لاقى استحسان كبيرهم للغاية ويريد أن يرى المزيد!

فكان المزيد..

غوى امرأة من أقارب فلاد أن تستحم بدماء العذارى من قريتها لتحصل على شباب أبدى !

وغوى رجلا من نبلاء فرنسا أن يختطف الأطفال ويصعد بهم لبرجه كى يمارس فيهم رذيلة مقززة بعدما يسكرهم، ثم يستمتع بتقطيع أيديهم وأرجلهم بالسكين ليتركهم يموتون من النزف والألم !

وغوى إحدى نبيلات أسبانيا كى تلتهم لحم المساجين المشوى شرط أن يتم شى قطع أجسادهم وهم أحياء !



وغوى رجلا انجليزيا أن يتحدى زملائه لقتل أكبر قدر ممكن من المشردين خلال أسبوع وكانت النتيجة اكثر من ألفى رأس مقطوع احتفظ بهم فى فخر فى قبو منزله لأنه لم يتوقف على مدار أعوام !

فى أسبانيا كانت غالبية آلات التعذيب بإيعاز منه !

وكان الاستمتاع بالقتل بإيعاز منه !

الغريب أنه كان يفعل كل ذلك بقلب ميت وإدارك لا يعى سوى هدف واحد ..

أن تعود له أسرته !

لذلك كانت الاستمراية هدفه خاصة وقد سيطرت عليه أحلام تمثلهم كل يوم.. ينام فيرى زوجته تجرى فى مروج خضراء رائعة الجمال نحوه تحتضنه وتقبله فى مرح، ثم تراقصه على أنغام هادئة تعزفها بنتها يرافقها صوت (بيتر) الجميل، وعندما يستيقظ يشعر بطعم قبلتها على شفتيه.. فينطلق إلى واحد جديد يوسوس له جنونا جديدا..



والخاتم يحوى كل ذكرياته داخله وكأنه مسجل حديث !

الخاتم الذى حصل عليه (راؤول) خاتم لم يوجد من قبل قط، إذ أنه ينقل كل الخبرات والأحداث لعقل ووجدان من يختاره (راؤول)، بحيث يرى النائم نفسه مكان من يقتل ويذبح ويلتهم البشر، بل ويستيقظ ليجد نفسه ملوثا ببعض دمائهم أيضا أو يجد بعض دمائهم على الفراش جواره.. وهو ما يساعده فيه ذو السواد بنفسه، الذى يطعم هؤلاء حلواه السوداء الجذابة مرة المذاق..

جنون مطلق !

على فترات متباعدة كان (راؤول) يستيقظ بلمسة حانية من يد زوجته ليجدها جالسة أمامه واضعة كفها الرقيق على فخذه وما تلبث أن تذوب فى الهواء..

وكل مرة يُقال له أنه يقترب من هدفه أكثر عندما يتم الرضا عنه الرضا الكامل !



ولم يأت الرضا الكامل قط !

دار (راؤول) حول العالم يعطى الناس خاتمه ويغويهم، ويوسوس لهم ذو السواد ويطعمهم إلى أن يصيروا قتلة محترفين فيتركهم مستعيدا خاتمه الأصلى تاركا لهم نسخا مشابهة يأتى بها ذو السواد لكن بلا تاثير على الإطلاق، ليختار ضحية أخرى..

ولكن..

(راؤول) فى النهاية بشر..

إنسان..

إنسان له قوى شيطان، لكنه يملك مشاعر إنسان.. تمر السنين عليه والوعد لا يتم، والعالم يتغير.. السنين تزداد لتصير قرونا !

قرون تمر والعالم يتطور وهو يحدوه الأمل وتسيطر عليه الأحلام بينما يصنع هو القتلة السفاحين فى



العالم بأسره، حتى أدركه اليأس التام أن كل مايفعله مجرد هراء !

كل ما يقوم به إنما هو شر مطلق من قبيل الشر المطلق ليخدم به الشر المطلق فحسب !

مات الأمل فى قلبه ..

كان ذلك عندما استيقظ بعد حلم جميل من زوجته المتوفاة.. فتح عينيه فى غضب وهمس :

- لقد مللت.. أنا فعلت أضعاف ما ينبغى لى ان افعله.. ألن تعود زوجتى واسرتى ؟

كان يعلم أنه ليس وحده، لذلك رفع صوته المرتجف الغاضب قائلا:

- ألن تعود أسرتى مرة أخرى أم لا ؟

جاءه الهمس الماكر :

- لا..

أعقبه صراخ مذعور عندما ظهر ذو السواد فجأة من العدم ممسكا عنق أحد الشياطين جوار عنق (راؤول) ثم اشتعل الشيطان الأحمق فجأة ليصير رمادا فى لحظات !

سيطرت على (راؤول) الكلمة القاسية.. لا !

نظر لذى السواد متسائلا :

- لا ؟

بادله نظرات جامدة ثم هز رأسه نافيا فى بطء، أعقبها صرخة عاتية من (راؤول) الذى نهض لينقض عليه بكامل جنونه وغضبه وقسوة قلبه البارد وإحباط مئات السنين بينما تبكى عيناه ماءا ملتهبا ليختفى الشيطان من وجهه بغتة ويجد نفسه وحيدا تماما تتعالى من حوله زمجرات خفيفة غاضبة أن يهدأ..

ارتفع صوته بالصراخ الغاضب :

- أريد أسرتى..



أريد أسرتى عليكم اللعنة..

أريد أسرتى أيها المخادعون..

أريد أسرتى الآن..

أريد أسرتيييييى !

ولم يرد عليه أحد ..

فقط ساد الصمت المطلق..

لا صوت سوى بكاء (راؤول) ونواحه وصراخه وعوائه المستمر..

وحيدا !

***

مكتوب بين النجوم ..

أنى ..



أحبك !

***

سمع (محمود) صراخ زوجته المذعور فانتفض من مكانه يعدو إلى الأعلى ليجدها تنظر لذلك المخيف المرعب ..

(أنوبيس) ..

كان واقفا على سطح المركب ينظر للسماء ويرفع يديه للأعلى كأنما يدعو أو يصلى مستغرقا تماما فى ذلك بحيث لم ينتبه لهما من الأساس، ثم خفض يديه والتفت تجاههما ببطء ثم أشار لهما بإصبعه الطويل أن اسجدا..

على الفور سجد (محمود) لكن زوجته ظلت واقفة تطلق الصرخات المتتابعة.. حاول (محمود) أن يجذبها لكنها لم تتحرك ! نهض ودفع بها دفعا نحو الأرض لتتملص منه وهى تطلق صرخاتها المتتابعة أمام عينى المسخ الغاضب، وفجأة تحرك من مكانه ناحيتها

يدبدب فى أرضية الزورق دبيبا قاسيا وبعد لحظات كان فى قلب الحجرة ينظر لها بغضب.. وهى مازالت تصرخ وكل فتحات وجهها تنضح بالسوائل ..

صرخ (محمود) أن لا يؤذيها من فضله وأنه يسجد له.. وقرن كلامه بسجوده مرتجفا له، بينما تراجعت زوجته نحو جدار قريب وصرخاتها تزداد علوا وهى تشير للشيطان القريب !

تحرك (أنوبيس) ببطء نحو الزوجة المذعورة فاقدة العقل ونظر نحوها لبضع لحظات، ثم نقل نظره بينها وبين (محمود) الساجد المرتجف وكأنما يفكر ثم..

بحركة خاطفة غرس أصابعه فى صدر المرأة التى أطلقت شهقات عنيفة وجسدها يرتجف والدم يتناثر من شدقيها.. ظلت هكذا بضع ثوان ثم انتزع المسخ يده حاملا قلبها وضع ضلوع متكسرة حوله أزاحها برفق قبل أن يضع القلب فى فمه وسط صرخات ونهنهات (محمود) الباكية المترجية وهو مايزال ساجدا أمامه..

ساد الصمت قليلا ليرفع (محمود) عينين غائمتين بالدموع عن الأرض ليجد المكان خاليا ويجد زوجته فارغة الصدر من القلب ..

ومن الحياة !

نهض كالملسوع يحتضنها ويقبلها ويأخذ رأسها فى حضنه وهو يصرخ، بينما كان ضوء الشمس الوليد يظهر على استحياء ليشتد تمزق لقب (محمود) على امرأة لم يحب قدرها فى حياته !

***

عندما رأى (شوكت) الفتاة جالسة أمامه اتسعت عيناه فى ارتياع وهو يلتفت تلقائيا يحاول الهروب ليصطدم بجسد أسود الملابس عفن الرائحة ويسقط أرضا، بينما أتاه صوت المسعودة مرحا تقول له :

- يا سيد (شوكت) بقى أن اقول لك أن صديقتى البلهاء هى (هناء)، وأبوها الفقير الذى آمن بقدرتى هو (محمود) بيه صديقك، والباقى أنت استنتجته حتما..

وبالمناسبة سأخبرك سرا لن يعرفه أحد غيرك : اسمى (نجلاء) !

ومن خلف (نجلاء) دخل ثلاثة رجال حملوا البدين حملا إلى لوح خشبى ثقيل الحجم موضوع على الأرض يبدو أنهم أحضروه خصيصا له، وبمسامير قوية طويلة بدأوا يدقون يديه وقدميه إلى اللوح على الرغم من صرخاته المتألمة التى تحمل قدرا هائلا من الفزع والألم والذعر .

ما أن انتهوا حتى خرجوا من الحجرة تاركين (هناء) ورفيقها ينظران للبدين المسجى على الأرض يهمهم وينبح من الألم، بينما قالت (نجلاء) :

- عندما تنتهين منه اغتسلى فى الحمام المرفق وارتدى الملابس التى وضعتها لك.. سأكون بالاسفل ! وبالمناسبة لقد وضعت لك كل ما أمكننى من أدوات مساعدة !



أومأت لها (هناء) دون كلمة ثم أغلقت الباب خلفها بهدوء وهى تلتفت ل(شوكت) البدين لتبدأ انتقامها منه الذى – ربما – شفى جزءا من غليل قلبها..

حسنا.. أن اصف لحظات ألمه وعذابه هو شىء محبب للغاية إلى قلبى لأنى لا أطيق هذا البدين شبيه البقرة، لكن يمكنك أن تتخيل عندما تشاهد عينا مفقوءة وأذنان مقطوعتان وبضعة أصابع متناثرة، وفمه محطم الأسنان، وجسده المغطى بالجروح بالكامل كأنما سارت عليه بطرف السكين ذهابا وإيابا مرارا وتكرا، وهناك ما يبدو كعضو ذكرى مبتور منه !

وفى النهاية نزعت جلد صدره بالكامل وهو حى.. إنه لمن الرائع أن تنزع عنه كل دهون بطنه هذه لترى رئتيه تتحركان، ومنها تشق قفصه الصدرى وتنزع قلبه أمام عينيه لتغيب عنهما الحياة للأبد !

انتهت منه أمام عينى رفيقها الذى ساعدها، ووقفت تلهث وهى تنظر لجثة البدين..



أشاحت بنظرها بعيدا فى شرود ثم نظرت له مرة أخيرة ورفعت عينيها للواقف وقالت بحسم متسائل :

- بقى أمر واحد وأحقق لك ما تريد ؟

أوما برأسه أن نعم.. فأومأت برأسها هى الأخرى ودخلت لتغتسل، ثم ارتدت الملابس الموضوعة ونزلت لصديقتها التى ما أن رأتها حتى أشارت للحراس بالصعود، فصعدوا ومعهم ستة أو سبعة كلاب شرسة تبدو جائعة.. من المفهوم طبعا ماذا ستفعل هذه الكلاب !

اختفى رفيقها الأسود مؤقتا، بينما وضع أحدهم طعاما أمام الفتاتين لتبدأ (هناء) مع صديقتها فى التهام الطعام بشهية وليدة لم تتمتع بها منذ وفاة وليد !

كانت (نجلاء) ترمق صديقتها القديمة بملامحها الوديعة التى صارت قاسية بشكل ما.. عندما أتت لها تحكى ما أصابها وتبكى لم تتمالك نفسها هى الأخرى وبكت.. هى تعيش هنا وحدها من فترة طويلة.. مما



لم تحكه ل(شوكت) أنها محكوم عليها بالوحدة.. محكوم عليها بعدم الزواج والذرية وهو عقاب سرقتها المقابر.. وأنها حكت لشخص واحد فقط تثق به..

(محمود)..

وهو الوحيد الذى تفهم موقفها وابتعد بنفس راضية وإن لم يوقف التعامل معها تماما، إنما ترك المعاملات للريس (متولى).. ربما كان (محمود) وغدا هو الآخر ولكنه سبب ثراءها.. وربما كان سبب تعاستها الآن، ولكنها تعاسة تجوب العالم وتنهل من خيرات الحياة بلا حساب، لذلك عندما طلبت منها (هناء) أن تستقبل (شوكت) وتؤخره لغروب الشمس فحسب رحبت بشدة.. خدمة بسيطة فعلتها بنفس راضية..

مالم تخبرها (هناء) به هو : لماذا غروب الشمس ؟ وكيف عرفت أن (شوكت) قادم إليها أصلا ؟ ومن رفيقها حقا ؟



أسئلة ظلت تدور بخلدها ثم لم تستطع الكتمان، ثم تعاظمت دهشتها عندما أخبرتها انها لا تدرى !

لا تدرى ؟ !

أومأت نجلاء برأسها وهى تعود للخلف فى مقعدها.. الفضول يشتعل داخلها لكن لا سبيل إلا الانتظار ومتابعة ما سوف يحدث إن سمحت لها (هناء)..

وهو ما لن يحدث !

***

هام (راؤول) فى الأرض يبكى وينوح..

يبكى غباءه وينوح على أسرته التى قتلت ولم يستطع فعل شىء..

يبكى خسرانه دنيته وفردوسه وينوح من أجل غفران لن يناله !

لحظة.. ولماذا لا يناله ؟



اتسعت عيناه وهو يفكر فى شىء غاب عنه سنينا طويلة للغاية، أنه ابن آدم..

أنه إنسان..

أن باب الرب مفتوح على مصراعيه لمن يطلب فحسب، وهو لم يطلبها قط !

ما حدث أنه رمى نفسه فى أحضان الشر آملا فى سعادة كاذبة، فلماذا لا يعود للرب مرة أخرى ؟

وهل يمكن أن يقبله ؟

وهل يمكن أن يغفر له ؟

وما المانع !

اتخذ قراره وانطلق من فوره بسرعته الشيطانية نحو أكبر كنيسة فى العالم..

نحو الفاتيكان..



ما يلى صعب وصفه نوعا.. أن تصف مشاعر شيطان بشرى يتوب ! أن تصف مشاعر سفاح على باب التوبة !

وصل للكنيسة ودلف للمبنى فى خوف ووجل، بينما كانت الصرخات الشيطانية المتوعدة تحوطه من كل مكان.. وجوه مفزعة وأجساد مخيفة تصرخ فيه طوال الوقت ألا يفعل، لكنه دلف للكنيسة بأسماله السوداء العطنة..

دخلها كإنسان خاطىء يطلب الغفران !

مر جوار أحد القساوسة الذى رمقه مشمئزا ثم عاد لسيره متجاهلا إياه..

دلف للكنيسة وسار حتى وقف أمام المذبح مباشرة وركع ثم شبك يديه أمام وجهه ومن عينيه تحدرت دمعتان دافئتان نادمتان.. وبقلب تائب يطلب عفوا لآثام لم يرتكبها بشر من قبل صلى.. وبكى..



بكى كما لم يبك من قبل، ولكنه لم يقطع صلاته هذه ولا مرة، وإنما ظل على وضعيته هذه فترة طويلة حتى أن الناس تجمعوا من خلفه يشاهدون هذه الصلاة العجيبة التى يركع فيها رجل فى وضع ثابت يبكى منذ بضع ساعات منبهرين بإيمانه القوى، والتقطوا له عددا من الصور، وكان ذلك فى بداية السبعينيات.. أُطلق على هذه الحادثة وقتها اسم (صلاة الملائكة)..

ما أن انتهى (راؤول) من صلاته وتوبته حتى نهض من مكانه بهدوء، كان يشعر بالهدوء والسكينة الآن، ولم يتبق له غير شىء واحد فقط..

الاعتراف !

بهدوء دلف لغرفة الاعتراف وبصوته الصدىء قال :

- أبى.. لقد أخطأت وأريد الاعتراف..

***



قضى (راؤول) فى اعترافه السريع نصف ساعة ! كان مختصرا قدر الإمكان، وكان الأب يسمعه فى دهشة ممزوجة بالخوف.. ما يسمعه منه الآن هو جنون مطلق ولا يمكن أن يحدث على الإطلاق.. والجنون شىء وارد على كل حال، لذلك نصحه فى النهاية لكى تكون توبته كاملة أن يحاول مساعدة من يحتاج مساعدة، وأن يتزوج وينجب ولدا صالحا للدنيا وعندها فقط تكون توبته كاملة !

أومأ (راؤول) برأسه فى إرهاق.. على الرغم من أن جسده مازال شابا تقريبا، وملامح وجهه كما لو كان فى الأربعينات فحسب أو ربما الخمسينات بدايتها رغم كل التجاعيد، لكن روحه العجوز تأبى الاستمرار فى الحياة..

ربما حان وقت الموت..

ربما لو مات تائبا يستطيع مقابلة أسرته على الجانب الآخر ؟



ربما هناك فرصة إلهية ليجتمع مع أسرته وحبيبته مرة أخرى بعدما فشلت الفرصة الشيطانية الخادعة ؟

ربما..

سنرى..

***

كيف سيتزوج ذلك الأحمق، ألم يبتر طريقه للزواج كى يصير شيطانا ؟

لا أعرف !

***

ظل (محمود) محتضنا زوجته لساعات يهتز.. عيناه تحدقان فى الفراغ ولا يعرف ماذا يفعل ..

كم يتمنى أن يأتى ذلك الشيطان ليأخذ روحه كما أخذ روح زوجته..

لا يستطيع الحياة ولا يستطيع التنفس..



لا يستطيع تركها فهذا آخر عهده باحتضانها..

زوجته..

حبيبته..

من حلت محل أم بنته..

شريكة حياته..

ظل مكانه طوال النهار مذهولا لا يعرف ماذا يفعل.. لم ينهض حتى لشرب كوب من الماء.. لم يحرك ساكنا، وإنما ظل يهذى بكلمات لم يتبينها هو نفسه..

وفجأة بدأت الجثة تهتز فى يده وتحاول الحركة.. صوت الهواء فى رئتيها ينبعث من فمها برائحة كريهة وهى تحاول النهوض من مكانها..

للحظات لم يفهم ما يحدث تماما، ثم أدرك بغتة..

أدرك أنه يستدعيها لتصير وجبة فى معدته، فاحتضنها بقوة مانعا إياها من الحركة وهو يصرخ وعيناه تذرفان

الدمع تلقائيا..

اهتزاز الجثة يتزايد وهى تحاول النهوض وهو يتشبث بها فى قوة! يتمسك بها وهو يصرخ وبدا جليا أنه على وشك فقدانه لعقله هو الآخر حين أفلتت منه وسارت بخطوات بطيئة نحو الباب.. رمقها مذعورا، ثم نهض بسرعة ليسبقها نحو الباب ويغلقه بإحكام مانعا إياها من الخروج..

لو أراد ذلك ال.. أيا كان، لو أراد الحصول عليها فليقتله أولا !

ظل الباب المغلق يهتز قليلا أمام جثة زوجته ثم هدأ كل شىء وساد الصمت ..

لحظات صمت ..

لا صوت إلا أنفاسه العالية فحسب، ثم بدأ الغبار الاسود يتكاثف فى منتصف الحجرة.. (أنوبيس) يظهر من خلال الغبار الاسود ..



غاضب ..

يزأر ..

تسارعت أنفاس (محمود) فى هلع وقد أيقن أن النهاية أقرب إليه الآن من أى وقت مضى فى حياته !

***

هناك شعور معين بالاستسلام والبلادة يسيطر على الإنسان فى وقت الخطر المميت، وهذا الشعور رحمة من الله تعالى لأن الإنسان وقتها يتابع الأحداث التى تدور حوله وكأنما تحدث لأناس آخرين.. كأنما يشاهدون فيلم رعب فحسب، وبمعنى آخر هم يفقدون ارتباطهم بالوجود ولا وعى حقيقى لديهم ليفهموا ما يحدث على الإطلاق..

على سبيل المثال أولئك المحكوم عليهم بالإعدام.. أنت ترى السجين يسير بهدوء إلى حيث يعدمونه أيا كانت الوسيلة التى سيعدمونه بها ومهما كانت قاسية.. ذبح أو شنق أو حتى حرق ! ربما تتساءل بينك وبين



نفسك ما بال هذا الأحمق لا يدافع عن حياته ! لماذا لا يجرى بعيدا أو لماذا لايقاوم أى مقاومة من أى نوع ! السبب هو ذلك الشعور الدفاعى الذى يسيطر عليه فى هذه اللحظة القاسية من حياته، حتى أنك قد ترى المحكوم عليه بالموت يموت بلا علامات ألم واضحة على قسمات وجهه أحيانا !

حسنا.. هذه هى المرحلة التى سيطرت على (محمود) حين رأى (أنوبيس) أمامه غاضبا يبغى الدم ..

تجمد الموقف تماما وأغلق (محمود) عينيه بانتظار الألم العنيف الذى يعقبه غالبا غيبوبة لن يفيق منها فى هذا العالم.. صوت الخوار يصم آذانه، وسمع الخطوة الأولى للوحش وشعر بدبيبها على أرضية المركب، ففتح عينيه تلقائيا وعقله لا يفكر سوى فى ابنته.. كم يتمنى أن يلقى عليها نظرة واحدة الآن..

كم تمنى أن يودعها ..



وخطوة أخرى من الوحش حين ظهر من خلفه شخصان فجأة ودون سابق إنذار !

(هناء) ابنته وجوارها شخص مسربل بالسواد واقفان خلف الوحش مباشرة.. (هناء) و (راؤول) !

كان هذا هو الطلب الأخير أن تذهب إلى والديها كى تعود بهما إلى بيتها !

كان ظهورها محملا بالمفاجآت لكل الأطراف الموجودة، الأب اتسعت عيناه ملتاعا يهتف باسم ابنته، بينما ارتفع حاجبا الفتاة فى ألم وهى تضع يديها على فمها صارخة مع رؤيتها لجثة أمها الملقاة جوار الباب، بينما تجمد (راؤول) تماما يحدق فى الوحش المتجسد أمامه وقد دق قلبه فى عنف.. إنه يقف أمام أحد الملوك وجها لوجه !

وأقصد أحد ملوك الجن بالطبع !

من خلال خبرته الطويلة فى العوالم الخفية الغامضة كان يعرف أن الجن أنواع وقبائل، وكل قبيلة لها شكل



يميزها قد يكون غريبا علينا نحن البشر ولكن بالنسبة لهم هى عادية وربما تحمل لمسة من جمال أيضا.. هذه قبيلة تحمل رؤوس الجمال، وهذه تحمل رأس الثعباين وأولئك يحملون رأس التيس، وغيرهم يحمل رأس ابن آوى هذا.. قديما ظهروا للمصريين القدماء وأقنعوهم أنهم آلهة ونصبوا نفسهم فى هذا المنصب فعلا.. جعلوا المصريين يقيمون لهم المعابد والأضرحة العملاقة.. حكموا الناس بالحديد والنار وطلبوا القرابين قربانا تلو قربان، وكأنهم يرسلون رسالة خفية للسماء أن أقوى شعب على الكرة الأرضية يعبدوننا بجميع طوائفنا ويبتعدون عن عبادة الرب الخالق الحقيقى !

بضع وأربعون ملكا من ملوك الجن، تراهم على المعابد المصرية القديمة بصورة الآلهة وهم فى الحقيقة شياطين !

وهؤلاء من علموا القدماء السحر حتى برعوا فيه..



نقلوا إليهم العلم والمعرفة والقوة مقابل إعلان الخضوع والاستسلام !

لكن مع الوقت وظهور الأنبياء فى أرض مصر رفض البعض خدمة هؤلاء وتمردوا عليهم، وطردوهم من أرضهم أو ربما سجنوهم مثلما فعل نبى اللّه سليمان.. وربما كان هذا الواقف أمامهم أحد هؤلاء المسجونين المنبوذين إلى يوم الدين ! ومعنى سجنهم هذا أنهم محرومون من السير على الأرض.. محرومون من الحياة وسطنا نحن البشر ومحرومون من التجسد هنا.. إلا عند تحررهم بشكل ما وهو ماحدث هنا !

المهم..

تجسد (راؤول) أمامه وهو يعلم أنه أمام قوة جبارة لا قبل له بها.. وفى لمح البصر انقض (أنوبيس) عليه يحاول اختراق قلبه بيديه كما فعل من قبل مع غيره لكن (راؤول) اختفى مع (هناء) وظهر بغتة جوار (محمود) وأمسك بيده، ثم اختفى الثلاثة من على

ظهر المركب تاركين الوحش يزأر بقوة غاضبا من ذلك الذى اختطف فريسته من أمامه..

***

فيما بعد وجدت السلطات الإيطالية مركبا يسير بلا هدى فى مياهها الإقليمية ويرتطم بعدد من المركب الصغيرة مسببا بضع كوارث.. وعند إيقافه وجدوا المركب فارغا تقريبا إلا من بقايا ست جثث مرصوصة جوار بعضها بشكل يثير الدهشة !

***

وفى مصر جلس (محمود) محتضنا (هناء) وهما يجهشان سويا بالبكاء على ماحدث لهما.. فى خلال بضع أيام مات كل من يعرفونه تقريبا ولم يتبق سواهما !

كانت المفاجأة الأقسى على (هناء) وفاة أمها هى الأخرى (من حلت محل أمها فى الواقع لكنها تعتبرها كأمها).. والآن ليس لها من الدنيا غير أبيها فحسب..



أبوها الذى اتخذ قرارا لاحقا بترك الدنيا والمال والأعمال وغيره وأن يعيش مع فتاته وحدهما فى مكان متواضع.. لقد اكتفى من الذهب والثراء وأقصى أمانيه الآن أن يموت سريعا وأن يرضى اللّٰه عنه ويتوب عليه من سرقاته المتعددة !

ولكن..

مازال (راؤول) واقفا يتابع حديثها مع أبيها فى شرود.. كان شاردا يفكر فيما حدث بعدما قرر التوبة ..

يتذكر ..

بعدما صلى وتاب واتخذ قرارا بالتوقف عن أى شرور يفعلها، تعرض لهجوم شيطانى شديد تصدى له بكل المقدسات التى يمكنه حملها ونجح فى ذلك، إلا أنهم لم يتركوه وشأنه، فظلت الهجمات تتوالى واحدا تلو الآخر، والعجيب أنه كان دوما مسلحا بالماء المقدس ملاصقا لجسده ؛ لأن هؤلاء الشياطين يتألمون من أى رمز دينى !

الشيطان مسلح بالدين !

كانوا يفرون منه مما أعطاه إحساسا بالراحة والثقة، وهكذا رويدا رويدا ابتعدوا عنه وتركوه فى حاله يائسا باحثا عن شىء يفعله أو شخص ينقذه..

كان يشعر نوعا بوجود ذى السواد.. يعرف مكانه ويتبعه فى أى مكان يذهب إليه يحاول إفساد مخططاته على الناس من بعيد، وعندما رآه يساعد تلك الفتاة التى دفنوها حية مع عائلتها ويخرجها من قبرها قرر أن تكون هذه باب نجاته..

ستكون باب الفردوس..

وستكون الباب الذى يصل منه لزوجته !

وفى لحظة ما أحاط بها ورش عليها ماءه المقدس ففر الشيطان بغيظ واضح وهو يتوعده بعينين ناريتين.. الفتاة لم تلحظ شيئا غريبا وسط كم الخوارق التى مرت به، وربما ظنتهما شخصا واحدا فى النهاية..

أنقذها..

وأخرجها من القبر ..

واتفق معها..

سيساعدها على الانتقام الظفر بمن أنهوا حياتها ودمروها مقابل..

مقابل أن ..

تتزوجه لليلة واحدة فحسب !

ليلة واحدة ثم يبتعد عنها إلى أن تنجب وليدها وسوف يزورها لماما أو ربما يتابع أخبارها من بعيد ولن تراه مرة أخرى.. أخبرها أن زوجها توفى قريبا فلن يكون من الصعب أن يفهم الناس أنه ابنه.. لن يصيبها كلام الناس بضرر..

ليلة واحدة..

وعلى مضض وانهيار وافقت !



حسنا.. لحظة من فضلك أنا أعرف أن هذا زواج محرم لعدة اسباب دينية وأخلاقية وكل شىء لكن أنا أحكى لك ماحدث بالفعل، وأعتقد أن لاشىء هنا طبيعى من الأساس حتى تتساءل هذا السؤال الذى يدور فى ذهنك الآن والذى طرحته أنا منذ قليل !

يجب أن تعرف فقط أن هذه الفتاة تحديدا اختارها ليتحدى الشيطان أكثر وأكثر.. الفتاة التى اختارها الشيطان لتكون سفاحته الجديدة ستكون بوابة عفو (راؤول) ومفتاح وصوله لزوجته الحبيبة..

تخيل (مارى) وهى تستقبله بفرحة وشعرها الذهبى الجميل يتطاير خلفها بشكل جميل وطفلتاه تجريان نحوه تحتضنانه بينما يقول (بيتر) بابتسامة هادئة :

- افتقدناك يا سيدى..

وتهمس زوجته فى أذنه وعطرها يفعم أنفه:

- أوحشتنى..



أخذ نفسا عميقا للغاية ملأ به رئته العجوز وكتمه للحظات قبل أن يزفره بقوة ويفكر ..

لقد حان وقت اللقاء..

أفاق من شروده ليتنحنح وينظر ل(هناء) وبصوته القديم الصدىء قال لها :

- الليلة يا فتاة..

نظرت إليه فى جزع مستسلم.. الرعب وعدم التصديق يتملكانها، ولكن لافرار من الاتفاق ولا مهرب.. هى رأته ورأت ما بإمكانه أن يفعله.. هى أمسكت يده الخشنة عدة مرات وانتقلت معه بلمح البصر ورأت قواه الغير عادية.. هى لا تستطيع التراجع عن الاتفاق اللعين وإلا.. لا تدرى وإلا ماذا لكنه لن يكون شيئا جيدا على الإطلاق !

نظرت لأبيها نظرة طويلة، ثم نهضت وقبلت رأسه قبلة عميقة واستئذنته فى مهمة أخيرة ستفعلها ثم تعود له فى الصباح !



كانت نظراته كلها رجاء ألا تذهب ..

إنه بحاجة لوجودها ..

بحاجة للمسات يدها الحانية..

لكنها نهضت بوجه يغرق فى فيض الدمع وأمسكت يد (راؤول) ثم اختفى الاثنان بغتة من أمامه..

إنها المهمة الاخيرة !

***

- وأنا نتيجة هذا الزواج..

قالها وهو يسحب الخاتم من بين أصابعنا لننسحب بغتة من عالم الأحلام الذى غرقنا فيه لفترة طويلة لا أعلمها..

نظرت حولى للحجرة الكئيبة وأنا استجمع شتات نفسى ..

بينما استطرد ذلك الجالس بوهن :

- اسمى (هشام) !

***



الفصل العاشر

ويبقى الواقع أكثر جموحا من خيال الكتاب والشعراء ..

ويبقى الحب أكبر دافع للقتل !

ومن الحب ما قتل ..

ومن الحب ما عاش !

الهواء مكتوم ..

لا أستطيع التنفس ..

تفكيرى مشوش للغاية ..

الضباب يحيط كل شىء حولى ..

أنظر لرفاقى لأجد أنهم يعانون مثلما أعانى، والوحيد الذى يبدو ثابتا هو ذلك المريض ..

(هشام) !



لا أصدق.. كنت منذ لحظات أتنقل بين عوالم متعددة.. من مركب فى قلب البحر إلى حروب جبارة إلى حفر وبحث عن مقابر فرعونية و ..

مشاعر مختلطة تجتاحنى..

كل شىء تم وكأنى كنت هناك بالفعل..

كأنها ذكرياتى الخاصة..

مشاعر الكره والحقد والألم ..

والحب ..

رغما عنى رفعت نظرى للمكان الحقير الذى أجلس فيه أتأمله باختناق.. كنت منذ قليل نائما بجسد (راؤول) على أعشاب غابات أوروبا والآن أنا هنا..

فى منزل ضيق خانق فى قلب عشوائيات الجيزة !

أى جنون ..



انتظرنا بضع لحظات حتى نستفيق من كل هذا.. لحظة، أنت لا تعرف من هنا حقا.. ربما عرفت منهم أحدا لكنى نسيت أن أخبرك..

المقدم (حسن) – الدكتور (جلال) المختص بالماورائيات – الدكتور (خالد) الطبيب النفسى ل(هشام) – (هشام) المريض النفسى – وأنا..

من يعرفنى يعرفهم..

يعرف أن (هشام) – الذى لم نكن نعرف اسمه إلا الآن تعرض لتجارب مروعة.. رأى نفسه يقتل ويعذب أناسا كثيرين اثناء نومه ولجأ ل(خالد) الطبيب الملحد الذى هاجمته الشياطين بضراوة فيما بعد، وكانت النتيجة مواجهة رهيبة بين (ذو السواد) من ناحية وبين الطبيب ود. (جلال) و(هشام) من جهة.. هذه حكيتها فى (أرواح نجسة) .

والضابط (حسن) الذى تعرض بيته لمس رهيب ولمسات شيطانية جبارة انتهت بتنصيب أخته كاهنة



للشيطان، وانتهت بذبح زوجته وأمه بعد تنفيذ خمس جرائم مباشرة على اليوتيوب.. وكل ذلك برعاية كنيسة الشيطان للتحضير لعودة بافوميت للأرض والذى عاد جزئيا قبل أن تنسفه القوات المصرية نسفا.. وهذه حكيتها فى (إبليس يعلن عن نفسه)!

الآن أنت تعرف من هم..

وأنا ؟

أنا (أحمد زكى) وهذا يكفى للغاية .

التقطنا أنفاسنا نوعا وبدأنا نستعيد صافى تركيزنا.. أأنت معى ؟

ركز معى فى الحوار التالى إذن..

***

- وأنا نتاج ذلك اللقاء..

صمت للحظة قبل أن يكمل :



- وهو مالم أعرفه سوى منذ أيام قلائل..

بصوت مبحوح همس الضابط (حسن) :

- ولكن كيف ياصديقى ؟ ألم يبتر ذلك الرجل عضوه ؟ كيف صار ماصار وكيف جئت أنت للدنيا إذن ؟

ابتسم (هشام) ابتسامة شاحبة سرعان ما ماتت ثم قال :

- أعتقد أنى لا أدرى ولا يهمنى أن أعرف.. لاحظ أنك تتحدث عن أمى.. أنا أحكى لك ماحدث لكنى قطعا لا أحب مناقشة شىء!

أومأ الدكتور (جلال) برأسه متفهما وهو يقول :

- إذن.. هذا سبب رؤياك الغريبة منذ صغرك.. هذا سبب التجسدات الشيطانية لكل من تحاول الحكى لهم وفى طبيبك النفسى د.(خالد) للهجوم الشيطانى الذى يصيب من يعرفون شيئا من أسرارك مثل رائع.. إنهم يحاولون اجتذابك، وأى شىء أروع من أن يمتلك ابن



(راؤول) نفسه الخاتم ويقتل به الأبرياء.. لقد حاولوا معك كثيرا لكن بذرة الخير انتصرت داخلك ..

همس (هشام) :

- نعم.. ربما انتصرت داخلى بذرة الخير لكنى لم أعد أستطيع النوم.. لم أعد استطيع الحياة.. لم أكن أفهم ماحدث تماما إلى يومين مضيا.. حتى قرر الخاتم الإفصاح عن ما رأيتموه بأنفسكم !

أنتم لا تتخيلون الألم الذى أعيشه، وقد رأيتم كيف تمزق لحم صدرى عندما دلفت لعالمهم بضع ثوان فحسب ..

أخذ نفسا عميقا ثم أردف بصوت كالبكاء :

- إنهم يحاولون اجتذابى لعالمهم..

يحاولون قتلى عندهم..

وأنا.. أخاف الموت يا سادة..



أخاف الموت !

ران صمت مطبق بعد جملته الخيرة، قبل أن أتنحنح متسائلا :

- (هشام).. كيف وصل الخاتم إليك ؟ لست أعنى الطريقة طبعا لكن أقصد ماذا حدث ل (راؤول) حتى يصل الخاتم لك ؟

نظر لى نظرة فارغة، ثم قال بصوت مهزوز :

- سأخبرك.. لقد رأيت كل شىء منذ يومين والآن.. أنا أعرف ما حدث لكن الخاتم لا يريد الإفصاح لكم.. رباه كيف أشرح لكم ! استمعوا فقط :

***

نهاية (راؤول) :

قال (هشام) بنبرة بطيئة :



- تزوج (راؤول) (هناء) لليلة واحدة، ثم أعادها لمنزلها باكية محطمة الأوصال.. لم يكن الأمر سهلا وإنما كان مقززا بشعا للغاية خاصة مع عمره الطويل وجسده القذر.. بشكل ما يعلم كيف يجعل امرأة حبلى منه وقد فعلها ..

ما أن أنهى ذلك حتى همس لها أن بداخلها بذرته التى يجب أن تكون صالحة..

يجب أن تكون تكفيرا عن آثامه..

يجب أن تكون عمله الصالح الذى ربما شفع له عند القدير..

ثم اختفى من حياتها للأبد..

بالنسبة ل(هناء) فقد عادت إلى منزل والدها.. والدها الذى زهد الحياة وقرر أن يستغنى عن كل شىء.. بالفعل باع كل شىء يملكه وتبرع به للفقراء وللمساجد فى حركة تدل على جنون أصاب عقله هو الآخر، حتى



أنه لم يترك إلا منزلا بسيطا عاشت فيه (هناء) حتى منَّ الله عليها بالولد..

(هشام) ..

أنا !

الطفل الذى لم يكن يفهم شيئا ولم ير رجلا للمنزل غير جده الطيب الذى يقضى جل وقته فى المسجد، والذى مات وهو ساجد يصلى وتحاكى عنه الناس فيما بعد.. ربما لابد أن ترى قبسا من الجحيم حتى تقبل بقلبك على الجنة فيما يبدو !

رحمه الله ..

وهكذا عاشت الأم تربى ابنها تربية تظن أنها صالحة.. لم تتزوج ولم تفعل شيئا يذكر لأن أباها ترك لها شيئا من المال تعيش منه هى الأخرى..

وعندما صار الفتى فى الجامعة توفيت (هناء).. توفيت حاملة أسرارا مهولة لا يصدقها عقل.. المرأة



التى رأت زوجها يُذبح وأولادها يُذبحون ودُفت حية وقتلت خمسة أشخاص بعدما عذبتهم..

استخرجت قلوبهم بيدين مجردتين !

أما (راؤول) ..

ترك الدنيا وبحث عن دير يعيش فيه ليعبد الله كما يعرف.. منذ فترة طويلة قام بتعويذة الحياة ليعيش للأبد.. لم يكن هدفه الحياة للأبد على قدر ما كان يرغب فى عدم الموت.. لا يريد أن يموت قبل أن يحقق انتقامه، وعندما حققه لم يكن له رأى أو إرادة إلا ..

إرادة الشيطان !

ولربما لو استشعر غفران الرب قريبا لقام بإنهاء حياته بنفسه وسيستطيع فعلها بعيدا عن ذى السواد، وهكذا تراه جالسا يتعبد فى دير شبه مهجور بقلب سيناء..

وفى ذلك الوقت كانت الحرب بين المصريين واليهود على وشك القيام.. هو لا يعرف ذلك طبعا لكنه عاش هنا فحسب.. تقبله العباد هناك بصدر رحب وعاش بينهم بين الصلاة والعمل..

شهور مرت بهدوء لكن ..

ذات يوم قطع صلاته على دوى مدافع جبارة تدك الأرض من بعيد عند الساتر الترابى الذى أقامه اليهود، بينما الطائرات تملأ السماء وتحيل النهار لجحيم تهوى قطعه على الرؤوس بلا تمييز.. عم الذعر المكان خاصة مع تقدم الدبابات و ازدياد صوت الضرب والانفجارات، وسرعان ما تناثر الغبار فى الجو ولم يعد هناك مجال للهرب ..

الكهنة أصابهم الذعر وطفقوا يصلون لله تعالى، بينما انخرط (راؤول) وحده فى صلاة عميقة..

صلاة امتلأت بالبكاء والالم..

تدافعت لرأسه ذكريات دك القسطنطينية ..



ذكريات سقوط البلد ..

ذكريات جنونه..

وعلم بعدها أن حربا هائلة تدور بين فريقين فى الخارج فى حرب مذهلة تدك الأرض دكا وتحيل الجبال ترابا منثورا، وكلا الفريقين يملك قوى جبارة..

ربما لم يبال بكل هذا الجحيم الذى يدور من حوله الآن خاصة وأنه بعيد عنهم نوعا.. ربما لم يأمل غير فى وقت يقضيه فى طلب العفو فحسب !

لكن فى الليل شعر بمن يناديه فى الخارج.. الجو الحربى هدأ نوعا مع استمرار الانفجارات فى الأفق البعيد ورماد البارود الذى يملأ الجو، لكنه كان فى منطقة شبه معزولة كما قلنا، لذلك عندما سمع النداء الساحر نهض من لتوه وقلبه يدق فى عنف ..

إنه صوت (مارى) !

أرهف سمعه جيدا..



بالفعل إنه صوتها اليائس ينادى عليه من خارج المكان ..

لم ينس صوتها خلال مئات السنين ..

لم ينس وجودها ..

قلبه ظل محتفظا بصورتها فى الصدارة ..

لم يكن الأمر طبيعيا طبعا وهو يعلم ذلك، لكنه نهض فى حذر وفتح الباب لتطالعه الصحراء السوداء، ومازال يسمع صوت زوجته يأتى واضحا من قريب..

ربما من خلف هذا التل هناك ..

خطوة وراء أخرى ..

كم تمنى استخدام خاتمه الآن ليقطع المسافة بلحظة لكنه عاهد نفسه على خدمة الرب وعدم اللجوء للشيطان وأدواته مرة أخرى قط ..

خطوة وراء أخرى..



صوت الهمس يتوقف !

تلفت حوله فى توتر ليجد أنه وحيد فى قلب الصحراء والصمت..

أين الدير ؟

أين السماء المضيئة بصوت الانفجارات ؟

لحظات من التوتر والتردد قبل أن يتجسد أمام عينيه عدوه القديم ..

(ذو السواد) بنفسه ..

وجواره الملك..

ذلك العملاق ذو الخطم الطويل وعيناهما تحملان شرا هائلا، وضرب عقل (راؤول) الجملة التالية :

- الخائن.. هاهو الخائن.. هذا من منعك أضحيتك الأخيرة على المركب.. هذا من لم يوقرك وخاننا بنفس راضية ..



هو لك ..

نظر له (راؤول) فى خوف متوتر، ثم – بدون تردد - مس الخاتم ليختفى من هنا على الفور.. ليس هذا وقت الحفاظ على العهود على كل حال !

مازال يريد الحياة ليرى ثمرته تعيش ويتأكد من صلاحها ..

اختفى (راؤول) من هذا المكان ليهرب خلال الأجواء الشيطانية وظهر على ظهر دبابة إسرائيلية وخلفه ظهر (أنوبيس) يزأر !

لقد تبعه !

وبيده هائلة الحجم انقض عليه فى ضربة عاتية، لكن (راؤول) اختفى فى اللحظة الأخيرة لتصيب الأظافر القوية جسد الدبابة تاركة أثرا لا يمكن تصديقه !

فى نفس اللحظة ومن قلب العدم ظهر ذو السواد ليدفع الهوء بكفيه، وأمامه يظهر (راؤول) !



(راؤول) الذى سقط على الرمال وسط أعين الجنود المذهولة، ثم اختفى بغتة واختفى (أنوبيس) وذو السواد أمام أعينهم !

وفى موقع اشتباكات قريب ظهر الثلاثة يعدون بقوة.. (راؤول) يحاول الهرب من الهول القادم خلفه، و (أنوبيس) يحاول اللحاق به، وفوقهم ذو السواد محلق فى السماء يتابع ما يحدث بعينين تقطران حقدا وغيظا وشرا ! ووسط دوى الرصاص يجرى (راؤول) على الرمال لاهثا..

لا يستطيع البقاء فى عالم الجن أكثر من ثوان حتى لا يظفروا به، وفرصة نجاته فى عالم البشر أكبر بدرجة ما، عندما ظهر أمامه (أنوبيس) بغتة وأمسكه من ذراعه وأطاح به إلى أعلى بعنف بالغ فارتفع فى السماء كطلقة مدفع !

شعر (راؤول) أن ذراعه انفصل عن جسده وألم شنيع يغزو كتفه المخلوع وهو يطير للأعلى بسرعة خارقة مالبثت أن هدأت وبدأت رحلة السقوط، وسرعان ما



تجسد على صدره (أنوبيس) واقفا يدفعه دفعا للأرض كى يسحقه تحت جسده الضخم، بينما توقف تبدل إطلاق النار للحظات بين الفريقين أمام المشهد الخارق.. سرعان ماهبط العملاق كعامود ذهبى من السماء لتنفجر الأرض تحت قدميه..

لم يشعر بالجسد ينسحق تحته، فتراجع خطوة ليجد (راؤول) قد اختفى وذو السواد ينطلق بسرعة خارقة خلفه ويختفى، فيختفى (أنوبيس) خلفهما فى غضب وزئير رج المكان رجا تاركين الكل مبهورى الأنفاس مما رأوه ..

ليظهر الثلاثة على ظهر زورق حربى مصرى، ومنه إلى ظهر زورق ثانٍ، ثم زورق ثالث.. (راؤول) يعلم أن نهايته قريبة لكنه يحاول الهرب.. ربما كان ليهرب من واحد لكن اثنان ؟ قفز مرة اخرى لزورق كبير كأنه سفينة حربية صغيرة ليجد (أنوبيس) واقفا بانتظاره هذه المرة !



الزورق كان معدا بأسلحة متطورة، وظهور العملاق على مقدمة السفينة أثار ذعر الطاقم خاصة مع ميل السفينة من الأمام تحت ثقله، فى حين كان (أنوبيس) يمسك (راؤول) من رقبته ويرفعه عاليا تمهيدا للقضاء عليه حين :

بوم بوم بوم راتتتتتتتتتاك راتتتتتتتتتتتتتتاك !

انطلقت أسلحة السفينة كلها نحو العملاق الواقف لتدوى الانفجارات على سطح جسده بلا أى تأثير تقريبا ! لكنها جعلته يفلت (راؤول) الذى اختفى على الفور ووراءه ذو السواد، على حين صاح (أنوبيس) فى وجه الجنود صيحة جبارة غاضبة حملت جنونه وغضبه وغيظه وهو يضرب سطح المركب فى غيظ مخلفا فجوة كبيرة، ثم اندفع فى قلب الفراغ خلف الهارب ومطارده تاركا الجنود يرتجفون متسائلين عن كنه ماحدث للتو !

سرعان ما ظهر (راؤول) على الضفة الأخرى لاهثا فى عنف أمام كتيبة مقاتلة تتأهب للعبور.. فوجئوا بظهور



(راؤول) أمامهم وخلفهم ذو السواد ثم الوحش المتجسد.. على الفور فتحوا عليهم نيرانهم فى ذعر جنونى باتجاههم ..

وأصابوا (راؤول) مباشرة هذه المرة..

لقد انتهت قدرته على المراوغة مع أنفاسه اللاهثة..

انتهت قدرته على الهرب هنا ولم يستطع تفادى النيران .

لم يشعر بشىء والحق يقال فى البداية.. شعر أن جسده يطير للخلف بعنف، بينما رأى شيئا يسقط من السماء نحوه من عدة طائرات ..

طائرات الإسرائيليين تقصف هذا المكان الآن !

أنفاسه تلاحقت فى تلك اللحظة بينما اختطفه (أنوبيس) فى الهواء واختفى به قبل أن تسقط القنابل من أعلى على المكان الذى كان واقفا فيه منذ لحظات



لتدوى الانفجارات الرهيبة وسط الرمال وتسحق من فيه وما فيه ..

وفى مكان قريب بعيدا عن الحرب الدائرة رقد (راؤول) على الأرض ينز دما من ألف ثقب فى جسده ووعيه ينسحب تدريجيا.. ذو السواد يقول شيئا ويشير نحوه بينما يتقدم (أنوبيس) ضخما مهيبا بخطى واثقة نحوه..

هو لا يراهم فعليا لأن فى السماء وبين النجوم اتسعت ابتسامة زوجته وهى تمد يديها إليه، ومن خلفها ابنتاه واقفتان تبتسمان ..

حتى (بيتر) واقف ..

كلهم يمدون إليه أيديهم، ثم شعر بألم ساحق يخترق أحشائه، ومن وسط الرؤية المضببة رأى (أنوبيس) يضع أظافره الذهبية فى صدره.. سعل دما وأخذ شهقة اخيرة وهمس باختناق باسم رغم الألم :

- مارى..



أنا..

ولم يكمل جملته قط.. نطق ما نطقه ثم فاضت روحه لبارئها، بينما رددت الصحراء ضحكة مستهزئة تحمل شيئا من الغضب والحسرة على الرجل الذى لم يوجد مثله من قبل..

وربما لن يوجد مثله قط !

***

ساد الصمت للحظات، قبل أن يكمل (هشام) بنبرة مرهقة :

عندما مات (راؤول) كنت صغيرا.. وربما فكر ذو السواد أن من تمام الانتقام أن يصير ذلك الفتى الذى تقرب به (راؤول) للرب مثلما كان (راؤول) وألعن..

يريدنى ان أحل محل أبى !

هكذا مضى يأتى لى منذ صغرى إلى أن وهب لى خاتم (راؤول) ..



خاتم أبى.. ميراثى !

ساد صمت كئيب لبضع لحظات قطعه الضابط (حسن) :

- ولماذا (راؤول) ؟

نظرنا له فى عدم فهم.. لمح نظرة عدم الفهم فى عيوننا، فعاد يقول :

- أقصد لماذا اختار الشيطان (راؤول) ؟ ما المبرر ؟ إنه رجل كآلاف الرجال، فما الذى ميزه ليحدث معه كل ماحدث ؟

فعلا سؤال مهم.. نظرنا ل(هشام) الذى هز كتفيه فى حيرة وهو يقول :

- لست أعرف حقيقة.. ربما كان يعبث به وتطور الأمر ليصير ما صار فحسب.. ربما لم يكن مخططا لكل ذلك وإنما الأحداث سارت فى هذا الاتجاه فحسب دون تخطيط..

- والآن ؟

نطق بها الدكتور (جلال) فى هدوء، فأخذ (هشام) نفسا عميقا وقال بنبرة مرهقة متقطعة :

- والآن.. لاشىء ! أنا أراه يوميا فى كل وقت..

أراه عندما أغفل أو أنظر فى المرآة..

أراه فى وجوه الناس والصور المعلقة..

هو قادم نحوى وليتمن انتقامه..

أقولها لكم صراحة مرة أخرى : أنا أخاف الموت..

كل يوم أرى رسائله لى، يريدنى أن أذهب لمكان ما، وفى هذا المكان خلاصى..

لست أعرف كيف عرفت المكان لكنى أعرفه يقينا..

أعرف أين يوجد وأعرف شكله وأعرف كيف أذهب إليه ولكنى.. ربما كان خلاصى هناك بشكل ما بالفعل..

وربما.. !

- أنت خائف !

نطقها د. (جلال) بحكمة، ثم نهض من مكانه وربت على كتفيه بهدوء.. مرت بضع لحظات ثم سأله :

- وأين المكان ؟

- فى القسطنطينية القديمة.. (اسطنبول) ..

المكان فى القسطنطينية يا دكتور حيث بدأ كل شىء !

***

انتهت الليلة، ونهضنا جميعا نغادر المكان بعد التصريح الغريب.. فى الواقع لم يكن هناك شىء يمكننا فعله إلا الدعاء له.. أنا لن أسافر اسطنبول هذه لأنقذ صديقا من.. لا اعرف لكن أنا أبعد ما يكون عن هذه المغامرات، كما أنه معدم تقريبا وسفرى سيكون على حسابى على الأغلب، إذن فليتصرف هو.. هذه ليست أنانية ولكن ضع نفسك مكانى قليلا .

كذلك (حسن) لن يذهب معه فى مكان، بنتاه تحتاجان له بالإضافة لأخويه.. ود.(خالد) كذلك لم ينبس ببنت شفه خلال الجلسة وحتى عندما رحلنا.. لقد رأى هذا الرجل الكثير وأنا أعذره.. ربما هو حضر الجلسة فى الاساس من باب الفضول فحسب لكنه لم يعرض المشاركة ..

كما توقعت أنت عرض عليه د. (جلال) السفر لأنه الوحيد الذى يمكنه فعل مثل هذه الاشياء بدون وازع خوف حقيقى من شىء.. هو محارب لقوى الظلام ويسعده خوض هذه الحرب الأخيرة !

عدت لزوجتى وبيتى وبناتى.. ومن رسائل الفيس بوك عرفت خلال أيام أنهما سجلا الدخول إلى اسطنبول !

كم هو غريب د.(جلال) ! يذهب للقاء ابن الشيطان ثم يهتم بتسجيل الدخول للفيس بوك !

طبعا لم يستخدم (هشام) الخاتم فى الانتقال لأن فيه نهايته..

أما لماذا ذهبا لهناك أصلا، فمن وجهة نظرهما أن كل هذا يجب أن ينتهى.. من وجهة نظر (هشام) أنه ينقذ نفسه من موت وشيك، ومن وجهة نظر (جلال) أنه ينقذ نفسا.. من وجهة نظرى أنى يجب أن أتابع ما يحدث من بعيد فحسب !

وهذا ماحدث..



الفصل الحادى عشر

لكل شىء نهاية ..

ومن النهاية تولد البدايات الجديدة..

من قلب الموت تنبعث الحياة ..

ومن قلب اليأس يولد بصيص الأمل ..

ولكل شىء نهاية..

لكل شىء نهاية !

فيما بعد عرفت التالى :

بعد الدخول للمدينة، استأجر الاثنان سيارة وتوجها بها على هدى من إرشادات (هشام).. تارة يتولى هو القيادة وتارة يتولى د. (جلال) القيادة.. كانا يعرفان أن - على الأرجح - ذو السواد ينتظرهما فى مواجهة ربما تكون الأخيرة على الإطلاق.. الملاحظ أن الطريق



منذ انطلقا فيه وهو شبه فارغ ؛ إذ لم يريا سيارة قط تمر جوارهما.. الصمت داخل السيارة سائد، ود. (جلال) يقود السيارة إلى الوجهة المجهولة التى رسمها (هشام) على خريطة الهاتف الحديث.. حدد الموقع أليكترونيا وها هما ذاهبان .

العجيب أن (هشام) أخذته سنة من نوم ! كأنما يقتنص فرصة أخيرة فى النوم قبل أن تبدأ المواجهة الأخيرة، ورغما عنه أخذ يتذكر أحداث المواجهة الأولى..

المقابر البريطانية والموتى وجحافل الشياطين..

ذو السواد الغاضب والهلاوس..

القتل.. الدماء ..

السفاحين ..

كان (هشام) غارقا فى بحر من الذكريات والكوابيس، ومالبث أن فتح عينيه ليجد الظلام غطى السماء ولا صوت إلا صوت الإطارات فى قلب غابة مظلمة كئيبة..



هناك ضباب خفيف يزداد كثافة بمرور الوقت، بينما تجرى الأشجار الكثيفة على جانبى الطريق..

كان د. (جلال) يحدق فى المكان مأخوذا مشدوها..

لقد كان هنا من قبل..

لقد رأى (راؤول) يلهث فى هذه الغابات..

رآه يتعبد ويختطف الحيوانات ويقدمها قرابينا للشيطان ..

رآه يعدو بجنون بعدما أنقذه الشيطان من القسطنطينية..

نظر د. (جلال) لرفيقه وهمس :

- هنا كان (راؤول) يعيش ؟

- نعم ..



ابتلع ريقه للحظات، قبل أن يتأمل السماء العجيبة بالرغم من الضباب.. السماء تبدو حمراءا قاتمة اللون تلتمع فيها النجوم بشكل مقبض، ومن داخله تصاعد شعور قاس أنه لم يعد فى عالمنا العادى.. بمرور الوقت ومضى الطريق انتقل لمكان آخر.. صار فى عالم يستطيع ذو السواد المرح معهما فيه بحرية.. أرض مختلفة !

أشار (محدد المكان) إلى وصولهما للنقطة المنشودة، فنظر د. (جلال) لرفيقه وهمس :

- هنا ؟

أومأ (هشام) برأسه أن نعم.. توقف الدكتور يمين الطريق وترجلا، ثم – بخطوات مرتجفة - اقتحما سياج الأشجار سيرا على الاقدام لمكان قريب.. ومن وسط الأشجار لمحا ذلك المنزل القديم المتهدم، ومن الواضح أنه لم يمسه أحد طوال عقود أو قرون.. كان يبدو رهيبا وسط تراقص الضباب ومن حوله الظلام



وكأنما لا شىء فى العالم إلا هذا الكوخ الحقير فحسب !

شعر الرفيقان بانقباض قلب وصعوبة فى التنفس..

بدا لهما أن المنزل بنافذته الوحيدة كائنا أعورا يرمقهما بلزوجة مقيتة بينما تشكل بوابته فما لزجا مخيفا..

وبلا شك هو ينتظرهما بالداخل !

من ذات المكان الذى بدأ منه كل شىء..

كيف جاء إلى هنا من قلب المدينة ؟

الوكر الحقير الذى عاش فيه (راؤول) ! وما أهميته أصلا ؟

همس الدكتور:

- أعتقد أنه يلعب بأعصابنا فحسب.. لاتخف، وإنا إن شاء الله لمنتصران ..



ورغما عنهما تصاعدت ضربات قلبيهما كموسيقى تصويرية مفزعة لمشهد مخيف، والسؤال يقحم نفسه على عقليهما : هل سندخل هنا ؟

ظلا مكانيهما للحظات قبل أن يأخذ د. (جلال) نفسا عميقا وينظر لرفيقه قائلا :

- هيا بنا..

هل قالها بنبرة يأس أم أن صوته كان مرتجفا فحسب ؟ عموما هو ليس لديه شىء ليخسره.. ليس لديه إلا حياته التى يخاف عليها، وإن انتهت فيرجو أن تنتهى بسرعة وبلا ألم .

هكذا جرجرا أقداما مرتجفة نحو الكوخ القريب ..

خطوة تلو الأخرى وسط الغصون والأعشاب تحت قدميهما حتى وصلا للباب..

باب خشبى كبير ليس فيه إلا نقش دائرى فى المنتصف يحمل دعوة صامتة لوضع فيه ضمان حياته

الوحيد..

الخاتم..

أخرجه من جيبه وظل يقلبه بين يديه للحظات وهو ينظر لرفيقه.. نظراته تحمل تساؤلا رهيبا : «هل أفعلها ؟ »

أومأ د. (جلال) إيجابا برأسه فى بطء..

أخذ (هشام) نفسا ثقيلا و ..

ببطء دس الخاتم فى الفتحة الدائرية.. لم يحدث شىء للحظات، ثم أصدر الباب تكة وانفتح بصرير المفصلات الصدئة فى دعوة أخرى للدخول، بينما سقط الخاتم على الأرض بإهمال وكأنما يخبرهم أنه غير ذى عون لهما حتى ولو ظل معهما !

انحنى (هشام) والتقطه، ثم مد قدمه يتبع د. (جلال) إلى قلب الظلام، ومن خلفهما عاد الباب يصدر صريره لينغلق عليهما ويبتلعهما الظلام الموحش !



***

للحق كان د. (جلال) يدرك أنهما ربما لن يخرجا من هنا أبدا.. ربما هما فى أضعف حالة لهما على العكس من العدو المتربص فى الظلام.. هذا الظلام المخيف المتجانس.. ظلام يشبه فقدان الرؤية !

وقد خيم الصمت على المكان أيضا إلا من بعض همهمات قد تكون محض خيال فحسب.. هذا الظلام مؤذ للعين والأذن معا !

ومن ركن الحجرة التمع ضوء خافت.. ضوء مرآة كان (راؤول) ينظر فيها قديما ليرى ما يريده الشيطان أن يراه.. تقدما بخطوات مرتجفة وكلاهما يخشى النظر لكنه نظر..

رأى (هشام) نفسه يَقتل..

يذبح طفلا بلا اهتمام..

يطلق النار على امرأة فى وسط الشارع..



يشوى جسد رجل وهو حى..

ورأى د. (جلال) نفسه يمد يديه ليسرق أمه..

يمد سكينه ليقتل الدجال..

يمد عينيه لدراسة السحر المحرم ..

رأى كلاهما أسوأ ما فى مكنونات نفسه حتى وإن لم يفعلها، وكلاهما لا يدرك أن صاحبه لا يرى شيئا مختلفا..

شعرا بالتعرى والضياع والضآلة للحظات حتى خبا الضوء وعاد الظلام يبسط سطوته على المكان، مع صوت زئير خفيف من لا مكان، ثم – بلمسة عقلية ناعمة – سمعا الصوت اللعين يقول :

- مرحبا.. فى آخر يوم لكما على الإطلاق !

***



ومن وسط الظلام التمعت عينان حمراوان غاضبتان أمامهما مباشرة، وجوارهما زوج عيون آخر فى مستوى أعلى بكثير وكأن صاحبهما يقف على سلم أو.. هو عملاق من الأساس !

ببطء وصوت متحشرج همس (هشام) :

- لماذا.. لماذا لا تدعنى وشأنى فحسب ؟!

ساد صمت مقبض قبل أن تتوهج المرآة مرة أخرى و..

تتحرك !

انفصلت عن الحائط بنعومة قبل أن تطير إليها بسرعة كبيرة وهى تكبر وتكبر، فرفع الرجلان يديهما للحماية وأغمضا أعينهما فى حركة غريزية قبل أن ترتطم بهما بقوة، لكنهما لم يشعرا بالألم ! فتحا عينيهما ليجدا نفسيهما واقفان فى مكان عجيب للغاية..

بهو واسع ضخم مبنى على الماء ! المياه المالحة تحيط به من كل اتجاه، بينما يمتلىء البهو بأشكال



غريبة.. بشر برؤوس حيوانات على الأغلب تتراوح أحجامهم بين الضخامة والضآلة، وكلهم صامتون ينظرون لذلك الجالس على عرش رائع الجمال.. هو نفسه رائع الجمال بوجه صاف وجسد جميل وخلفه جناحان أبيضان رائعان.. التقط الاثنان أنفاسهما المبهوررة قبل أن يقول الجالس بصوت رقيق :

- إنما سنعبث بعقولهم.. فقط سنعبث بعقولهم.. أنا كنت بالأعلى ورأيت الملائكة تندهش من المخلوق الغبى الذى سيسفك الدماء.. مخلوق يقتل بنى جنسه بيديه ! وسمعت رد الخالق وهو ينهاهم عن التفكير ويخبرهم أنه يعلم ما لا يعلمون ..

مخلوق غبى..

طين..

ماء وتراب لا يسمو لنا نحن أنقى درجات اللهب..

لا يرقى للملائكة أنقى درجات النور..



مخلوق غبى عفن !

ودون نقاش أمرنا بالسجود.. ولماذا أسجد له وأنا لست ملاكا ؟ ولماذ أسجد له وأنا لست مقتنعا ؟ ولماذا أسجد له وهو ليس ربى ؟

فطردنى ربى ..

ويومها بدأت مهمتى.. يجب أن تفهم الملائكة أن هذا أسوأ مخلوق.. يجب أن يحقق ما تعجبوا منه.. يجب أن يسفك الدم !

وعليكم أن تحققوا ذلك..

اغووا ذريته..

لا تتركوهم دون وسوسة..

لا تقتلوهم ولا تؤذوهم، إنما فقط وسوسوا لهم، فهذا طريقنا الأوحد للفردوس ..

هذا طريقنا الأوحد للفردوس ..



هذا طريقنا ..

الأوحد ..

للفردوس !

دق قلب جلال بعنف.. إنه يغوى ويضل الأبالسة أنفسهم !

أى شر ..

بل أى مكر !

كان الاثنان يتابعان ما يحدث حولهما بخوف رهيب.. هل هذا حقيقى أم هو وهم آخر ؟

ولكن قطع التساؤل أن ذاب المشهد ليظهر مشهد آخر :

الملك ذو الجناحين الأبيضين يقف أمام طفل شديد الوسامة يرتدى ملابسا سوداء لا تدرى ماهى.. يضع كفه على شعره الفاحم ومن حوله تتناثر شرارات اللهب وهو يهمس همسا مدويا :



- أنت ابنى..

أنت الملك الأصغر هنا..

أنت الأقوى والأكثر تأثيرا..

كلهم ينظرون لك..

وكلهم مبهورون بك..

وكلهم يتمنون فشلك ليشمتوا فى..

لا تفشل ..

لا تترك البشر ينعمون..

لا تترك ضحاياك خلفك..

ابتعد عن كل معركة تشعر فيها بالخسارة ..

أنت الأقوى ..

أنت ابنى !

ويذوب المشهد مرة أخرى ليظهر مشهد ثالث لذلك الجالس على العرش وهو يمسك ذو السواد وقد صار شابا قويا الجسد وقريب للغاية من الحال التى رأوه عليها.. أو ربما هى نفس الحال لكن وجهه يحمل أسفا وحزنا وغضبا فى مشاعر متباينة.. بالفعل تغيرت ملامحه تغيرا مريعا وهو يصرخ بصوت زلزل المياه من تحت الأقدام:

- فشلت.. وتاب العاصى.. تاب من أدخلته بيننا، وعليك أن تصلح ذلك وإلا فأنت هالك ..

هالك ..

تهلك بعد عذاب يتحاكى به كبار الشياطين قبل صغارهم..

إن عدت هنا دون انتصار ..

لن ينتصر علينا هؤلاء قط.. والموت ..

جزاء وحيد لك !

انتهت المشاهد وانسحب الضوء ليسقط الرجلان جالسين يلهثان.. الآن فهم (هشام) أن ذا السواد يدافع عن حياته هو الآخر بشراسة، لكنه لا يستطيع المساس به.. يريد منه فقط أن يصبح سفاحا كى يرضى عنه سيده !

وفى قلب الظلام بدأت الحدود الخارجية تظهر الواقف فى الظلام..

ورغما عنه تساءل (هشام) بينه وبين نفسه للمرة الألف فى حياته :

- هل الموت مؤلم ؟ إنهم يقولون أنه غير مؤلم للدرجة التى تتصورها.. ربما هو أشبه بالسقوط فى غيبوبة فحسب.. أنت هنا ثم تفقد وعيك لتستيقظ فى الجانب الآخر.. المؤلم فقط هو العذاب السابق للموت.. ربما مرور السكين على عنقك.. اختراق الرصاص لجسدك.. انفجار شرايين رئتيك عند الاختناق.. وفيما عدا ذلك لا شىء !



كان يفكر فى ذلك عندما همس د. (جلال) له :

- إنه فى حاجة إلينا ياصديقى ..

رد الواقف عليهما بصوت ثقيل قاس :

- نعم.. أنا فى حاجة إليكما.. أنتما فرصتى الوحيدة ! لقد رأيت أن تشاهدا ما شاهدتماه كى تفهما أن.. لا خروج لكما من هنا منتصرين أبدا !

اليوم سأعود لأبى منتصرا.. واليوم ستتدفق جحافل قبائلنا على الأرض تحتفل بانتصارى الذى تأخر كثيرا ..

أحدكم سيخرج من هنا سعيدا ينعم بحياته للأبد ولن أتعرض له قط، وكل المقابل لكى يعيش أحدكما هو..

أن يقتل زميله !

***

من وسط هذه الأحداث تسارعت الأفكار فى ذهن د. (جلال).. هذه تضحية مقيتة ليمرح الشيطان.. ربما يشاهدونهم قومه الآن فى حماس كما نتابع نحن حلقات مسلسل سخيف، وأغلب الظن أيضا أن (أنوبيس) العائد واقف معه الآن..

وغالبا لن يخرج أحدهما من هنا حيا ..

هذه تضحية لازمة لهم..

أن يقتل أحدهما زميله إرضاءا للشيطان، وربما منَّ عليه الشيطان بالعطايا أو ربما أنهى حياته بنفسه فيما بعد، لذلك من المستحيل أن يفعلها هو.. وربما لن يفعلها رفيقه !

لكن الواقف يكمل :

- ومن يمت منكما لن يموت للأبد.. هى لحظات موت فحسب.. لحظات وسأعيده للحياة مرة أخرى.. لا مطالب سوى ذلك ..

غمغم د. (جلال) فى تهكم :

- مثلما انتظر (راؤول) قرونا لتعيد إليه زوجته ؟ أم مثلما أردت فعل المثل مع (هناء) ؟

اشتعلت عينا الواقف للحظات وبدا انه تفاجأ بالرد، لكنه رد :

- هما غبيان.. هو أراد التصرف وحده، وهى لجأت له.. أنتما لستما على نفس القدر من الغباء.. لقد خسرتما كل شىء فى مواجهتى، لكن الآن.. بوسعكما الخروج من هنا بشروطى !

كانت الكلمات تدغدغ مشاعر (هشام).. ربما كان الواقف على حق ؟! لقد حاول كثيرا الخروج من هذا الأمر ولكنه لم يفلح.. حاول النجاة بنفسه أكثر من مرة وفشل.. حتى عندما استسلم للموت نفسه فشل.. أيقتل زميله وينتهى الأمر ؟

ولكن.. متى كان الشيطان صادقا !

- لا تحاولا التفكير فى مخرج ما.. أنتما هنا وأنا باق هنا إلى موتكما، ووقتها ستدفعان ثمنا غاليا للغاية !

لكل منكما زوجة عاشت معه فترة قصيرة ثم انفصلتم.. مازال قلبكما معلق بهما، وربما لن أتركهما فى حالهما.. ربما هما من صارتا دميتى الجديدة.. بل ربما بدأت ذلك بعد قليل ..

فكرا ..

موت للحظات ثم أختفى من حياتكما للأبد !

مرت لحظة صمت قبل أن يقول (هشام) بصوت مرتجف وهو يحدق فى الخاتم :

- ولكن.. هناك طريقة أخرى..

قالها، ثم وضع الخاتم فى إصبعه وانقض على الواقف أمامه !

***



الخاتم له خصائص فريدة كما لابد أنك تعرفها الآن ..

ينقل الإنسان بحرية بين عالمين.. يجسد الرجل فى عالم الشياطين، وينقل معه ما يريده أن ينتقل ..

ولم يكن لدى (هشام) ما يخسره على الإطلاق هنا.. ربما هو يستطيع الآن التحرك بحرية نوعا لأنه يدرك أن أحدا من أعوان الشياطين لن يتدخل فى هذه المواجهة لأنها مواجهة ذو السواد وحده.. لذلك اندفع إلى عالمهم بعدما ارتدى الخاتم وانقض على ذى السواد الذى تجمد مكانه مدهوشا لايدرى ماذا يدور فى رأس (هشام).. سرعان ما أمسك به (هشام) بقوة، ثم عاد به لعالمنا العادى فى لحظات..

تجسد به وعاد به جسدا ملموسا !

جسد من لحم ودم !

وأمام أعين د. (جلال) المدهوشتين وجد (هشام) يختفى من جواره للحظات ثم سقط من العدم محتضنا جسدا أنيقا على بعد خطوات منه ..

جسد ذى السواد بنفسه ..

بشحمه ولحمه ..

بجسد بشرى ..

ثم اختفى (هشام) مرة أخرى ليعود إلى عالم الجن مرة أخرى ليغوص فى جسد ذى السواد الذى أدرك ما يحاول (هشام) فعله..

يريد أن يتلبسه !

الإنسان يريد أن يتلبس شيطانا مريدا !

ابوه تلبس بشرا من قبل، والآن هو.. هو الإنسان يريد الاستحواذ على شيطان !

وفى حالته البشرية هذه لم يكن من الممكن أن ذو السواد يعود لحالته الأولى لأنه فى حال صراع مع (هشام) تجعله أضعف كثيرا من أن يعود ..



تلاشى لمعان العينين وتعالى صوت الصراخ الوحشى الهادر منه ترج المنزل رجا.. تصدعت الجدران لتنهال الأتربة من السقف وما حوله..

(هشام) يحارب بعنف ليدلف لجسد ذى السواد وحوله جحافل الجن ترمق الصراع الأخير ومئات الذكريات تمر بذهنه سريعا..

القتلة والدماء و(راؤول) الذى عشق زوجته وهناء التى عشقت زوجها..

تعبه وألمه وجروجه وصراع..

أما كان ينبغى له أن يتركه وشأنه فحسب ؟

يتذكر، فيصرخ وهو يحاول الولوج لجسد ذى السواد الذى نهض صارخا يحاول المقاومة..

الأرض ترتج بقوة تحت الأقدام وتقع المرآة القريبة لتتحطم بدوى رهيب، لكن (هشام) يواصل بأقصى قوة وببقايا أمل فى انتهاء الكابوس..



وقف الشيطان، ثم رفع رأسه للأعلى مطلقا صيحة انفجر لها جزء من السقف أعقبها دخول (هشام) إليه بشكل كامل !

استحوذ عليه !

***

(هشام)..

داخل جسد ذى السواد ..

شعر بثقل هائل يكتنف جسدا ليس جسده.. يخوض صراعا للتحرك وإرغام صاحب الجسد على التحرك.. طاقة هائلة انبعثت منه جعلته يحلق للحظات فى الهواء صارخا ثم يعود واقفا يهتز فى جنون على الارض..

امتزج كيانه بكيان الشيطان، فاختنقت أنفاسه فى صدره وهو يحاول الحركة.. يفتح عينيه ليجد تفاصيل البيت الخرب واضحة كأنما ليس فى ظلام..



د. (جلال) واقف مذعور بينما تتجمع قطع المرآة على الأرض من تلقاء نفسها لتلحم من جديد، ولا يوجد هنا (أنوبيس).. أدرك أنها لعبة من ألاعيب الشيطان فقط.. عرف أنه رحل منذ زمن بعدما عاد ولا يهتم بمثل هذا الهراء الذى يدور !

المرآة !

ليست مجرد مرآة عادية.. إنها أشبه ببوابة أو ثغرة تؤدى إلى مالا يعرفه..

يصرخ فى ألم وينتفض محاولا الاستقرار فى مكانه بينما يتلوى ذو السواد محاولا طرده وهو يصرخ ..

يصرخ.. فتتلوى جدران المنزل وتتشقق أكثر وتنهار منها أجزاء أظهرت ضباب الغابة القريبة ..

تحرك (هشام) بالجسد الاسود بكل قوة يستطيعها كى يرتطم بالحائط ارتطاما عنيفا ربما فقد اللعين وعيه، لكنه مازال ثابتا قويا يقاوم بشراسة ! وحانت منه التفاتة للمرآة ليقشعر جسده.. المرآة تظهر مشاهدا



مخيفة مخيفة لأقصى درجة.. عالم ذى السواد الحقيقى ..

جحيم..

لا كلمات تصفه.. تخيل أسوأ مكان ممكن، وسيكون أفضل مما رآه بمراحل !

يصرخ ويتحرك بعنف ليسقط على الأرض ثم ..

ينتقل وعيه لقمة برج قلعة فى فرنسا.. يرى نفسه مقيدا والسفاح (جيل دى رى) يتقدم نحوه بسكين يريد بتر أطرافه !

ذو السواد يحاول تشتيت انتباهه لكن.. يصرخ بكل قوته :

- أناااااااااااااااااا هنااااااااااااااااااااااااااااااااااااااا.. هاااااااااااااااااه ..



اختفى المشهد من أمامه وعاد للحجرة المتشققة.. بكل قوة يدفع نفسه دفعا للتركيز على ما يقوم به فيحلق فى الهواء بضع لحظات أخرى قبل أن يهتز مرة أخرى ويهبط على ركبته وملامحه تحمل مزيجا عجيبا من الإصرار والألم والغضب والخوف..

وأمامه ..

كان د. (جلال) يحدق فيه ذاهلا والأرض ترتجف بقوة تحت قدميه.. ذهل عندما رأى (هشام) فى الجسد الأسود تتغير ملامحه مابين الاثنين بشكل خارق.. كان يحلق فى سماء الغرفة ويدور حول نفسه..

يصارع نفسه، ومن حوله صرخات الشياطين وجنونهم يدوى بطريقة مخيفة تثير الجنون !

ذو السواد يهتز بقوة، فتارة تخرج رأس (هشام) وتارة ترى رأس الشرير، ثم انتفض بغتة وطار للأعلى حتى ارتطم رأسه بالسقف فى قوة حتى كسر منه جزءا !



لحظات وسقط الجسد على الأرضية الترابية بلا حراك ومعه توقف كل شىء..

لا مزيد من الاهتزازات..

لا مزيد من الصرخات..

فقط هسيس غاضب ولفح نيران يأتى من كل مكان ..

الغضب !

كم هائل من الغبار العالق بالجو يجعل التنفس عسيرا للغاية، وأمامه استقر الجسد وعيناه مغمضتان ترتجفان.. ملامحه كلها غضب وقسوة..

بخطى مهتزة سار د. (جلال) نحوه يتبين ما إذا كان على قيد الحياة أم.. لو مات أحدهما ربما مات الآخر معه !

خطوة تلو الأخرى لكنه سمع صوتا مألوفا لم يميزه للوهلة الأولى، ثم اتسعت عيناه فى ذعر ..



- انقذنى..

زوجته ؟! أو.. من كانت زوجته !

التفت خلفه مرتجفا ليجدها تزحف نحوه وكل جسدها يرتجف وهى تكرر النداء :

- انقذنى.. انقذنى.. اقتله ..

كانت ترتجف بشكل غير طبيعى على الإطلاق، وما لبثت أن صرخت صرخة عالية وعيناها تتدحرجان من رأسها ثم تشب النار فى جسدها بغتة.. تراجع مذهولا من فرط المشهد الرهيب وهى تتلوى أمامه صارخة مع رائحة الشواء والنيران المتراقصة على جدران الكوخ الحقير..

- دكتوووووور جلاااااااااااااال.. أين أنت أجبنى ؟

هذا الصوت الشرس.. إنه يعرفه ! وسرعان ما رأى (حسن) يدلف للكوخ فى عنف وملامحه كلها شر حاملا مسدسه..



- دكتور.. أنت هنا ؟

هل هذا وهم آخر ؟ هل هذا (حسن) أم.. لكن نظرة واحدة لعينيه السوداوين المظلمتين حسمتا الامر.. هذا ليس (حسن) !

نظر (الذى ليس حسن) إليه بعينين مظلمتين قبل أن ..

- بوم .

أطلق عليه النار !

ياااااااااالالألم..

بوم.. بوم.. بوم ..

مرة تلو الأخرى تلو الثالثة.. الألم العاتى يقتحم جسده، لكن لا أثر للدماء ! ولا أثر ل(حسن) !

ولا ثقوب فى جسده !

ترنح مكانه ثم سقط جالسا وقال لنفسه :

- اللعين ..

هو يدرك أنه كالمرة السابقة يدخله فى حالة من الوهم القاسى ..ليست بقوة لأنه مشغول بصراعه الداخلى مع (هشام) لكنه كاف جدا لقتله.. لو استسلم سيموت، كان يفكر فى ذلك حين رأى جثة زوجته المتفحمة تعتدل وتضحك قبل أن تشير إلى ذى السواد وتقول:

- اقتله ..

ومن خلفه ظهر (حسن) من العدم يشير نحو ذى السواد بطرف المسدس ويقول :

- اقتله..

امتزج الصوتان وهما يكرران الأمر :

- اقتله

- اقتله

- اقتله



- اقتله

- كفى !!!

قالها وهو ينظر للجسد المسجى وفى عقله تتلاعب فكرة مجنونة ..

أما (هشام)..

كان يخوض صراعا مؤلما كأقصى ما يكون الألم.. كأن حوله النار من كل مكان ولا يستطيع الحركة.. يرى بعينى الشيطان ويشعر بفوران جسده.. الألم يطغى عليه بصورة لا يمكنه تحملها، قبل أن يجد نفسه بغتة واقفا فى حجرة بيضاء بلا أى معالم !

هل خرج من جسد ذى السواد ؟

هل فقد الوعى ؟

هل مات ؟



ظل مكانه حائرا بضع لحظات قبل أن تنبت من الأرض بضعة أشياء لم يتبين ما هى.. أجساد قزمة بلا أى ملامح.. أخذت تقترب منه بصمت مطلق ومدت أطرافها إليه ثم مسته ليصرخ من فرط الألم.. كأنها تمسه بحمض مركز !

انطلق يعدو من أمام الاشياء فى هذا الفراغ الأبيض وأغمض عينيه بقوة وصرخ..

عندما فتحهما وجد نفسه فى الكوخ والدكتور (جلال) يهوى على رأسه بحجر ثقيل يبغى قتله !

***

انتفض من مكانه وأبعد راسه بالكاد ليرتطم الحجر بجانب رأسه فحسب، فأطلق الاثنان معا صيحة ألم من حنجرة واحدة ..

انتفض ونهض وهو يتشنج تشنجات عجيبة.. عاد ذو السواد بعد مناورة فاشلة يحاول طرد (هشام).. كلاهما يحاول بسط نفوذه على الجسد !



قاوم يا (هشام).. قاوم..

ومن جوار د. (جلال) تصاعد همس :

- اقتله وينتهى كل شىء..

- اقتله.. تعود لحياتك ونجاحك وربما زوجتك ايضا..

يشعر بالتردد.. لقد حاول منذ لحظات ولم يفلح، وهى فرصة عظيمة كى يتخلص العالم من شرور لاقبل له به..

- اقتله ..

نظر لجسد زوجته الذى تلاشى ببطء وجوار يده وجد ..

سكينا..

فقط عليه أن يغمده فى قلب (ذى السواد) مرة واحدة فحسب..

أمر بسيط ..

لكن ..

من يضمن أن يعود (هشام) لو عاد ؟

من يضمن أن يموت ذو السواد ؟

ثم.. لماذا الإصرار على قتل زميله ؟

- لكن على الأقل ستخرج من هنا ظافرا..

تردد، لكن (هشام) فتح عينيه بغتة وهتف :

- د. (جلال).. ساعدنى ..

ونظر نحو المرآة التى هى ليست مرآة.. فى لحظة كانت الفكرة برقت فى عقل (هشام)..

لو عاد الوغد من حيث أتى فلن يمس الأرض مرة أخرى.. ستكون نهايته لأنه سيبوء بالفشل..



سيلقى الجزاء على يد أبيه، لذلك هب واقفا ليلتفت إلى المرآة التى توهجت بلون أحمر وهى تعكس عرشا على الماء يتبدى من بعيد..

يجب أن يدلف لهذه المرآة ..

وبسرعة ..

ترنح جسد ذى السواد وهو يسير خطوة تلو الأخرى، ثم عاد للخلف فى صيحات متشنجة وذبذبات جسدية لا يمكنك أن تصدقها مالم ترها..

صرخ د. (جلال) :

- هشاااااااام ..أين تذهب ؟

لكنه لم يجب.. خطوة تلو خطوة وكأنه يواجه إعصارا لا يمكن الوقوف بوجهه.. صرخات ذى السواد تمتزج بصرخات (هشام) حتى وصل للمرآة المتوهجة ..

مد يديه يمس الإطار الخارجى لكن ..



وجد نفسه فجأة جالسا أمام السفاح الصينى الذى تقمصه من قبل، وهو يمد يديه ليقتطع لحما من ظهر (هشام).. الألم الرهيب.. يصرخ ليستعيد التركيز..

مازال واقفا أمام إطار المرآة الملتهب، ومن داخله يصرخ الصوت:

- لن أعوووووووود ..

فيرد عليه من بين أسنانه :

- بل ستعود.. ستعود ..

ثم يجذب نفسه بأقصى ما يستطيع للمرآة التى صارت تهتز بعنف، ومالبث أن طار فى الهواء مرة أخرى وهو يصارع للدخول ..

وفى الاسفل كان د. (جلال) يتابع المعركة.. بإرادة غير مسبوقة يمد (هشام) قدما ليثبت نفسه على الإطار بينما يدور فى حلقات تعصف به..



رأى الألم متجسدا على وجه (هشام) لكنه مازال يحارب.. يدور فى حلقات كما لو كان إعصارا فى قلب الظلام ..

رغما عنه تحجرت دمعتان تأبيان النزول وهو يهتف من أعماق قلبه :

- (هشام) ..

لم يرد.. بالأحرى لم يسمع وسط صراخه وصراخ ذى السواد وصراخ الشياطين من حولهم !

وفى الجانب الآخر من المرآة برزت مئات الأعين ترمقهم فى كراهية، ومن بعيد كان الجالس على العرش يتكلم ولا يسمعه إلا (هشام) :

- لو عبرت بجسد ابنى فلن تعود ..

يصرخ (هشام) :

- وهو أيضا لن يعود أبدا وسيموت ..

- سنعذبك للأبد.. سترى الجحيم ما أن تعبر !

- سينتهى ألمى يوما ما ..

- ستعانى الوحدة والألم كما لم تتخيله ولن تتحمله.. ستتعذب !

ابتسم (هشام) ابتسامة ارتسمت على وجه (ذى السواد) وهو يهمس :

- إذن لا فارق ..

ثم صرخ ودفع نفسه دفعة أخيرة وسط صراخ رهيب من كل مكان ليخترق المرآة .

بمجرد عبوره توقف كل شىء للحظات ..

توقفت المرآة عن الدوران، ثم هوت مع الغبار والأحجار الصغيرة على الأرض لتتحطم مرة أخرى بلا رجعة هذه المرة !

***

خرج د. (جلال) من المكان يلهث وقد امتلأت لحيته بالغبار ووجنتاه ترسمان خطين من أثر دموعه، وجلس قليلا ينظر للمكان الفارغ.. لحظات وتقوضت أسس الكوخ فانهار ببطء كأنما يتحلل ويتحول إلى غبار..

ياترى ما الذى حدث ل(هشام) ؟

ظل مكانه يحدق فى المكان الساكن حتى ظهرت أول بوادر الشروق..

نظر للشمس البرتقالية البازغة فى الأفق وكأنما يرى الشمس لأول مرة، ثم نظر للكوخ الذى يتحلل ببطء.. تحدرت دمعتان أخيرتان وهو يهمس همسا لا يتبينه، ثم مسح وجهه وسار بخطى وئيدة إلى السيارة القابعة تنتظر بين اشعة الضوء الوليدة.. جلس بإرهاق ثم أدارها وانطلق مبتعدا عن هذا المكان ..

لقد انتهى كل شىء !

***

الخاتمة

جلسنا معا فى مكتب د. (جلال) نستمع لتلك الأحداث العجيبة.. تجمدت الدموع فى عيوننا بينما يسرد علينا تفاصيل تضحية (هشام) بنفسه، والتى فعلها بنفس راضية..

أحداث عجيبة لاحقته فى يومين..

لم أتخيل أن كل هذا الجنون من الممكن أن يحدث..

رغم كل شىء كان (هشام) طيبا يحب الخير..

ربما هو سىء الحظ ليتم اختياره دونا عن كل البشر ليأخذ لعنة لم تكن من نصيبه..

كلهم سيئوا الحظ..

مالم أفهمه قط هو أين ذهب (أنوبيس) بعد ذلك.. أنا فهمت أنه عاد لعالمه دون رجعة ؛ أى أنه عاد من السجن الذى وضعه فيه المصريين القدماء ليقتل بعض



الناس ويلتهم أجزاءا منهم، ثم استخدمه (ذو السواد) لإنهاء حياة (راؤول) واختفى بعد ذلك ..

يالها من أحداث ..

أنهيت الليلة عند د. (جلال) وعدت مع الضابط (حسن) فى سيارته الفارهة إلى منزلى..

لا تسىء فهمى لكن.. كم أتمنى ألا أقابل هؤلاء الناس فى حياتى مرة أخرى !

وخاتم (راؤول) ؟ و(هشام) ؟

أعتقد أن الخاتم عاد لصاحبه إلى حين استخدامه مرة أخرى..

أما (هشام) ؟

لا أدرى ..

ولا أعتقد أن أحدا سوف يدرى ..

***

أقف فى مكان لا أعرفه ولا اتبين حدوده.. أنا متوتر للغاية من كل هذا الضباب، لكنى لا أعرف ماذا أفعل.. ومن بعيد أسمع :

- ساعدنى..

أنت أملى..

ساعدنى ..

وفجأة يظهر أمامى وجه (هشام) والنيران تأكله يصرخ بصوت عال :

- ساعدنى !

أفقت صارخا من نومى.. أخذت ألهث فى عنف بينما تربت زوجتى على ظهرى.. لابد أنها تلعن حظها الذى أوقعها فى الزواج منى دونا عن كل من تقدموا لها !

نهضت من الفراش الدافىء لترتطم قدماى بالسيراميك المثلج، وتوجهت لدورة المياه لأفرغ توترى مع مثانتى، وهناك ..

هناك ..

لا أعتقد أنها صدفة عندما غسلت يدى بالماء الدافىء الذى تكاثف على زجاج المرآة، ثم وجدت إصبعا خفيا يكتب على الزجاج :

ساعدنى !

أعتقد أنها مجرد هلاوس ..

نعم ..

لابد أنها هلاوس !

أنا أقنع نفسى كل يوم أنها هلاوس..

هكذا فكرت وأنا أندس فى فراشى مرة أخرى ..



ولكن ..

ابنى ذو العامين الذى لا يستطيع الكلام بعد يهمس فى أذنى :

- ساعده.. إنه فى انتظارك !

أغلقت عينى فى قوة ونمت.. إنها هلاوس أنا متأكد من ذلك !

أليس كذلك ؟

تمت

***

ملف خاص مختصر عن حياة :

محمد الفاتح

البشرى الإسلامية:



يؤمن المسلمون بأن النبي (محمد بن عبد الله) (صلى الله عليه وسلم) تحدث عن أمير من أفضل أمراء العالم، وأنه هو من سيفتح القسطنطينية ويُدخلها ضمن الدولة الإسلامية، وتم التفاق على أنه هو محمد الفاتح، فيما قال آخرون أن المراد بالحديث هو فتح القسطنطينية في آخر الزمان قبل خروج المسيح الدجال مباشرة، وقد ورد في مسند أحمد بن حنبل في الحديث رقم 18189 التالى :

« حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بِشْرٍ الْخَثْعَمِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ»

***

نشأته :

هو ابن السلطان (مراد الثاني) وزوجته (هما خاتون)، وولد فجر يوم الأحد بتاريخ 20 أبريل، 1429 م، الموافق في 26 رجب سنة 833 ه في مدينة أدرنة،



عاصمة الدولة العثمانية آنذاك وسماه (محمد) على اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصبح يعرف باسم (محمد الثانى) .

عندما بلغ محمد الثاني عامه الحادي عشر أرسله والده السلطان إلى (أماسيا) ليكون حاكمًا عليها وليكتسب شيئاً من الخبرة اللازمة لحكم الدولة كما كانت عليه عادة الحكّام العثمانيين قبل ذلك العهد، فمارس محمد الأعمال السلطانية في حياة أبيه، ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة. وخلال الفترة التي قضاها حاكماً على (أماسيا) كان السلطان (مراد الثاني) قد أرسل إليه عددًا من المعلمين لكنه لم يمتثل لأمرهم، ولم يقرأ شيئاً يذكر، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم - الأمر الذي كان يُعد ذا أهمية كبرى – فأرسل له السلطان رجلاً له مهابةٌ وحِدَّة اسمه (أحمد بن إسماعيل



الكوراني)، ليكون مُعلماً لولده وأعطاه قضيبًا يضربه به إذا خالف أمره ..

فذهب إليه ودخل عليه والقضيب بيده فقال :

- أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري ..

فضحك السلطان (محمد الثاني) من ذلك الكلام، فضربه الكوراني في ذلك المجلس ضربًا شديدًا حتى خاف منه السلطان (محمد) وختم القرآن في مدة يسيرة !(ثم يخبرونك بعدم جدوى الضرب فى سير العملية التعليمية !)

هذه التربية الإسلامية كان لها الأثر الأكبر في تكوين شخصية محمد الفاتح، فجعلته مسلمًا مؤمنًا ملتزمًا بحدود الشريعة، مقيدًا بالأوامر والنواهي، مُعظماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها، فتأثر بالعلماء الربانيين، وبرز دور الشيخ (آق شمس الدين) في تكوين شخصية (محمد الفاتح) وبث فيه منذ صغره أمرين هما:

1- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية

2- الإيحاء دومًا لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي .

***

في 13 يوليو سنة 1444 م، الموافق 26 ربيع الأول سنة 848 ه، أبرم السلطان (مراد الثاني) معاهدة سلام مع إمارة قرمان بالأناضول، وعقب ذلك توفي أكبر أولاد السلطان واسمه (علاء الدين)، فحزن عليه والده حزنًا شديدًا وسئم الحياة، فتنازل عن الملك لابنه (محمد) البالغ من العمر أربع عشرة سنة، وسافر إلى ولاية (أيدين) للإقامة بعيدًا عن هموم الدنيا وغمومها ..

لكنه لم يمكث في خلوته بضعة أشهر حتى أتاه خبر غدر المجر وإغارتهم على بلاد البلغار غير مراعين شروط الهدنة اعتمادًا على تغرير الكاردينال (سيزاريني)، مندوب البابا، وإفهامه لملك المجر أن



عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تُعد حنثًا ولا نقضًا !

بسرعة كتب السلطان محمد الثاني والده يطلب منه العودة ليتربع على عرش السلطنة تحسبًا لوقوع معركة مع المجر، إلا أن (مراد) رفض هذا الطلب. فرد محمد الفاتح :

- إن كنت أنت السلطان فتعال وقف على قيادة جيشك ورياسة دولتك وإن كنت أنا السلطان فإني آمرك بقيادة الجيش.

وبناءً على هذه الرسالة، عاد السلطان (مراد) الثاني وقاد الجيش العثماني في معركة فارنا، التي كان فيها النصر الحاسم للمسلمين .

ثم عاد للحكم بعدما استصغر قادة القوات (الانكشارية) السلطان محمد ولم يطيعوا أمره وثاروا عليه، فعاقبهم وبعثهم للقتال فى اليونان ونزع الحكم من محمد ..



***

انتقل السلطان محمد الثاني إلى (مانيسا) الواقعة بغرب الأناضول بعد ثورة الإنكشارية عليه، وهناك تدرب على شئون الملك والحرب وصك النقود وتزوج مرتين !

لكن السلطان (مراد) يوم 7 فبراير سنة 1451. وما أن وصلت أنباء وفاة السلطان إلى ابنه محمد الثاني، حتى ركب فوراً وعاد إلى أدرنة حيث توّج سلطانا للمرة الثانية في 19 فبراير وأقام جنازة لوالده الراحل وأمر بنقل الجثمان إلى مدينة بورصة لدفنه بها ..

عندما تولى محمد الثاني الملك بعد أبيه لم يكن بآسيا الصغرى خارجًا عن سلطانه إلا جزء من بلاد القرمان ومدينة «سينوب» ومملكة طرابزون الروميّة. وصارت مملكة الروم الشرقية قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها، لذلك فكر جديا بالإعداد لفتح القسطنطينية الفتح النهائى !



لذلك أخذ السلطان محمد الثاني يستعد لإتمام فتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية حتى تكون جميع أملاكه متصلة لا يتخللها عدو مهاجم أو صديق منافق، فبذل فى بداية الأمر جهودًا عظيمة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون جندي، وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للغزو الكبير المنتظر، كما أعتنى الفاتح بإعدادهم إعدادًا معنويًا قويًا وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء النبي محمد على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائمهم .

أراد السلطان، قبل أن يتعرض لفتح القسطنطينية أن يُحصّن مضيق البوسفور حتى لا يأتي لها مدد من مملكة طرابزون، وذلك بأن يُقيم قلعة على شاطئ



المضيق في أضيق نقطة من الجانب الأوروبي منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي.

ولمّا بلغ إمبراطور الروم هذا الخبر أرسل إلى السلطان سفيرًا يعرض عليه دفع الجزية التي يُقررها مقابل عدم البناء، فرفض الفاتح طلبه وأصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى 82 مترًا، وأطلق عليها اسم قلعة (روملي)، وأصبحت القلعتان متقابلتين، ولا يفصل بينهما سوى 660 مترًا، تتحكمان في عبور السفن من شرقي البوسفور إلى غربه وتستطيع نيران مدافعهما منع أية سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها، كما فرض السلطان رسومًا على كل سفينة تمر في مجال المدافع العثمانية المنصوبة في القلعة، وكان أن رفضت إحدى سفن البندقية أن تتوقف بعد أن أعطى العثمانيون لها عدداً من الإشارات، فتمّ إغراقها بطلقة مدفعية واحدة فقط !



اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع، التي أخذت اهتمامًا خاصًا منه حيث أحضر مهندسًا مجريًا يدعى (أوربان) كان بارعًا في صناعة المدافع، فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية. تمكن هذا المهندس من تصميم وتصنيع العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها (المدفع السلطاني) المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها..

كما استعد بقوة بحرية ضخمة ربما وصلت لأكثر من أربعمائة سفينة!

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، مثل إمارة غلطة المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق القرن الذهبي، و جنوة والبندقية وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة، ولكن



هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن المدينة.

في هذه الأثناء استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره، ولكن السلطان كان عازمًا على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينها عداء شديد، وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك. قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب

في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس:

- إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية!

***

الفتح :

عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس 6 أبريل، 1453 م، الموافق 26 ربيع الأول، 857 ه ..



جمع السلطان الجند - وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي - فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكّرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين مما أثار حماسهم وعلت اصواتهم بالتهليل والتكبير مسببة ذعرا لا شك فيه للقسطنطينية القريبة ..

ثم ضرب السلطان الحصار على المدينة بجنوده من ناحية البر، وبأسطوله من ناحية البحر، وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية مدفعية وضع بها المدافع الجبارة التي صنعها (أوربان) والتي قيل بأنها كانت تقذف كرات من الحجارة زنة كل واحدة منها اثنا عشر قنطارًا إلى مسافة ميل ! (القنطار 250 كيلو !)

وفي أثناء الحصار اكتُشف قبر «أبي أيوب الأنصاري» الذي استشهد حين حاصر القسطنطينية في سنة 52 ه



في خلافة معاوية بن أبي سفيان الأموي.

كان البيزنطيين قد قاموا بسد مداخل ميناء القسطنطينية بسلاسل حديدية غليظة حالت بين السفن العثمانية والوصول إلى القرن الذهبي، بل دمرت كل سفينة حاولت الدنو والاقتراب، إلا أن الأسطول العثماني نجح على الرغم من ذلك في الاستيلاء على جزر الأمراء في بحر مرمرة..

استنجد الإمبراطور (قسطنطين) بأوروبا، فلبّى طلبه أهالي جنوة وأرسلوا له إمدادات مكونة من خمس سفن يقودها القائد الجنوي (جوستنياني) يُرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة، فأتى هذا القائد بمراكبه وأراد الدخول إلى ميناء القسطنطينية، فاعترضته السفن العثمانية ونشبت بينهما معركة هائلة انتهت بفوز (جوستنياني) ودخوله الميناء بعد أن رفع المحاصرون السلاسل الحديدية ثم أعادوها بعد مرور السفن الأوروبية كما كانت.



حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلاسل الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن العثمانية إليه، ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية، فارتفعت بهذا الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة.

أخذ السلطان يُفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار برّاً وبحراً، فخطر بباله فكر غريب، وهو أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعها، وتمّ هذا الأمر المستغرب بأن مهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتي بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها! وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من البيزنطيين .

وبالفعل استيقظ أهل المدينة صباح يوم 22 أبريل وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين



عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين،وقد عبّر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال :

- ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الأسكندر الأكبر !

أيقن المحاصرون عند هذا أن لا مناص من نصر العثمانيين عليهم، لكن لم تخمد عزائمهم بل ازدادوا إقداماً وصمموا على الدفاع عن مدينتهم حتى الممات.

وقتها أرسل السلطان محمد إلى الإمبراطور قسطنطين رسالة دعاه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمان وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى وأعطاهم الخيار بالبقاء في المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين



وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الامبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الامبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها إنه :

- يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يُدفن تحت أسوارها ..

فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال :

- حسناً.. عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر .

***

عند الساعة الواحدة صباحاً من يوم الثلاثاء 29 مايو، 1453م، الموافق 20 جمادى الأولى سنة 857 ه بدأ الهجوم العام على المدينة، فهجم مائة وخمسون ألف



جندي وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم واحتلوا المدينة شيئاً فشيئاً إلى أن سقطت بأيديهم، بعد 53 يومًا من الحصار، أما الإمبراطور قسطنطين فقاتل حتى مات في الدفاع عن وطنه كما وعد، ولم يهرب أو يتخاذل.. ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب، فأصدر أمره بمنع كل اعتداء، فساد الأمن حالاً. ثم توجه إلى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف من داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الشماس تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فأطمأن الناس نوعا.. وقد أمر الفاتح بعد ذلك بأن يؤذن في الكنيسة بالصلاة إعلانًا بجعلها مسجدًا.

وقد أعطى السلطان لسكان المدينة حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين الذين و فرض الجزية على الجميع، ثم قام بجمع رجال الدين



لينتخبوا بطريركًا لهم، فاختاروا «جورجيوس كورتيسيوس سكولاريوس) ،وأعطاهم نصف الكنائس الموجودة في المدينة، أما النصف الأخر فجعله مساجدا.. وبتمام فتح المدينة، نقل السلطان محمد مركز العاصمة إليها، وسُميت (إسلامبول)، أي (مدينة الإسلام) .

***

ما بعد الفتح:

بعد تمام النصر والفتح، اتخذ السلطان لقب (الفاتح) و(قيصرالروم) على الرغم من أن هذا اللقب الأخير لم تعترف به بطركيّة القسطنطينية .

وكان السلطان قد أمر بحبس الصدر الأعظم (خليل جندرلي باشا)، الذي اتهم أثناء حصار القسطنطينية بالتعامل مع العدو أو تلقيه رشوة منهم لفضح تحركات الجيش العثماني، فحُبس لمدة أربعين يومًا وسُملت عيناه، ثم حُكم عليه بالإعدام .

من الأمور المثيرة أن السلطان محمد الفاتح قصد الموقع الذي بُنيت فيه مدينة طروادة بعد 10 سنوات من الفتح، حيث قال أنه انتقم للطرواديين أخيراً بعد أن قضى على الإغريق – البيزنطينين - وغزاهم كما غزوا طروادة..

فتح بلاد (موره) ومحاربة (المجر) :

بعد إتمامه لترتيباته وبناء ما هُدم من أسوار القسطنطينية وتحصينها، أمر السلطان ببناء مسجد بالقرب من قبر أبي أيوب الأنصاري، ثم سافر بجنوده لفتح (موره)، لكن لم ينتظر أميراها (دمتريوس) و(توماس) أخوا قسطنطين، قدومه، بل أرسلا إليه يُخبرانه بقبولهما دفع جزية سنوية قدرها إثنا عشر ألف دوكا. فقبل السلطان ذلك، وغيّر وجهته قاصدًا بلاد الصرب ..

تصدى له (هونياد) المجري الملقب «بالفارس الأبيض» وردّ عن الصرب مقدمة الجيوش العثمانية، إلا أن الصرب لم يرغبوا في مساعدة المجر لهم لاختلاف

مذاهبهم، ولذلك أبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان محمد الثاني على أن يدفع له سنويًا ثمانين ألف دوكا ..

وفي السنة التالية أعاد السلطان الكرّة على الصرب من جديد، بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع، ومر بجيوشه من جنوب تلك البلاد إلى شمالها بدون أن يلقى أقل معارضة حتى وصل مدينة بلغراد الواقعة على نهر الدانوب وحاصرها من جهتى البر والنهر. وكان (هونياد) المجري دخل المدينة قبل إتمام الحصار عليها ودافع عنها دفاع الأبطال حتى يئس السلطان من فتحها ورفع عنها الحصار سنة 1455، وبذلك لم يتمكن العثمانيون من فتح عاصمة الصرب إلا أنهم أصابوا (هونياد) بجراح بليغة توفي بسببها بعد رفع الحصار عن المدينة بنحو عشرين يومًا. ولما علم السلطان بموته أرسل (محمود باشا) لإتمام فتح بلاد الصرب فأتمّ فتحها ..

وفي هذه الأثناء تمّ فتح بلاد (موره) ،وفتح السلطان مدينة (كورنته) وما جاورها من بلاد اليونان وجزر



تاسوس والبروس وغيرها من جزر بحر الروم.

وبعد عودة السلطان من بلاد اليونان حوّل أنظاره إلى آسيا الصغرى ليفتح ما بقي منها، فسار بجيشه وفتح منها بلادا كثيرة..

محاربة أمير فلاد :

ما أن عاد السلطان إلى القسطنطينية حتى جهز جيشًا لمحاربة أمير فلاد المدعو : (فلاد دراكول الثالث المخوزق) لمعاقبته على ما ارتكبه من الفظائع مع أهالي بلاده والتعدّي على التجار العثمانيين النازلين بها. فلمّا اقترب منها أرسل إليه هذا الأمير وفدا يعرض على السلطان دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا بشرط أن يُصادق على جميع الشروط الواردة بالمعاهدة التي أبرمت في سنة 1393 بين أمير فلاد آنذاك والسلطان بايزيد الأول، فقبل السلطان محمد الثاني هذا الاقتراح وعاد بجيوشه. ولم يقصد أمير فلاد بهذه المعاهدة إلا التمكن من الاتحاد مع ملك المجر (متياس كورفينوس) ومحاربة العثمانيين. فلمّا



علم السلطان باتحادهما أرسل إليه مندوبين يسألانه عن الحقيقة، فقبض عليهما وقتلهما بوضعهما على عمود محدد من الخشب، الذي يُعرف بالخازوق. وأغار بعدها على بلاد بلغاريا التابعة للدولة العثمانية وعاث فيها فسادًا، ورجع بخمسة وعشرين ألف أسير، فأرسل إليه السلطان رسلاً يدعونه إلى الطاعة وإخلاء سبيل الأسرى، فلمّا مثل الرسل أمامه أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه، وعند رفضهم طلبه لمخالفته لعوائدهم، أمر بأن تُسمّر عمائمهم على رؤسهم بمسامير من حديد.

السلطان محمد استشاط غضباً وسار على الفور بحوالي 60,000 جندي نظامي و30,000 غير نظامي، فوصل بسرعة إلى مدينة (بوخارست) عاصمة الأمير بعد أن هزمه وفرّق جيوشه، لكنه لم يتمكن من القبض عليه لمجازاته على ما اقترفه بحق العثمانيين والبلغار لهروبه والتجائه إلى ملك المجر فنادى السلطان بعزله ونصب مكانه أخاه (راؤول) لثقته به بما أنه تربّى في حضانة السلطان منذ نعومة أظفاره، وبذا ضُمّت بلاد فلاد إلى الدولة العثمانية. ويُقال أنه



عند وصول السلطان محمد إلى ضواحي بوخارست، وجد حول المدينة غابة من الخوازيق التي عُلّقت عليها جثث الأسرى الذين أتى بهم أمير الفلاخ من بلاد بلغاريا وقتلهم عن آخرهم بما فيهم الأطفال والنساء، وكذلك الجنود العثمانيين الذين كان قد قبض عليهم إثر مناوشة ليلية، وكان عددهم جميعا عشرين ألفاً.

فتح البوسنة :

في سنة 1462، حارب السلطان بلاد البوسنة لامتناع أميرها «استيفان توماسفيتش» عن دفع الخراج وأسره بعد معركة هو وولده وأمر بقتلهما، فدانت له جميع بلاد البشناق. وأرسل فرمانا إلى الفرنسيسكان من سكان تلك البلاد يُطمئنهم بعدم تعرّض أي منهم للاضطهاد بسبب معتقداتهم الدينية، فقال:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أنا السلطان محمد الفاتح، أعلن للعالم أجمع أن أهل البوسنة الفرنسيسكان قد مُنحوا بموجب هذا الفرمان



السلطاني حماية (جلال)تي. ونحن نأمر بأن : لا يتعرض أحد لهؤلاء الناس ولا لكنائسهم وصلبانهم، وبأنهم سيعيشون بسلام في دولتي. وبأن أولئك الذين هجروا ديارهم منهم، سيحظون بالأمان والحرية، وسيُسمح لهم بالعودة إلى أديرتهم الواقعة ضمن حدود دولتنا العليّة. لا أحد من دولتنا سواء كان نبيلاً، وزيرا، رجل دين، أو من خدمنا سيتعرض لهم في شرفهم وفي أنفسهم !لا أحد سوف يهدد، أو يتعرض لهؤلاء الناس في أنفسهم، ممتلكاتهم، وكنائسهم ..وسيحظى كل ما أحضروه معهم من متاع من بلادهم بنفس الحماية...

وبإعلان هذا الفرمان، أقسم بالله العظيم الذي خلق الأرض في ستة أيام ورفع السماء بلا عمد، وبسيدنا محمد عبده ورسوله، وجميع الأنبياء والصالحين أجمعين، بأنه؛ لن نسمح بأن يُخالف أي من أفراد رعيتنا أمر هذا الفرمان !»

بعد ذلك فتح إمارة قرمان وحارب المغول وفتح جزر اليونان ومدينة أوترانت وحاصر رودس



على الجانب الإنسانى من شخصية السلطان فى بلاده :

كان السلطان محباً للعلم والعلماء، لذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته، ووفاق أجداده في هذا المضمار، وبذل جهوداً كبيرة في نشر العلم وإنشاء دور التعليم، وأدخل بعض الإصلاحات في نظام التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن والقرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة.

وقام بتنظيم هذه المدارس وترتيبها على درجات ومراحل، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التي تُدرّس في كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات الدقيقة للانتقال للمرحلة التي تليها، وكان ربما يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس ولا يأنف من سماع الدروس التي يلقيها الأساتذة، ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم في كافة مدارس الدولة بالمجان، وكانت المواد التي تدرس في تلك المدارس: التفسير والحديث والفقه والأدب



والبلاغة وعلوم اللغة والهندسة، وأنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثمان مدارس على كل جانب من جوانب المسجد يتوسطها صحن فسيح، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته، وألحقت بهذه المدارس مساكن الطلبة ينامون فيها ويأكلون طعامهم ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة وكان يُشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحراً في أسماء الكتب والمؤلفين، وكانت مناهج المدارس تتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضاً.

اهتمامه بالعلماء :

قرّب العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال ووسع لهم في العطايا والمنح والهدايا وكرّمهم غاية الإكرام، ولما هزم (أوزون حسن) من ضمن معاركه، أمر السلطان بقتل جميع

الأسرى إلا من كان من العلماء وأصحاب المعارف ليُستفاد منهم.

كان من مكانة الشيخ (أحمد الكوراني) أنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة، وكان لا يأتي إلى السلطان إلا إذا أرسل إليه، وكان يقول له:

- مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط.

وكذلك بالنسبة للشيخ (آق شمس الدين) الذي درّس السلطان محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية، والفارسية والتركية وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب، وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة «أماسيا» ليتدرب على إدارة الولاية، وأصول الحكم. واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي: «لتفتحن



القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»

وكان الشيخ (آق شمس الدين) أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا. وكان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حباً عظيماً، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله - بعد الفتح-:

- «إنكم ترونني فرحاً، فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين».

وعبّر السلطان عن مهابته لشيخه في حديث له مع وزيره (محمود باشا)، حيث قال:

- «إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري. إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة»

وكان شاعراً مجيداً مهتماً بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء ويصطفيهم، واستوزر الكثير



منهم، وكان في بلاطه ثلاثون شاعراً يتناول كل منهم راتباً شهرياً قدره ألف درهم، وكان مع هذا ينكر على الشعراء التبذل والمجون والدعارة ويعاقب من يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاده. وكان الفاتح يكتب أشعاره باسم (عوني)، ويُعدّ أوّل شاعر سلطاني اتخذ لنفسه اسمًا مستعارًا. وللفاتح ديوان باللغة التركية معظمه في الغزل !

اهتمامه بالترجمة :

أتقن اللغة اليونانية وست لغات أخرى عندما كان بلغ من العمر 21 عاماً، أي في السنة التي فتح فيها القسطنطينية، وأمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، كما كان مهتماً باللغة العربية فقد طلب من المدرسين بالمدارس الثماني أن يجمعوا بين الكتب الستة في تدريسهم وبين علم اللغة كالصحاح.. ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة وأنشأ له في



قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم، وكان بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت.

اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات :

كان السلطان محمد الفاتح مغرماً ببناء المعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة، وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة. شجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاء ورونقاً، واهتم بالعاصمة (إسلامبول) اهتماماً خاصاً، وكان حريصاً على أن يجعلها أجمل عواصم العالم وحاضرة العلوم والفنون .

كثر العمران في عهد الفاتح وانتشر، واهتم بدور الشفاء، ووضع لها نظاماً مثالياً في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب – ثم زيد إلى اثنين – من حذاق الأطباء من أي جنس كان، يعاونهما كحال وجراح وصيدلي وجماعة

من الخدم والبوابين، وكان يُشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ووجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم، وأن لاتصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم.

ولعلّ أبرز أثار السلطان العمرانية هو قصر الباب العالي الذي أمر بالبدء ببنائه قرابة عقد الستينات من القرن الخامس عشر، إضافة إلى مسجده الذي حمل اسمه، وآيا صوفيا بطبيعة الحال التي أمر بتحويلها من كنيسة إلى مسجد.

بالنسبة للقوانين :

اهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التي تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة ومع جيرانهم من



المسلمين، ومع الدولة التي تحكمهم وترعاهم، وأشاع العدل بين رعيته، وجدّ في ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في ربوع الدولة العثمانية. وعندما كانت الدولة تعلن الجهاد وتدعوا أمراء الولايات وأمراء الألوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تاماً، وذلك حسب نسب مبينة، فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف آقجه من إيراد اقطاعه، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس، وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاة وفرسان، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الألوية. قام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفائة وحدها أساساً في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته.

وفاته :



قاد السلطان حملة لم يحدد وجهتها، لأنه كان شديد الحرص على عدم كشف مخططاته العسكرية حتى لأقرب وأعز قواده. وقد قال في هذا الصدد عندما سئل مرة: «لو عرفته شعرة من لحيتي لقلعتها»

لكن المؤرخون يخمنون بأنها كانت إلى إيطاليا. عرض أهل البندقية على طبيبه الخاص (يعقوب باشا) أن يقوم هو باغتياله، ولم يكن يعقوب مسلما عند الولادة فقد ولد بإيطاليا، وقد ادعى الهداية، وأسلم. بدأ يعقوب يدس السم تدريجيا للسلطان، ولكن عندما علم بأمر الحملة زاد جرعة السم. وتوفى السلطان في يوم 3 مايو عام 1481م، الموافق 4 ربيع الأول سنة 886ه، ومدة حكمه 31 عاما، قضاها في حروب متواصلة للفتح وتقوية الدولة وتعميرها، وأتم في خلالها مقاصد أجداده، ففتح القسطنطينية وجميع ممالك وأقاليم آسيا الصغرى والصرب والبشناق وألبانيا، وحقق كثيرا من المنجزات الإدارية الداخلية التي سارت بدولته على درب الازدهار ومهدت الطريق أمام السلاطين اللاحقين ليركزوا على توسيع الدولة



وفتح أقاليم جديدة. ومن مآثره أيضا وضعه أول مبادئ القانون المدني وقانون العقوبات، فأبدل العقوبات البدنية، أي العين بالعين والسنّ بالسنّ، وجعل عوضها الغرامات النقدية بكيفية واضحة أتمها السلطان سليمان القانوني لاحقا.

وقد انفضح أمر يعقوب فيما بعد، فأعدمه حرس السلطان على الفور فى حجرته. وهناك اعتقاد أخر ينص على أن من دفع يعقوب ليدس السم للسلطان كان ابنه بايزيد الثاني رغبة منه بتولي العرش. وصل خبر موت السلطان إلى البندقية بعد 16 يوما، جاء الخبر في رسالة البريد السياسي إلى سفارة البندقية في القسطنطينية، واحتوت الرسالة على هذه الجملة

- لقد مات النسرالكبير.

وانتشر الخبر في البندقية ثم إلى باقي أوروبا، وراحت الكنائس في أوروبا تدق أجراسها لمدة ثلاثة أيام بأمر من البابا.



قبر السلطان محمد الفاتح :

دُفن السلطان في المدفن المخصوص الذي أنشأه في أحد الجوامع التي أسسها في الأستانة، وترك ورائه سمعة مهيبة في العالمين الإسلامي والمسيحي. وقد أنشأ جسراً معلقاً بين طرفي إسطنبول في القرن العشرين وأطلق عليه اسم «جسر السلطان محمد الفاتح»، كما تمّ تمثيل السلطان في عدد من الكتب وأنشأ مسلسل تلفزيوني يحمل اسمه، وفيلم طُرح في عام 2012 تحت اسم فتح 1453 يحكي قصة الفتح منذ وصول السلطان للسلطة لغاية فتح القسطنطينية، وظهرت صورته على خلفية العملة الورقية التركية من فئة الألف ليرة والتي وضعت بالتداول من عام 1986 حتى عام 1992.

محاولات تشويه صورته :

حاول الغرب قديماً وحديثاً تشويه صورته، ففي عام 2014 أنتجت الولايات المتحدة(هوليود) وإيرلندا فيلم دراكولا أنتولد بميزانية ضخمة، مصوراً الفيلم



حياة الخليفة العثماني محمد الفاتح على أنه شرير يخطف الأولاد من القرى ليضعهم في جيشه، ويصور الفتوحات الإسلامية على أنها فتوحات ظالمة شريرة مزوراً التاريخ.

***



info@noonpublishing.net

01127772007 -02-338560372